السيف والنار

فى فتح السودان

سياسية تاريخية غرامية ادبية



كيف قتل الدراويش (السودانيين) هكس باشا فى موقعته الحربيـة بالسودان

اصدر هذه الرواية

احمد حسين واخويه

اصحاب مكتبة ومطبعة القطر المصرى

بالشرلي نمرة ٩٧ وراغب باشا نمرة ٢٣ بالاسكندرية

السيف والنار

في فتح السودان

رواية ادبية . تاريخية . سياسية . اجتماعية . بالصور

وهي وثائق ومنشورات ووقائع حربية في الاراضي السودانية

بقلم

يوسف افندى حسن صبري

(التزام)

احمد حسين واخويه

اصحاب مكتبة ومطبعة القطر المصري

بالشمرلي نمرة ٩٧ وراغب باشا نمرة ٢٢ بالاسكندرية

بموجب تصريح مؤرخ في ١٨ سبتمبر سنة ١٩٣٠

مقدمة



محمد على باشا الكبير رأس الاسرة المالكة

فى سنة ١٨٨١ قامت الدعوة المهدية فى السودان والثورة العرابية فى مصر فى وقت واحد كأنهما كانتا على موعد . وكانت للسياسة الانكليزية فى كلتيهما يد ظاهرة لان الانكليز كانوا لمصر بالمرصاد يغتنمون الفرص ان لم نقل يخلقونها . . . خطة قديمة وضعوها منذ نزل نابليون فى مصر وهدد الهند سنة ١٧٩٧ فمنذ ذلك اليوم خلقت عند الانكليز كلمة « طريق مواصلات الامبراطورية » فحاولوا بعد إخراج نابليون وانكار معاهدة امياز سنة ١٨٢٠ بينهم وبين فرنسا — على ان تظل حالة مصر بلا تغيير — الاستيلاء على مصر سنة ١٨٠٧ فصدهم محمد على باشا يساعده الفرنساويون على أن يكون الامر بيده فى مصر عندما ظهر لهم مقصد الانجليز وهم عاجزون عن مقاومتهم . وظل الفرنساويون بعد طرد الانجليز يؤيدون محمد على وينظمون ملكه حتى انتصر على تركيا ومد الملك المصرى الى

جبال طورس وألف امبراطورية ضخمة من مصر وسوريا والسودان . ولكن الانجليز كانوا له بالمرصاد ، فألبوا الدول على مصر واعتبروا «الغالب مغلوبا» وأبقوا مصر ولاية تركية . ثم اتخذوا عباس باشا الاول آلة صماء فى ايديهم فجعل طريق الهند فى قلب مصر وضمن لهم نقل البريد من الاسكندرية الى السويس وأقفل المدارس وتنازل عن كثير من الامتيازات . ولو طال ملكه لارجع مصر بارشادهم ولاية تركيه

ولما تولى سعيد باشا ونال دى لسبس منه امتياز حفر قناة السويس قاومه الانجليز الى أن عجزوا عن المقاومة فجعلوا نصب عيونهم امتلاك القناة وكان شعار سعيد باشا «مصر للمصريين» فقوى الوطنى وعززه بتولى شئون البلد ، فلم تجد السياسة الانجليزية طريقاً اليه

وخلفه اسماعيل ، فعقد العزيمة على أن يتم عمل جده محمد على باشا وأبيه ابرهيم باشا . لا بقوة الجند - وقوة الجند محرمة عليه باتفاق لندره (سنه ١٨٤١) - بل بقوة المال . فنال من تركيا سبعة فرمانات بتوسيع سلطته حتى الاستقلال فد الفتح فى السودان حتى الدرجه الثانيه بعد خط الاستواء وأدخل الاوغندا تحت حمايه مصر بمعاهدة مع ملكها متيزا(١) (سنه ١٨٧٤) وعين لينان دى بلفون مندوباً ساميا هناك

وهكذا صارت البحيرات وجميع منابع النيل مصريه . وولاه السلطان أقليم سواكن سنة ١٨٦٥ ثم صار ذلك الاقليم قطعة من الاراضى المصرية بفرمان ١٧ مايو سنة ١٨٦٦ . ومن أول يوليو سنه ١٨٧٥ أعطى بفرمان آخر أقليم زيلع

ثم وجه اسماعيل حملة مصريه استولت على سواحل البحر الاحمر من بربره حتى المحيط الهندى ولكن عين الانجليز كانت ساهرة يقظة يمهدون السبيل لتحقيق مطامعهم فحملوا اسماعيل باشا على ان يستخدم رجالهم فى حكومة السودان - بعد ما ابتاعوا منه أسهم القناة طريق المواصلات الامبراطورية وأوحوا الى رجالهم بمقاصدهم حتى اذا وقعت الازمه الماليه كتب مندوبهم فى اللجنة الدولية

---

(١) هذه المعاهدة سلمت لضابط انجليزى فى خدمة مصر . فمزقها وادعى انه كان ثملا من الخمر ولكن ردشريف باشا رئيس الوزارة المصريه ظل محفوظا فدل على نصوصها وشروطها

السيرديفرس ويلسون

«انه لا ينفذ مصر ولا يصلح لحكمها سوى الانجليز يتولون أمرها » وكتب الكولونيل ستيوارت عن السودان

« إن المصريين الذين لن يصلحون لحكم الدلتا كيف يصلحون لحكم السودان ؟ » هـذا القول قاله الكولونيل ستيوارت بعدما نشر السير صموئيل باكر سنة ١٨٦١ تقريراً عن السودان قال فيه

يستطيع السائح الاوروبى أن يتجول وحده فى جميع انحاء السودان كما يتجول الانجليزى فى حديقة هايدبارك عند غروب الشمس . فالشعب لين الطباع . سهل الانقياد ليس أسهل من حكمه أنظر . .

فبعد خلع اسماعيل قامت الثورة العرابية والدعوة المهدية بوقت واحد تنشطهما السياسة الانجليزية بكل الطرق والاساليب أن تسنى للانجليز احتـلال مصر سنة ١٨٨٢ . فوضعوا نصب عيونهم تفـكيك الامبراطوريه المصرية وامتـلاك السودان . وجعلوا حجتهم فى البقاء بمصر (الاضطرابات السياسية والمالية بمصر . وخطر المهدية بالسودان) أما المهدية فقد وصفها غوردون بقوله (انها حركة اليأس) بعدما شدد الانجليز فى ابطال النخاسه والرق تشديداً دفع الناس الى اليأس وبعدما ملاء واالسودان بالحكام الاجانب واقصاء المصريين والسودانيين وبعد احتـلالهم مصر وتسلطهم عليها ومنعهم حكومتها من اخماد الثورة الى ان أكرهوها على الجـلاء اكراها وكانت حجة السير بارنغ (اللورد كرومر) ان ميزانية مصر تتحمل فى كل عام ٢٦٠ الف جنيه هو عجز ميزانية السودان . فهى أضعف من أن تقوم بهذا الحمل . ولـكن هذا الادعاء كان وسيلة لقطع السودان عن مصر لان حماية الحدود بعد ذلك تتطلب أضعاف هـذه النفقة وحملوا خزانة مصر ٤٠٠ ألف جنيه فى العام نفقة جيش الاحتلال

ولما أرسلوا غردون باشا لاخلاء السودان لحصره الثوار أنفقوا هم من مالهم ومال مصر على حملة ولسلى لانقاذه ١١ مليون جنيه . ودفعت خزانة مصر من ديون غوردون أبان حصاره ٩٩٦٦٠ ألف جنيه مصرى منها ٦٥٧٢٥٨ جنيهاً للاجانب . ناهيك بجيش مصر الذى ذاب فى السودان بعد تركه ومتاجر المصريين وأموالهم وأملاكهم . والقلاع والحصون والمراكب الحربية والتجارية . ثم بعد ذلك نفقات استعادة السودان وقد أربت على سبعة ملايين جنيه

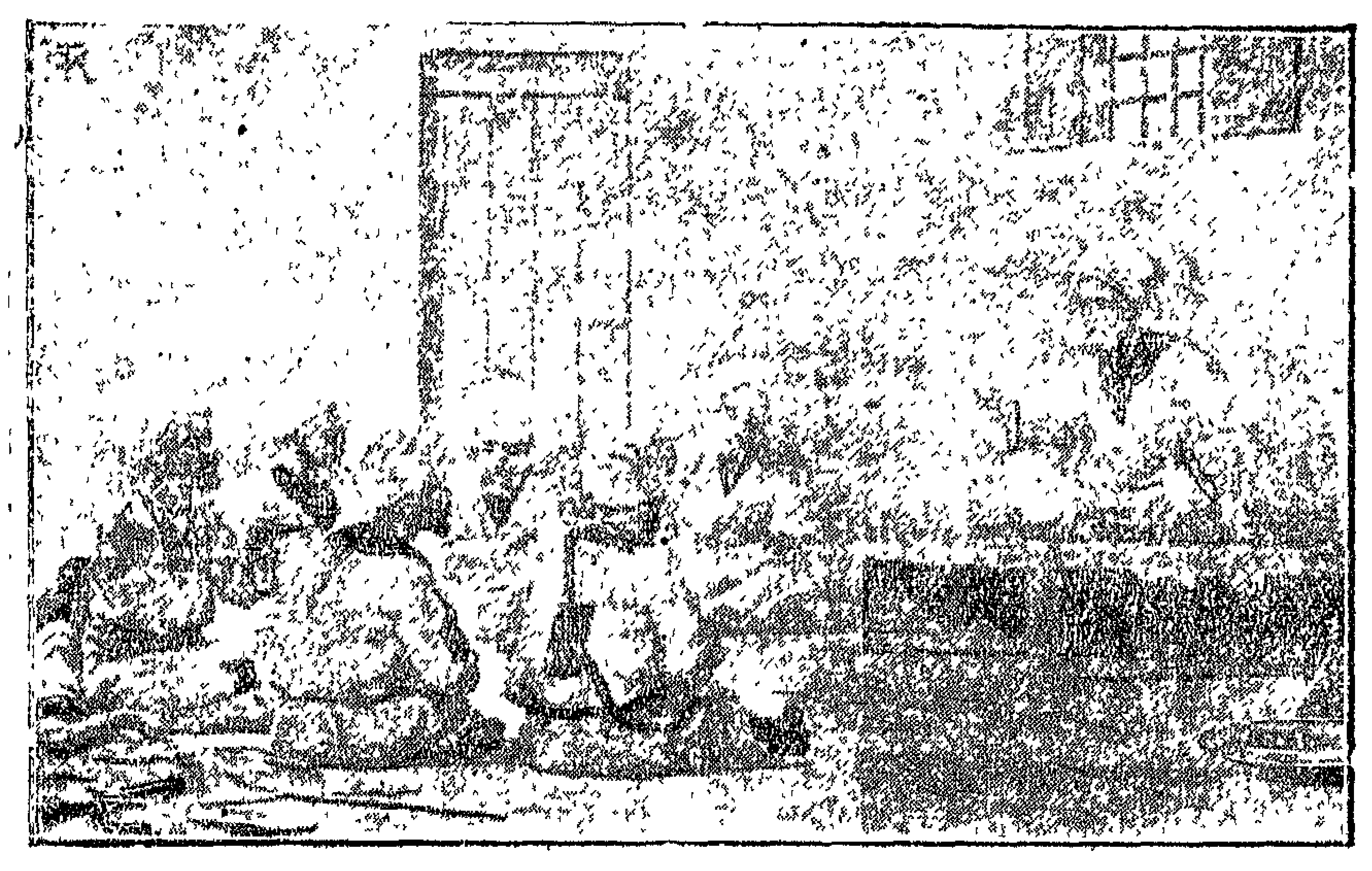
كل هذا المال دفع فى ١٦ سنة اقتصاد المئتى الف جنيه تدفع فى سنة أو سنتين . ولكنهم لم يريدوا الاقتصاد وانما أرادوا فصل السودان ثم استعادته لانفسهم لا لمصر . .

فتأمل . . وتأمل . .

***

حفظا للغرض الذى أسعى اليه . وخدمة للتاريخ المصرى . أثبت هنا أن السودان لم يفتح من قبل . ومن بعد الا بالجنود المصرية . وان أجدادنا وآباؤنا هم الذين اشتروه بدمائهم الغالية . (فواجب علينا ان لا نبيعه بأبخس الاثمان) . . ؟ ؟

لم تكد مصر تفرغ من الحوادث العرابية أو الثورة العسكريه المصريه (كما قدمنا ذلك فى روايتنا . فتاة الثورة العرابيه) حتى ظهرت الثورة السودانيه بظهور



صورة المهدى ومشايخ القبايل يتشاورون فى الحرب

محمد احمد المهدى السودانى وكان لها تأثير شديد فى تاريخ مصر الحديث فرأينا أن نأتى على تاريخها فى قالب روائى حتى يتسنى لابناء وطنى الاعزاء أن يلموا بتاريخ بلادهم من منبع النيل الى مصبه والتى حاول الاستعمار يوز طمس معالمه وإخفاء حقيقته . خصوصاً تاريخ البلاد السودانيه التى يدعون انهم الفاتحون لها بدماء أبنائهم . ولكى نثبت ان دعواهم هذه باطلة وان الاقطار السودانيه ما فتحها الا

المصريون : يجب ان نرجع الى حكم ذلك المصلح الكبير رأس الاسرة الملوكية وتاج فخارهم المغفور له محمد على باشا وأصله ونشأته فنقول . —

اذا ألقى القارىء الكريم نظرة الى خارطة بلاد الرومللى فى سواحلها الجنوبية على مسافة ٣٢٠ كيلومترا من الاستانه غربا يرى قريه اسمها (قوله) لا يزيد عدد سكانها على الثمانيه آلاف نسمة . وكان فى تلك القرية فى أواسط القرن الماضى رجل اسمه ابراهيم أغا كان متوليا خفارة الطرق ولد له سبعة عشر ولدا لم يعش منهم الا واحدا .

وفى سنه ١٧٧٣ توفى هذا الرجل وامرأته عن ذلك الولد وسنه أربع سنوات واسمه محمد على . فاصبح الغلام يتيما ليس له من يعوله الا عما اسمه طوسن أغا وكان متسلما على (قوله) فجاء به الى بيته شفقة عليه . غير أن المنية عاجلت طوسن فقتل بامر الباب العالى بعد ذلك بيسير فاصبح الغلام يتيما قاصرا وليس له من ينظر اليه

وكان لوالده صديق يعرف بجربتجى براوسطه فشفق على الغلام وجاء به اليه وعنى بتربيتــه مع أولاده . غير أن ذلك لم ينسه حاله من اليتم فكان يشعر بالذل وضعة النفس

ويروى عنه بعد أن ارتقى ذروة المجد واعتلى منصة الاحكام انه كان يحدث عما قاساه فى صبوته من الذل الى أن يقول :ـ

« ولد لابى سبعة عشر ولدا لم يعش منهم سواى فكان يحبنى كثيراً ولا تغفل عينه عن حراستى كيفما توجهت ثم توفاه الله فأصبحت يتيما قاصرا وأبدل عزى بذل وكثيرا ما كنت أسمع عشرائى يكررون هذه العبارة التى لا أنساها عمرى وهى (ماذا عسى أن يكون مصير هذا الولد التعس بعد أن فقد والديه ؟ ؟) فكنت اذا سمعتهم يقولون ذلك أتغافل عنه ولكننى أشعر باحساس غريب يحركنى الى النهوض من تحت هذا الذل . فكنت أجهد نفسى بكل عمل أستطيع معاطاته بهمة غريبة حتى كان يمر على احيانا يوما ن ساعيا لا آكل ولا انام الا شيئا يسيراً . . وفى جملة ما قاسيته انى كنت مسافرا مرة فى مركب فتعاظم النوء حتى كسره وكنت صغيرا فتركنى رفاقى وحدى وطلعوا الى جزيرة هناك على قارب كان معنا فجعلت اجاهد فى الماء وسعى تتقاذفنى الامواج وتستقبلنى الصخور حتى تهشمت

عداى وكانتا لاتزالان يانعتين ومازلت حتى أراد الله ووصلت الجزيرة سالما وقد أصبحت هذه الجزيرة الآن قسما من أملاكي ::..

هذا هو منشأ مؤسس العائله المالكه محمد على باشا ورافع لواء مصر على قمة المجد والعظمة..والذى قام بتنظيمها وترقيتها وبث العلوم والمعارف . وكانت من ضمن أعماله العظيمة اصدار أمره الكريم بفتح بلاد السودان عندما رأى بثاقب فكره وسمو ادراكه أن هذا الاقليم هو جزء لايتجزأ من مصر وأن مصر بدونه كجثة بلاروح

فلما انتهى ذلك الرجل الخطير من حروبه فى بلاد العرب عزم على فتح السودان فجند خمسة آلاف من الجند النظامى وبعض العربان وثمانية مدافع وجعل الجميع تحت قيادة اسماعيل باشا أحد أولاده رغما من احتجاج دولة أوربيه كانت تسعى لمعارضة باحتلال منابع النيل لذلك نراه قد اهتم بهذا الامر اهتماما كبيراً بعد أن استشار كثيراً من المهندسين الاوربيين الذين جاءبهم من بلادهم الى القطر المصرى وأقروا بالاجماع على ان وقوع منابع النيل تحت يد أى هذه (الدولة) مما لاتحمد مغبته حيث تصير حياة مصر فى يدها فصمم على انفاذ حملته الي السودان فصارت الحمله من القاهرة فى شعبان سنة ١٢٣٥ هـ . فى النيل فقطعت الشلال الاول فالثانى حتى السادس وظل أولئك الفاتحون يجبون خيرات البلاد المفتوحة بأيديهم فأتت شندى والمتمة وقد اخضعت كل مامرت به من القرى والبلدان بدون مقاومة واجتازت أقليم دنقلة من الشمال بدون مقاومة أيضا وفى جنوب هذا الاقليم تألبت قبيلة الشايقية وحاربت الجيش المصرى فرجعت مقهورة وسار الجيش الى الجنوب فقابله سكان اقليم (بربر) بالخضوع واجتاز النهر الى جزيرة الخرطوم فأعجب اسماعيل باشا بمنظر الخرطوم فأعجب وموقعها بين النيلين وكتب الى والده بما أحرزه من النصر ثم زحف قاصدا (سنار) ولما دنا منها كتب الى الملك عدلان بن ادريس يدعوه الي التسليم ويحذره سوء العاقبة فكتب اليه الملك كتابا يقول له فيه :

« ان مدينة سنار محروسة بالخيول الروميه . وفيها شبان يحبون القتال بكرة وعشيه فلا تغتر بانتصارك على الشايقيه بل تيقن باننا نحن الملوك وهم الرعية .. »

وما وصل الكتاب الى الامير اسماعيل حتى زحف بخيله ورجله عليه فالتقى الجيشان فى وسط غابه (ابى سقره) ولا سلاح لدى السودانيين غير الحراب والسيوف فأصلتهم العساكر المصريه ناراً حاميه فانهزموا وتأثر الامير اسماعيل بمن معه المنهزمين حتى دخلوا مدينه سنار فقصد الامير دار الملك فالقاه جالسا فى ايوانه فدخل عليه فوقف خاضعا بين يديه وصافحه وأسلمه سيفه علامة على الطاعة والخضوع وأجلسه على فراشه وجلس على الارض كواحد من الناس وكان يلتفت الامن حوله من اتباعه ويقول لهم

« هكذا أراد الله فلا راد لقضائه »

وبعد هنيهة قام اليه الامير اسماعيل وأدناه منه وأجلسه بقربه وحفظ له حرمته ولم يسلبه شيئا غير الامر والنهى

وبعد استيلاء المصريين على سنار أنفذ الامير اسماعيل صهره الدفتردار بجيش لفتح كردفان ودارفور وكان فيها قائد من قبل سلطان دارفور يدعى (المقدوم مسلم) فجمع لقتال المسلمين سبعين الف مقاتل من أهل دارفور فتلقاهم الدفتردار ومن معه بنيران حامية فانهزموا وهم وجلون من فرقعه المدافع وأكثرهم يظنون ان الله أرسل الرعد والصواعق تحاربهم مع المصريين وأخذوا يكررون الآية (ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته) واستولى الدفتردار على كردفان وأخذ فى الاهبه للزحف على دارفور ففاجاه نبأ مقتل الامير اسماعيل باشا فى (شندى) فعدل عن متابعة الزحف وقصد شندى محل الواقعه وكان ذلك فى أواسط سنة ١٢٣٧ هـ . واليك تفصيل حادثه مقتل الامير اسماعيل

بعد اتمام فتح مدينة سنار واعلان ضمها الاملاك الخديويه المصريه عاد الامير اسماعيل باشا الى شندى ليجمع المال لنفقه اتمام فتح السودان الغربى فنزل ضيفا عند زعيم شندى (الملك نمر) وهنا أبسط للقارىء حقيقة أرى من الواجب على تقريرها فان الاقوال تباينت فى ايضاح السبب الذى من اجله قتل الملك نمر الامير اسماعيل باشا . فروى بعضهم ان الامير رأى امرأة هى أخت هذا الزعيم فسأله عنها فقال انها احدى جوارى فقال له ممازحا أطلب منك مائة مثلها فلم يحمل الزعيم هذا القول على المزاح بل ظن ان الامير انما يود التطاول لهتك عرضه فاضمر

له الشر وفعل مكيدته التى سيأتى ذكرها بعد على ان هذه الروايه لاتخلوا من انتقاد لان المطلع على اخلاق وعوائد أعيان للسودان يرى أنهم من الرفيع الى الوضيع لايأنفون من تقديم الجوارى لاى ضيف ولو وضيعا فضلا عن حاكم ذى مقام سام كالامير اسماعيل باشا وبذلك يمكننى ان أؤكد فساد هذه الروايه وبعدها عن الحقيقة بعدا شاسعا . وهناك رواية اخرى اوردها هنا لاننى اعتقد قربها من الحقيقة ان لم تكن هى الحقيقه عينها على ان السبب الذى أدى الى هذا الاختلاف هو ان الامير وسائر الذين كانوا يرافقونه ذهبوا ضحية تلك المكيدة ولم ينج منهم أحد ولاريب ان كل رواية عن هذا السبب يرجع اسنادها الى قاتليه .. ولاريب أيضا أنهم لايقولون الامايبرر فعلتهم ويختلقون أسبابا تمحوا عنهم عارا ارتكبوه بقتل الامير فى ضيافتهم وليس معه غير نحو عشرين مملوكا من الجراكسة خدامه الخصوصيين

أما الرواية التى أشرت الى أنها القريبة من الحقيقة فهى ان الملك نمر عرض على الامير اسماعيل باشا أموالا طائلة وسأله أن يبعد عنه الملك بشير بن عقيد (١) وأن يمكنه من قتله فغضب الامير عليه وانتهره فصمم على اغتيال الامير والغدر به قبل ان تأتى رجاله لانه كان يخشى ان يلحقه مكروه من الامير بعد ذلك فجمع قدراً كبيرا من البوص حول الغرفة التى ينزل فيها الامير فى منتصف الليل اضرم النار فمات الامير من الاختناق

---

(١) هذا زعيم قريه من قرى الجعليين بأقليم بربر وقريته اسمها (العقيدة) فى الضفة الغربيه من النيل شمالى قرية شندى بنحو عشرين ميلا . جاء الى مصر وحظى بمقابلة محمد على باشا فاستقبله بالاكرام فعرض هذا الزعيم على محمد على باشا أنفذ حملة لفتح السودان وقص عليه سبب قدومه وهو أن زعيما يدعى (الملك نمر) وشى به الى عند الملك فأرسل اليه يستقدمه فاعتذر فأرسل خلفه شرذمه من رجاله وامرهم بضرب عنقه عند وقوع بصرهم عليه ففر منهم ولجأ الى مصر وفعلا اخذ محمد على باشا فى الاهبه وسير الحملة الى فتح السودان اذا ان فكرة هذا الزعيم كانت موجودة فى نفس محمد على باشا من قبل ...

بالدخان وفى غداة فى النهار أخرجت جثته وليس بها أثر من النار وجردت من ملابسها وأخذت النسوة يهينونها بالضرب والبصق والسحب على الارض وفى آخر النهار

أخذها رجل من التجار وكان الفساد قد دب فيها فطلاها بالصبر وخبأها فى بيته وبعد أسبوعين جاءت الاخبار بقرب وصول الدفتردار وأخذ الملك النمر فى الاهبة للفرار من وجه الدفتردار الذى قتل من عشيرة الملك النمر ما يربوا على عشرين الف رجل وسبا من الصبيان والنساء ما يزيد على هذا العدد وأرسلهم الى القاهرة ولا تزال ذراريهم موجودة بجهة (حوش الجاموس) وفى كثير من البيوتات القديمه

وتأثر الدفتردار الملك النمر وقتل من رجاله خلقاً كثيراً وانتهى الامر بالتجاء الملك النمر الى البلاد الحبشيه وبقى فيها حتى مات حقيراً ذليلا .

وعلى أثر المذابح التى أتاها جنود الدفتردار فى شندى تمكن الرعب والفزع من قلوب السودانيين وعول كثير منهم على الهجرة ومغادرة البلاد التى وقعت تحت سلطة المصريين فشخص المغفور له محمد على باشا الى السودان ليتدارك الحالة قبل اتساع الخرق وتعذر رتقه فسافر على طريق النيل فوصل الى الخرطوم وتعداها الى ماوراء سنار وعاد بقناطير مقنطرة من التبر وتمكن بحكمه من اعادة الامن الى ربوع السودان وبدل ما خالج أفئدة السكان من الرعب بالامن والاخلاد الى السكينة وهكذا تم فتح السودان بالجنود المصرية ...

الفصل الاول

(فى لندن)

السماء صافية الاديم . والارجاء منتعشة بأنفاس النسيم . والشمس فى الصباح منيرة فى دولة علاء أشعتها كانها مصباح الحياة ينير ظلمات الموت القاتمة وبين كل هذه لندن عاصمة البلاد الانكليزية فى رغد وأمن وسلام بعد أن تخلت عنها ضباب الشتاء الكثيفة وتركتها وحشة الظلم العبوسه

فتحت نافذة من منزل كائن فى شارع سانت مارتن وأطلت منها صبية استقبلت محياها نور الشمس فظهر كأنه شمس ثانية تبهر الانظار ... شعور كأنها سيول ذهبية متدفقة على اكتافها وعينان أشد زرقة من زرقة السماء وانقى من صفاء الماء . وقوام معتدل لا ذكر للغصن عند ذكره واعطاف متناسبة لا يكاد من يراها أن يصيح «جل من صور» تلوح عليها العظمة والخفه والرشاقه . ويقرأ على محياها

صفاء القلب وخلوص الطويه ويرى فى عينيها صراحة القول ، وقوة الارادة والثبات .. على ان من يطيل فيها التأمل يرى على محياها مسحة من الكآبه ، الا أن ذلك ما كان الا ليزيد جمالها سحراً ويضيف اليها قوة غير فوته تساعد على اجتذاب القلوب وافتتانها ...

اطلت من النافذة وكأن قوة غير منظورة اجتذبت نظرها فرفعت برأسها الجميل الى العلا وقد بدأ عليها شيء من علائم الحياء والخجل . ونظرت خلسة الى البناء الشامخ المقابل لمنزلها

هناك فى ذلك البناء الذى كتب عليه بحروف ضخمه «متروبوليتان» ظهر شاب أمام نافذة بالطابق الثالث وهو ربيع الحياة وميعة الشباب ، يداه مضمومتان الى صدره وهو ينظر لتلك الحسناء ووجهه مملوء بالاعجاب بها ، ظاهر عليه الارتياك المصحوب بقليل من الذهول فكانه يرى ملكا من ملائكة السماء او آلة للحسن والجمال ...

ما كادت الحسناء الانكليزيه ترى هذا الشباب حتى صعد الدم الى محياها وشعرت بقلبها ينتفض فى صدرها . على انها وقفت برهة . ثم ارتفع صدرها مما دل على انها ارسلت زفرة من اعمق اعماق قلبها وتراجعت وهى تغلق النافذة على مهل كأنها صنعت ذلك بالرغم منها

وبعد ذلك سارت الهوينا بخطوات بطيئه على ارض غرفتها مطأطئة الرأس حتى وصلت الى مقعد مستطيل وارتمت عليه بعد ان تناولت كتابا كان موضوعا على كرسى صغير مطعم بالصدف وضع بجوار المقعد . فتحت الكتاب محاولة القراءة فيه فحال دون ذلك صورة ذلك الشاب الذى كثيرا ما نشاهده فى نافذة الغرفه المقابلة لغرفتها واغمضت عيناها واستسلمت لخيالها يحوم حول هيكل الشاب . فقالت : ترى من يكون هذا المخلوق الساحر ؟؟ إنه ليس انكليزى الاصل ظاهر ذلك على محياه . فهو اسمر اللون . عيناه واسعتان سوداويتان . ثم تنهدت واتمت مناجاتها : « عيناه ساحرتان .. وإنه جميل لم ارفى حياته مثله »

وما وصلت الى هذه النقطة من خيالها حتى فتحت عيناها ونهضت واقفه ويداها وراء ظهرها قائلة وهى تتمشى فى ارض الغرفة

« مالى ولهذا الشاب انى بلاشك مجنونه ...»

وما كادت تتوسط الغرفه حتى فتح الباب وظهرت مارى وصيفتها الخصوصيه وفى يدها صينية من الفضة عليها بطاقه امرعت بتقديمها الى سيدتها التى تناولتها بخفه ورشاقه وقرأت عليها السطور الآتيه .

كابتن
هنرى روبرت

فتهلل وجه لوسى ملنون وهو اسم هذه الحسناء الانجليزيه وخاطبت وصيفتها قائلة . ليمكث فى قاعه الاستقبال ريثما اصلح من شأنى

فانحنت أمامها احتراما وأجابت : سأفعل يا سيدتى

ثم خرجت بعد ان أوصدت الباب وراءها بكل هدوء وسكينة ومن ثم هرولت لوسى نحو غرفة زينتها وجلست أمام مرآتها وعالجت وجهها بأدوات الزينة مما زادوجهها جمالا فوق جماله الطبيعى .. وبعد مضى خمس دقائق كانت لوسى تقدم يدها للكبتن هنرى روبرت ليقبلها وعلى شفتيها ابتسامة جذابة جعلته كالمأخوذ على أمره ، وهو شاب جميل المحيا معتدل القوام يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره ضابط بالجيش الانجليزى وحائز لوسام الشرف جزاء على شجاعته النادرة وجرأته الفائقة اللتين كان موصوفا بهما ... وهو من كبار الاغنياء الذين ورثوا ثروة طائلة عن آبائهم ومع هذا فقد كان شديد التعلق بخدمة بلاده بحيث لم تخطر بباله مرة أن يقتدى بأمثاله الاغنياء وينصرف الى عيش الترف والنعيم ...

ولكن للغرام سلطان جائر على القلوب ولاسيما القلوب الشريفة فانه قد أحب لوسى ودهش من جمالها لاول مرة وقع نظره عليها فى احدى ملاهى التمثيل

وكانت لوسى ابنة لاحد القواد العظام مات عنها وهو فى السبعين من عمره تاركا لها ثروة واسعة وكذلك ماتت والدتها بعد ولادتها بزمن يسير .. ولقد عتاد الكبتن هنرى روبرت ان يزورها فى منزلها بعد ان تعرف بها ويبثها لواعج غرامه فلم تكن تقابله فى المدة الاخيرة بشىء من هذا الحب وهو لا يفطن الى عدم اكتراثها به بعد أن اعمى حبها بصيرته

نراه قد وقف امامها وكأنه واقف امام آلهة معبوده واحنى رأسه احتراما وهامته اجلالا ورفع رأسه قليلا حتى تلاقت نظرته بنظراتها وكأنها صوبت اليه سهاما من نار احرقت قلبه . فقال لها بصوت خافت

ـ ارجو ان لا اكون قد ازعجت مسز ملتون ؟

فأشارت اليه بالجلوس بعد ان جلست امامه تروح على وجهها بمروحة صنعت من الريش النعام الناصع البياض واجابته بشيء من السرور

ـ إني عكس ماذ كرت يا كبتن روبرت . اراني سعيدة برؤياك

ـ هذا مما يزيدني ارتباطا بك . بل مما يجعلني انظر للعالم بمنظار السعادة الدائمه والهناء اللانهائي

ـ آه . انت رقيق العواطف الى حد بعيد

دائما أود أن أكون كذلك خصوصا معك يالوسى

ـ معي ؟ .. : فقط .. ؟

ـ لا يهمني العالم وما فيه مادمت تبسمين لى .. فأنت لى .. وهنا قاطعته لوسى قائلة بشيء من الاستخفاف :

ـ تريد أن تقول جملتك الخالدة .. انني كل مالك في العالم

أجابها بصوت متهدج . هو كذلك يامس ملتون

ـ أنت مبالغ ..

قالت ذلك بنوع من الدلال (الانجليزى) حيث دافع هنرى عن نفسه قائلا : معاذ الله أن أكون مبالغا .. انما أنا تحت كلمة تصدر من فمك .. روحى . ثروتى جاهى . كل ما أمتلك أضعه بين يديك .

فنهضت لوسى واقفة وعلى شفتيها ابتسامة خفيفة و نظرت اليه بمؤخر عينها وكأنها أرادت أن تغير من هذا الحديث الذى لم يرق فى نظرها فقالت

ـ هل لك في نزهة جميلة ياكبتن روبرت . أجابها بفرح

ـ ما أسعد المرء يسير الخطا وبجانبه ملاك مثلك

ـ اذا هيا .. قالت هذا وضغطت على الجرس حيث أسرعت وصيفتها بالدخول فابتدرتها لوسى قائلة . مرى سائق مركبتى بالانتظار

وقبل أن تجيب الوصيفة عليها صاح الكبتن هنرى

ـ كلا . كلا . لاداعى . ان مركبتى تنتظر على باب القصر

ـ حسنا ... هيا اذاً وتمتع بمصاحبة الملائكة

قالت ذلك وقد ملأت جو الغرفة رنات الضحك وهى تضع قبعتها على رأسها

حيث أخذ الكبتن قبعته العسكرية وسار وراءها حتى باب المركبة ومن ثم سارا في طريقهما الى النزهة ... فسارت المركبة بين صفين من الاشجار الناضرة فكان قلب لوسى يرفرف فوق جمال الطبيعة حيث كان الكبتن هنرى شارد الفكر يبنى الامانى ويهدمها ويسموا بخياله الى أعلا درجات الامل ثم يهبط به الى اسفل دركات اليأس .. تلك كانت حالتهما عندما قالت لوسى . آه . ما أجمل الحياة

فتنهد الكبتن ونظر اليها نظرة مملوءة بالحنان وأجاب وما أكثر تقلباتها

ــ لماذا ؟

أجل . فهى تبسم للانسان حينا وتعبس أحيانا . تفرحه تارة وتكدره أخرى . تضحكه وتبكيه . هى أشبه بغادة غانية لا شفقة فى قلبها ولا رحمة

أراك تنظر اليها بمنظار اسود . ولكنه يرينا الحقيقة

ــ كنت أخالك سعيداً . ولكن كلامك هذا يفسد على اعتقادى

ــ كيف يكون الانسان سعيداً . مع ان السعادة بعيدة عنه

ــ يستطيع أن يقترب منها

ــ آه . . كلما اقترب منها ، خصوصا امثالنا ، رجال الجيش الذين تدفعهم بلادهم ليعرضوا بحياتهم من سد جشع هذه البلاد اللاحد له . آه لو تدرين كم أتعذب وكم أتألم . أنا ذلك الضابط البريطانى الذى لا يمكن ان يستقر سيفه فى غمده لاراقة الدماء البريئة وازهاق الارواح الهادئة المطمئنة كى نسد أطماع دولتنا الاستعمارية آه لو تعلمين كم انا فى حاجة الى قلب رقيق يعطف على ويرفرف فوقى وأنا بين فرقعة السيوف ودوى المدافع . أنت يا لوسى ذلك الملجأ الامين الذى أستكن فيه وقت اشتداد العاصفة

قال هذا ورفع عينيه اللتان اغرورقتا بالدموع وأمسك بيدها فأحست ببرودة يده . فأجابت وعلى فمها ابتسامتها الحلوة التى لا تكاد تفارقها

ــ أراك قد عدت الى مفاتحتى الحديث عن حبنا

ــ عفواً . . انى أريد أن أقترب من السعادة كما قلت لى منذ هنيهة أجيبى هل تقبلينى زوجا ؟

فسحبت يدها من يده بلطفها المعهود واجابته وهى تتشاغل باصلاح ثوبها

ــ لقد قرأت اسمك ضمن الذين قررت حكومتنا ارسالهم الى البلاد المصرية

ومنها الى السودان لتهدئة الثورة المشتعلة نيرانها هناك

ـ ومن اجل ذلك اسألك هل تقبلينى زوجا ؟

ـ اذا جاوبتك على سؤالك كان ذلك الجواب سابق لاوانه

ـ لماذا ؟

ـ لانك ذاهب الى حرب

ـ أتظنين انها حرب ؟ ماهى الا نزهة على النيل ثم اعود ثانية .. يظهر انك جاهلة بأحوال بلادنا السياسية

ـ ولكن جرائدنا تصف هذه الثورة السودانية بانها شعلة من نار اذا لم يبادر باطفائها امتدلهيبها الى مصر فاكلتها بنيرانها

ـ هذا وهم ياحبيبتى . فالامر بسيط . الثوار قوم من الهمج المتوحشون ثائرون على حكامهم . فاذا تركوا وشأنهم استطاعت الحكومة المصرية القضاء على الثوار فى اقرب وقت

ـ ولماذا اذا لم تتداخل حكومتنا فى ذلك

ـ لها مآرب كثيرة . القصد منها الاستيلاء على مصر بكل معنى الكلمة . . .

فارسالها الجنود الانجليزية الى الاقطار السودانيه لاشىء الا الاستيلاء على منابع النيل ووضع اليد عليه ومتى تم ذلك ادعت ان لها حقا شرعيا فى فتح بلاد السودان . . روح مصر . . فتكون قد أصابت عصفورين بحجر واحد

ـ الا تعارض فى ذلك الحكومة المصرية ؟

ـ ماذا تفعل مصر أمام بريطانيا العظمى . بل ماذا يفعل العصفور الصغير أمام النسر الكاسر . ان ثورة السودان كلما أطفأها قائد من القواد المصريين بجيوشه المصرية تسعى انجلترا فى إشعالها من جهة أخرى ولا يلبث هذا القائد الذى خدم بلاده بأمانة واخلاص الا أن يكافأ برفته من وظيفته وتعين بدلا عنه ممن يروقون فى نظر حكومتنا أى الذين يميلون مع أهوائنا وتنفيذ مآربنا فى السودان حتى اذا ماظهر عجز القوات المصرية عن تهدئة الثورة قامت قواتنا تلك المأمورية وهكذا يرجع الفضل الى انجلترا وحدها

ـ ياله من وهم باطل . . مسكينة هذه الامم الصغيرة أمام قوة الاستعمار . ومتى تسافر ؟

ـ فى أواخر هذا الشهر، فاجوابك فى أمر زواجنا .. قولى كلمة واحدة تخرج من فمك ترسل بى إما الى النعيم ، وإما الى الجحيم

ـ ألا تستحسن أن أجيبك على هذا السؤال بعد رجوعك مما تسميه (نزهة النيل) وأسميه انا مذابح الابرياء ، أرجو ان تقبل ذلك

ـ حسناً . . ولكن تذكرى دائما إن قلبي لا يخفق الا من اجلك

انتبهت لوسى الى نفسها بعد هذا الجدال واذا بالعربة تخترق طرقات العاصمة التى أنيرت بالمصابيح ، فصاحت فى وجه الكبتن هنرى قائلة

ـ هيا يا هنرى الى وادى الملوك

أجابها بفرح : آه .. ما أحسن هذا ، انه من حسن حظى وسعادتى ان اكون بجانبك هناك

وفى الحال امرت لوسى السائق ان يذهب بهما الى نادى الملوك ففعل ما أمر به وبعد برهة بسيطة كانت لوسى وسط الراقصين والراقصات وقد تهافت عليها الجميع يقبلون يدها فدارت دورة تضاحك هذا وتقبل تلك والكبتن هنرى من ورائها يسير كما يسير وراء قائده الاكبر وهو مأخوذ بجمالها حتى انتهى بهما المسير الى ركن من اركان القاعة الفسيحة فالتفتت لوسى الى هنرى قائلة : هل أنت سعيد يا هنرى

ـ كل السعادة . يالوسى

ـ ألك شهية للعشاء هنا ؟

ـ هذا ما يزيدنى شرفا

اذاً دعنا نجلس على هذه المائدة

قالت هذا وجلست على المقعد وجلس الكبتن هنرى على مقعد امامها حيث امر الخادم باحضار العشاء لهما

لنتركهما قليلا ونرجع بالقارىء إلى سانت مارتن الذى تقطن فيه لوسى ولنذهب به الى الطابق الثانى من البناء الشاهق الذى امام منزلها وهناك نجد ذلك الشاب الذى رأته لوسى من نافذة غرفتها ، نراه وقد ارتدى ثيابه ووقف فى صالة المنزل يخاطب شاباً آخر يقرب منه شكلا وهيئة قال

ـ وهل تحققت من ذلك ياصديقى العزيز

ـ كل التحقيق

ـ ذهبن الى نادى الملوك

ـ اجل وهناك تركتهما ، قبحهما الله لقد كادت روحى ان تزهق عندما تتبعتهما بعربتى

ـ آه . . ولكنها جميلة . . الا ترى ذلك ياصديقى

ـ انى ارى عكس ذلك . وخير لك ان ترجع عن هـذا الغرام الذى اشغلك عن القصد الذى جئت من اجله الى انجلترا فانت جئت لتبحث وراء الفنون الحربية وطرق تعليمها فاذا بك وراء الفنون الغرامية . . وطرق تطبيقها

فتنهد الشاب وقال

ـ ماجئت إلا لاسلو . . أسلو ذلك الغرام الذى امتلك على قلبى . . وجئت كالمجنون

ـ يقيناً انك جئت لهذا

ـ اجل . وأنت تعلم ذلك ولكن أمها ابت الا ان تزوجها من رجل من أجل المال .

ـ وعليه رضخت للمادة وتزوجت .

ـ انها فعلت ذلك مكرهة . فلم يسعنى الا السفر لاسلو ففعلت

ـ وهـل لم تتعظ نفسك من الحب الاول حتى اردت دخول ميدان الغرام مرة ثانية

ـ لا يفل الحديد الا الحديد . ولا يأ كل الحب القديم الا الحب الجديد

قال هذه الجملة وجذب رفيقه من يده قائلا

ـ هيا : . هيا الى نادى الملوك .

ـ ولكنى اعتذر عن مصاحبتك الى النادى لانى كما تعلم قد عزمت على السفر باكر على ظهر الباخرة التى ستبحر فى الساعة الثامنة صباحا .. فأنا فى احتياج الى وضع امتعتى فى الحقائب .

ـ فاتنى ذلك . . الى اللقاء .

ونزل السلم سريعا حتى وصل الى باب الفندق حيث ركب عربة وهمس فى اذن السائق «الى نادى الملوك »

سارت الركبة حتى وصلت الى نادى الملوك فنزل الشاب منها و نفح الحوذى أجرته

ودخل الى النادي وأخذ يدور فيه حتى عثر على لوسى مع الكبتن هنرى فجلس فى المائدة المقابلة لوجه لوسى وطلب قليلا من الحلوى

وأخذ يختلس النظر اليها ولكنها كانت متشاغلة بحديث الكبتن هنرى فلم تره .. قال لها الكبتن وهو يضع كاس الشمبانيا على المائدة

ـ ترى ما يكون جوابك لى بعد نزهة النيل . فضحكت لوسى وقالت

ـ آه يا عزيزى هنري . هل نستطيع نحن النساء أن نبوح لاول وهلة عما يخالج قلوبنا رغم ما تصفوننا به من الانشاء؟ ان فى قلب المرأة منا لسراً لا تطلع عليه ألصق الناس بها الا حباً فى التكتم بل لذة فى الاخفاء . لا يدركها الا من عثر على شىء ثمين يظل يخفيه عن أعين الناظرين الى أن يطمئن اليه ويثق من تملكه فيظهره بعد ذلك ..

ـ كم أنا جزع من ذلك

ـ لا يضطرب فؤادك ولا يجزع فليس فيما أخفيه أمر عظيم .. وقد يكون عذرى الآن فى اخفائه عنك وعدم التصريح لك بما فى ضميرى ناشىء عن خجلى من نفسى وحيائى منك . والآن دعنا من هذا . هل لك فى الرقص على نغمات الموسيقى ورقصة الموت التى سترقصها على نغمات الرصاص والبارود فى بلاد القوم المتوحشون

ما أحوجنى الى ذلك . هيا لاشم من انفاسك عبير الحياة . فنهضا سوياً وتخاصرا واندمجا وسط الراقصين والراقصات وبعد ان دار نصف دورة بدرت من لوسى صيحة مكتومة واكفهر وجهها فجأة مما جعل الكبتن هنرى يتوقف عن الرقص سائلا إياها

ـ أبك ألم ؟

ـ شكراً . لقد شعرت بتعب فجائى

ـ إذاً هيا . . وأجلسى على مقعدك كى تستريحى قليلا .. هيا ..

أجابته وهى تضع يدها على رأسها

ـ حسنا تفعل يا كبتن

وهكذا جلسا الاثنان حول مائدتهما وقد شردت افكار لوسى وتغير وجهها وذهب ابتسامها بمجرد وقوع نظرها بينما كانت ترقص على ذلك الشاب الذى جلس حول المائدة التى أمامها ورأته يحدق بعينيه فى هيكلها فقالت فى نفسها بينما كان الكبتن يحاول أنعاشها بالمنبهات

- ترى من هـذا الشاب الذى لا ينفك يحدق بى النظر كلما رآنى حتى اذاما وقع نظرى على عينيه حول وجهه كأنه لم يرانى . من هذا الشاب وما هذه الطريقة الغريبة فى النظر الى النساء . انى أفهم فيما أفهم أخلاق رجال الانجليز انهم اذا وقعت لديهم امرأة موقع القبول ينظرون اليها فاذاما التقى الناظر ان ابتسم الرجل أو سلم الحاحاً أو انحنى قليلا بغية التوصل الى حديث وأما أن يحدق بها كان عينيه تحاولان أن تبتلعاها فاذاما نظرت اليه تجاهل الامر و تعامى فشىء لم استطع تعايله . انه ينظر الى باعجاب صامت أستشفه من خلال نظراته وانها لبلاغة لا أراها فى أعذب أحاديث المباسطة من أفصح المتكلمين . فالكلام الذى تسمعه المرأة من أفواه الرجال تعرفه كله أو معظمه قبل أن ينطقوا به . أما الاعجاب الصامت فيبدوا أثره فى العيون فهذا هو الثناء الحق على النساء . آه ما أجمله . وما أحلى نظراته انها تؤثر فى و تترك أثراً على قلبى لا أستطيع محوه ، ولكن مالى ولذلك

وما كادت لوسى تصل بخيالها الى هذا الحدغير مبالية بأسئلة الكبتن هنرى التى تساقطت عليها كثيراً واذا بصوت رقيق يقول لها

- هل تسمح الآنسة بالرقص معى ؟

رفعت لوسى عينيها الى مصدر الصوت فاذابها امام ذلك الشاب المجهول فاحدقت به النظر فترة حيث لم تستطع اجابته لانفعالات نفسها وهم الكبتن أن يعترض الشاب ولكنها افسدت عليه ذلك عندما رآها تمد يدها الى الشاب مبتسمة وهى تقول

لا يسعنى رفض طلبك أيها الشاب

ثم حولت وجهها الى الكبتن هنرى وقالت

- معذرة يا كبتن ، سأحاول الخلاص مما ألم بى بالرقص معه . أشكرك على اهتمامك بى

قالت ذلك ونهضت تخاصر الشاب المجهول لديها فاحتضنها وسارّ بها وسط الراقصين بينما كان الكبتن مأخوذاً على أمره من تصرف لوسى هذا الذى اعتبره اهانة له فجلس حول المائدة يتجرع من الشمبانيا ماشاء له أن يتجرع

قال الشاب للوسى : أنا سعيد جداً يا آنسة

اجابته بتلعثم : بأى شىء

- سعيد بالحصول على شرف الرقص معك ولو اننى لا أحسنه مطلقا ولكنى

سباريك فى حركاتك . لهذا ارانى سعيداً بك كل السعادة

ـ عفوا . انك تغالى كثيراً . .

ـ معاذالله ان اقول غير ما أشعر به . فالمصرى بطبيعته وفطرته لاينطق الا مايوحى به ضميره

فحملقت لوسى فى وجهه وقالت : أأنت مصرى ؟

ـ لى الشرف ـ كنت اظنكم قوماً متوحشين فاذابكم مثلنا

فابتسم الشاب من كلامها وقال : من قال اننا متوحشون ؟

ـ جرائدنا تقول ذلك . وماذهبت جيوشنا اليكم الالوضع حد نهائى للجرائم التى ترتكبونها ضد الانسانية

ـ على العكس ان جيوشكم لم تذهب الا لتقبض على مفتاح الشرق . ثم تشرع فى استعماره كله وقتل الحرية فى جميع اقطاره وهذا عمل يعتبرا كبر جريمة ضد الانسانية. فمن منا الوحش انتم ام نحن . .

ـ انت تتكلم بصراحة غريبة

ـ هذاأبنا ولكن سوف لاتتحقق رغبة الانجليز هذه فى مصر فنحن قوم لانقبل الضيم مطلقاً

ـ اتمنى ذلك .. ان الاستعماريون يقلبون حقيقة كل شىء الى عكسه ثم غيرت لهجة حديثها وقدار تبكت فى رقصها لعدم استطاعة الشاب المصرى مجاراتها فقالت: كثيراً مافكرت فيك

ـ كيف .. اكنت تفكرين فى ؟ ـ احياناً

ـ شكراً لك فقد كان هذا اجل ما اتمناه كلما رايتك من نافذة غرفتى

فاحمر وجه لوسى بعد اصفراره ورفعت نظرها اليه فراته يكاد يلتهمها بحرارة عينيه فلم يسعها الا الضغط على زراعه بقليل من الشدة قائلة

ـ ان عيناك ساحرتان ايها الشاب المصرى

ـ ان أنفاسك تصل الى اعماق قلبي ايتها الفتاة الانجليزية

ـ مااسمك ؟ ـ فهمى ضابط بالجيش المصرى

قال ذلك وقد اختلط عليه المسير وتتبع حركاتها فى الرقص فلاحظت لوسى ذلك عليه وخشيت ان يلاحظ بقية الراقصين فقالت : هيايامستر فهمى نذهب بعيداً عن

هذه الضوضاء . نجلس هناك فى حديقة النادى . على ضفاف بحيرته الصغيرة

ـ هيا . .

وانسل الاثنان من حلبة الرقص دون ان يشعر بهما الكبتن هنرى وذهبا الى حديقة النادى وجلسا فى كشك صغير اعد لراحة الراقصين . فكان الصمت يخيم عليها تحت ضوء القمر والرهبة شاملة كل ارجاء المكان فلا يسمع فيه سوى صوت الموسيقى البعيد المنبعث من صالة الرقص قالت لوسى

ـ قلت انك ضابط بالجيش . فلابد وان تكون ضمن هؤلاء الثوار الذين ارادوا ذبح الاجانب فى بلادهم

كذب كل ماتعرفينه عن ذلك . فنحن قوم شيمتنا الكرم وديننا الوفاء وما كنا لنشاكس مخلوقا الا فى جوارنا . انما هذه ترهات يستند اليها الانجليز فى تبرير موقفهم عندنا

ـ ان رجالنا قبضوا على زعيمكم المسمى . . .

قالت ذلك وهى تلمس جبينها بيدها تحاول معرفة الاسم فقاطعها فهمى قائلا :

احمد عرابى باشا ـ نعم . نعم . هو زعيمكم

ـ بل هو رئيسنا ، ولولا خيانة بعض رجالنا المصريين لما تمكن الانجليز من امتلاك شبر واحد من الاراضى المصرية . فالمصريون هم الذين دحروا أنفسهم بأنفسهم . وبسلاح الخيانة امام مطامعهم المادية . لا الانجليز بخيلهم ورجلهم . فقد استعملوا الذهب اكثر من استعمالهم الرصاص والسيف . آه . انك تذكرينى بأكبر مأساة شهدها التاريخ المصرى الحديث

ـ معذرة يامستر فهمى . ارجو معذرة

ـ عفواً . عفواً . بل ارجو ان لا اكون قد ازعجتك الليلة

ـ بالعكس بل اننى اشعر بالقرب منك براحة لم اتعودها فى حياتى

ـ ولكن سلوكى مع ذلك الشاب الذى كان معك . ربما يدعو الى غضبه منى

ـ الحق يقال يامستر فهمى انه ليس فى الشرقيين كما سمعت من كثيرين من أحرار الانجليز الذين جابوا الشرق وعرفوا أخلاق بنيه . . ليس فيكم مجال للانتقاد فى نظرى فأنتم مهذبون كرماء تظهرون كل احترام للمرأة على خلاف ما نسمع عنهم أما شباننا نحن أصبحوا يتوقعون أن تجرى المرأة وتجد فى طلبهم بل لقد اضاعوا حسن مناطقهم واصبحت المراة عندهم شيئا يستعمل للتسلية

أحيانا ولاعمال الرجال احيانا أخرى. وهم فوق ذلك وقحون لايخفون للمرأة عيبا ولا يرحمون منها ضعفا. أما انتم فتسامحون ممتلئون حياء

فابتسم فهمى من ذلك واقترب منها واضعا يده حول وسطها قائلا. انني مملوء بالعاطفة نحوك يالوسى. لقد تشرفت بمعرفة اسمك من زمن ليس بعيد

ـ وأى عاطفة تشعر بهـا نحوى ؟

ـ تلك العاطفة المهذبة التى تفيض على العقل نورا والهاما .

ـ ان هذه العاطفة كالسلاح اللامع الذى يرهف العقل اذا ماخمدت حـدته : وجحد ذكائه .

ـ ان عاطفتى نحوك يالوسى كالطائر الذى يغرد لنا تغريد الظفر والسرور فيفعم أيامنا بالسعادة ويخلع على ليالينا هناء ونعيما. هى الاجنحة التى يسمو بهـا الانسان الى العالم العلوى ليعود الى الارض ومعه عذارى من الالهام وعرائس من الافـكار

ـ ولـكن ما اتعس العاطفة. اذا ماتنازعت والعقل افهى اللهيب الذى يحرق كل فضيلة فى النفس فلا يبقى فيها ولا يذر . هى الجحيم الذى تتحجر فيـه مكات النفس الشريفة فيمسى القلب اقسى من الصخر. ان العاطفة يافهمى هى عـذابنا وعزاؤنا راحتنا وشقوتنا . فرحنا . وحزننا . آه اننى أشعر براحة تامه بجوارك أيهـا المصرى. إنك تتـكلم بلغتنا كأحد ابنائها .

ـ اننى تعلمت الفرنسية جيدا وقليلا من الانجليزية وعندما دخلت جيوشكم بلدنا التعس اهتممت بدراستها جيدا وبمجرد صدور العفو من مولانا الخديوى عن بقية الضباط استأذنت بالسفر الى هنا كى أدرس الفنون الحربية. فأذنت الحكومة لى على شرط ان تـكون المصاريف على نفقتى فقبلت ذلك

وبينما كان فهمى يقص عليها ذلك كانت راس لوسى على صـدره واصابعها تلعب فى رباط رقبته فقالت :

ان قلبى قد فتح لك على مصراعيه ترى ايها المصرى وانت ؟

ـ أنا ؟ لست أدرى ماذا أقول. سوى أننى لا أستطيع مفارقتك بل أشعر بأنى جزء منك رغم الفارق العظيم الذى بيننا الشرق والغرب .

ـ ليس فى الحب شرق ولا غرب . الـكل سواء

ـ ما أقدره سلطانـ يخضع لسلطته العشاق مهما اختلفت أديانهم

وتباينت ديارهم . . . .

قال ذلك واقترب بوجهه الى وجهها واصبحت عيناه فى عينيها وترجمت نظراتهما عما يخالج كل منهما من لواعج الغرام فلم يلبث أن هوى بفمه على شفتيها وقبلها قبلة طويلة أحست بلهيبها فى صدرها فجذبته اليها ثم ضغطت بشفتيها على فمه وقبلته بدورها قبلة حارة ثم قالت

ـ أنت الشخص الذى كنت أنتظره فى حياتى .. اجابها وهو يضمها الى صدره انت التى خلقت من اجلها . هل تتزوجيننى

ـ اود ذلك من صميم قلبى" بل انى لا اجدنى قادرة على رداى كلمة تخرج من فمك ياساحرى .. فعانقها ثانية وهو يقول : ياساحرتى .

لنترك هذين العاشقين ولنعد الى صديق فهمى افندى الذى تركناه يحزم فى امتعته للسفر الى وطنه نراه وقد جلس امام حقائبه متعباً وفى يده لفافة من التبغ يدخنها ناظرا الى حلقاتها المنعقده فى الجو ثم تنهد تنهدا عميقا وقال

ـ اجل انها حسنة جميلة . آه ما اجملك يادولت . شكرا لتلك الظروف التى جمعتنى بك . وشكرا لابن عمك فهمى الذى لولاه لما استطاعت قدماى ان تطأ منزلك . يجب ان افوز بك مهما كلفنى الامر لقد امتلك حبك نفسى وملا غرامك فراغ قلبى . انا ذلك الضابط الذى لا يهاب الموت اصبحت ارتجف هلعاً عند ذكراك . وبينما هو على هذه الحالة واذا بفهمى افندى وقفا وراءه يقول : فيما تفكر ياحضرة الملازم

فنهض من كرسيه صائحا . هذا انت يافهمى . لقد تأخرت كثيرا . ارجو لك حظا سعيدا فوضع فهمى افندى يديه فى جيب ردائه واخذ يتمشى امامه ذهابا وإيابا دون أن يتفوه بكلمة واحدة الا ان اسارير وجهه كانت تدل بوضوح عن سرور نفسه فسأل محمد افندى صديقه قائلا . هل وفقت فى غرامك الجديد ؟

فأخرج يده من جيبه ووضعها على كتف صديقه وقال : ارجو ان يكون كذلك

ـ وحوريه . أتسلوها ؟ فهز قدميه وطأطأ رأسه قليلا واجاب . ربما . هذا ما أسعى اليه . لقد تزوجت ـ تزوجت ولكن رغما عنها .

ـ اعلم ذلك . وسأتزوج أنا أيضا ولكن بمحض اختيارى

ـ تتزوج ؟ لعلك عزمت على السفر معى ؟

ـ بل سأمكث هنا وربما لا أعود الى مصر

ـ صدقنى ياعزيزى انى لاافهم ماتقول

ـ الامر سهل جداً .سأتزوج هنا فى انجلترا

ومن هى تلك الزوجة التى اخترتها — هى مس لوسى

ـ الانجليزية ؟ — فجلس فهمى على المقعد وقال : نعم هى

ـ أتتزوج باجنبية ؟ — ولم لا

ـ فكر قليلا. هناك فرق عظيم بينك وبينها . فأنت مصرى وهى انجليزية . الاخلاق متناقضة . العوائد مختلفة . كل شيء يختلف فى امر معيشتكما . فكر قليلا . هناك مئات من الفتيات المصريات يطابن ودك

هذا عزمى . ولن أرجع عن ذلك مطلقاً .

قال هذا بلهجة حازمة جعلت محمدا فندى يقف ضعيفا امامه فجلس امامه على المقعد وقال : ومتى يتم هذا الزواج

ـ فى بحر هذا الاسبوع — ـ بهذه السرعة

ـ لقد تم الاتفاق بينى وبينها على ذلك

ـ عجبى لذلك . حب واتفاق على زواج كل ذلك يحدث فى اول مقابلة

ـ انها المقابلة الاولى . ولكننا عندما جلسنا سويا شعر كل منا بأنه يعرف الآخر منذ آلاف السنين

فضحك اسماعيل افندى وقال . ربما كنتما متزوجين قبل آلاف هذه السنين اذا صح اثبات نظرية تقمص الارواح

ـ ولو انى لااعتقد بصحة هذه النظرية الا انى آمنت بها مع التحفظ الشديد

ـ لايسعنى الاان اهنئك مقدما

ـ كم كنت اود ان تحضر حفلة زواجنا التى ستكون على الطريقة الغربيـة

اود ذلك من صميم قلبى . ولكن مضطر الى السفر خصوصاً لقضاء ما تكلمت معك بخصوصه ليلة امس

ـ آه . مسألة زواجك بابنة عمى دولت — ـ هذا صحيح ،

ـ وهل انت جاد فى ذلك يا اسماعيل

سأفاتح والدها فى الامر . وكأنه تذكر شيئا قد نسيه فنهض واقفا واتم حديثه وهو يخرج من جيبه ورقة مطوية اعطاها لفهمى قائلا

- نسيت ان اطلعك على هذا الخطاب. انه ورد صباح اليوم من عمك لى فتناوله الخطاب منه واخذ يقراه بامعان ثم قال

- هذا شيء مؤلم والحق يقال. ترى ما سبب هذا الفشل

- سوء معاملة السودانيين قبل قيامهم بالثورة وسوء تصرف القواد المصريين وتفضيلهم المصلحة الشخصية عن مصلحة الوطن فهم لا يهمهم الا جمع المال ولو كلفهم ذلك ضياع السودان بأجمعه

فهز فهمى افندى رأسه وبدت عليه علامات الرزانة الممزوجة بالالم وقال

- حقيقة ياصديقى. الا ترى ان الحكومة المصرية منذ دخول السودان فى حوزتها وهى تنظر الى السودانيين بأنهم احط من سائر رعاياها وتستعمل العنف فى معاملتهم

- وفوق ذلك فقد كان تحصيل الضرائب فى السودان منوطا بجماعة لا شفقة ولا رحمة فى قلوبهم فكانوا يسومون السودانيين فى تحصيلها أنواع الخسف والذل وقد يقتضونها مرارا. كل هذا ملا صدور السودانيين بالحنق على حكومتنا حتى اذا ماظهر محمد احمد المهدى الذى كان ينتظرونه بفارغ الصبر قاموا مرة واحدة للخلاص من جور الحكام

قال فهمى افندى: كان يجب على حكومتنا أن تضرب بيد من حديد على راس هذا الرجل الذى يسمونه المهدى

- كان يجب ذلك. ولكن المشورة الانجليزية التى حتمها الاحتلال رات غير ذلك فاستخفت الحكومة المصرية به وترددت كثيرا فى الضربة القاضية على تلك الثورة وكذلك ان قيامنا نحن رجال الجيش المصرى بالثورة مع احمد عرابى اهاج خواطر السودانيين وجرأهم على النهوض وقد كانت الحكومة المصرية مشتغلة عنهم. قال فهمى افندى: ولا يخفى عليك أيضا ضعف الحاميات المصرية فى السودان فعلى ما أعلمه أن مجموع الجند الذى فى اصقاع السودان الواسعة من حلفا الى خط الاستواء لا يتجاوز ٤٠٠٠٠ جندى موزعة فى ١٥ مديرية وفوق ذلك ليس لدى هؤلاء الجنود معاقل حصينة

- ترى ياصديقى أن كل هذه العوامل كانت سببا فى استفحال أمر الثورة السودانية. ولهذا يقول عمك فى خطابه. انه من المحتمل أن تسافر فرقتنا الى الاقطار

السودانية . فيجب حضورنا لتلبية نداء الوطن . فماذا تجيب

ـ أما أنا فلا أسافر معك بل سأمكث هنا ومتى تقرر ارسال فرقتنا ستخبرني وزارة الحربية وعندها أصل اليكم وأكون بين صفوفكم . والآن في كم موقعة انهزم المصريون أمام هؤلاء الهمج الذين لولا القواد الانجليز الذين يقودوننا الى هناك وظاهرهم مملوء بالاخلاص وصدورهم مملوءة بالاوامر السرية من بلادهم لسحقناهم سحقا .. كم هي تلك المواقع

ـ كثيرة جدا . منها حملة علي بك لطفي . وحملة راشد بك أيمن وواقعة جبل الجرادة . وحملة يوسف باشا حسن . وواقعة البركه بكردفان . وواقعة الطيارة وواقعة عبود . وواقعه معتوق وواقعه الداعي

ـ آه هذا كثير . يجب ان تحتاط الحكومة للامر

ـ هذا ما نؤمله : والا ضاعت منابع النيل منا

ـ وبضياعها ضياع ارواحنا . فالسودان هو روح مصر ... آه ياصديقي لقد اهجت شجني بهذه الذكريات . واراني تعبا جدا وفي حاجة للرقاد

ـ حسنا وانا ايضا . فهيا الى الفراش

ـ ايقظني مبكرا كي اصحبك الى الباخرة واحملك جوابا الى عمي وهديه الى دولت

ـ سأخبر الخادم بايقاظنا الساعة الخامسة الا توافق ؟

ـ فلتكن الخامسة والنصف او السادسة . الى اللقاء

ـ الى اللقاء

الفصل الثاني

الزفاف

في اليوم الذي عين للزواج ظهر قصر لوسي بمظهر خلاب رفرفت فوقه ألوية السرور . وفاضت فوقه العظمة والابهة فكان يخيل الى الرائي في ذلك اليوم أن الله قد أنشأ فردوسا آخر على سطح البسيطة

فكانت الزهور منتشرة في كل مكان وقد علقت فوق الطرقات والرياحين وقد فاح عطرها وانتشر عبيرها بينما أقواس النصر تظلل الحديقة

وجاء المساء فتوافدت وفود المدعوين الى القصر الذى تحلى بالانوار الساطعة وحديقته التى انقلبت الى جنة فيحاء. وظلت وفود الزائرين تتدفق كالسيل حتى اكتظت بهم صالات القصر وحديقته

وكانت الانوار تتلألأ فى كل مكان وعزفت الموسيقى فحركت قلوب السامعين طربا واهتزت الافئدة سرورا . وقد انتشر المدعوون فى كل مكان يتمتعون بهذا الجمال ويغبطون فهمى افندى على هذا الزواج الذى لم يكن يصل اليه لولا غرام لوسى له

وقد ظهرت لوسي فى ثياب عرسها المتلالىء وهى تبتسم للمدعوين الا أن تحيتها لهم كانت فى منتهى التحفظ والحذر مما لاحظه بعضهم حتى ان المستر شارل نيوتن ذلك التاجر المشهور فى مدينة لندن قال لاحد أصدقائه المدعوين :

ـ أراهنك ياعزيزى على ساعتى الذهبية هذه ان استطعت أن تضع يدك فى يدى مس لوسى ملتون وتدور بها دورة واحدة وسط القاعة

فأجابه صديقه وهو يضحك : انك لشيطان ياشارل ... انها بلاشك تتخلص منى بلطفها المصطنع الذى تستعمله الليلة فلا تسلمنى نفسها

وهنا تداخل أحد أصدقائهما الذى جاء أخيرا وسمع الجملة الاخيرة فقال

ـ ألا تتكلمان عن مس لوسى وسلوكها الليله   ـ نعم

ـ ارى انها تنفذ اوامر زوجها المحترم

ـ بلاشك فهو غيور جدا عليها . قال المستر شارل نيوتن

ـ هذه عادته الشرقية فلا يستطيع ان يتخلى عنها

فأجابه . وهل تظن أن مس لوسى أو مسز فهمى تستطيع أن تسير وغيرته هذه ؟

ـ أرى انها تحبه حباً أعمى بصيرتها . فلاشك بأنها ستصغى الى كلماته كأنها صادرة من الرب

ـ وفوق ذلك فهو يغار عليها حتى من نظرات الغير . ألم تلاحظوا عليه أنه لم يفارقها لحظة واحدة وعيناه تحرسانها أينما ذهبت وحيثما توجهت . كان باستطاعته أن يضعها بين فكيه ويطبقهما عليها حيث لاتتكلم بعد ذلك مطلقا

فضحك الجميع من جملته الاخيرة هذه وقال شارل : انها بلاشك ستضطر الى هجره اذا هو استعمل معها الطرق الشرقية فى الحياة المنزلية

وهكذا كنت تسمع همساً بين المدعوين وحديثاً خافتاً لايدور الا على زواج

لوسى بضابط مصرى هو فهمى افندى الذى ظهر فى هذه الليلة بمظهر جميل فاق كل مظاهر هؤلاء الغربيين حتى ان انظار جميع النساء لم تتحول عنه أينما سار ولكنه لم يكن ينتبه لشيء من هذا فقد كان همه الوحيد متابعة زوجته كالظل لصاحبه حتى انها قالت له بشيء من الدلال

ـ فهمى . أرى قلبك يلتهب بنار غرامى . فلا تستطيع مفارقتى

أجابها وهو يبتسم فى وجهها . هذا دليل على شدة حبى لك وحرصى عليك

ـ ولكنك منعتنى من الرقص مع كل رجل يتقدم الى لهذه الغاية وفعلا نفذت امرك هذا حتى هذه اللحظة فهل تجد أن تصرفك هذا من باب اللياقة ؟ حقاً يا فهمى لقد أحرجت مركزى

ـ ليس فى هذا إحراج يالوسى . حبى لك جعلنى أغار عليك فذلك قلت لك لا ترقصين مع احد وانت قمت بالواجب عليك فأطعت امر الزوج

ـ آه ، الطاعة لها حد محدود . فليس على العاقل ان يطيع المجنون

ـ تجرحين احساسى يالوسى ؟

ـ وانت تطعن حريتى يافهمى . . قالت هذا وبدا عليها شيء من الاستياء ظهر جلياً على وجهها . فلاطفها فهمى افندى قائلا

ـ لا اقصد ذلك . انى اخشى عليك فقط نظرات هؤلاء القوم الذين يكادون يلتهمونك بشراهه . فلم يسع لوسى الا الضحك فضربته بمروحتها مازحة معه وقالت : ولكننى عسيرة الهضم ايها الزوج المحترم

فأمسكها بذراعها وسار معها قليلا وقال : ان أسنانى قوية جدا أستطيع بواسطتها أن أهضم كل شيء

ـ لا بأس من أسنانك فهى حنونة بلا شك

قالت ذلك وألقت عليه نظرة جعلته بين السماء والارض فأجاب

ـ أرجو أن يكون ذلك . آه متى تنتهى هذه الليله . فقالت : ألست مسرورا

ـ سرورى بالنتيجة أكثر من سرورى من حضور هؤلاء القوم الذين يزعجونك بنظراتهم ـ يظهر أنك شديد الغيرة

ـ وكيف تريدين منى أن لا أغار على امرأتى

ـ لا تأتى الغيرة الا من الشك

ـ لا بأس من ذلك فالشك يحيي كل غرام . وأنا مغرم بك . هائم بحبك الى حد بعيد جدا . ودأبنا نحن الشرقيون الغيرة على نسائنا وهذه سليقتنا فلا يمكن لاى مخلوق كان أن يرى وجه نسائنا سوى ذويها

ـ وهل انت الآن فى الشرق ؟ اوهل انا شرقية اخضع لناموسكم . هنا يازوجى العزيز فى بلادنا الحريه بأجلى معانيها ونعرف نحن نساء الغرب كيف نعيش تحت ظل هـذه الحرية فلا نعبث بالشرف مطلقا . اما نساء الشرق فيظهر من شدة غيرتكم وحبسكم إياهن فى عقر دورهن انهن اذا اعطين قليلا من الحرية هوين الى اسفل دركات النقص وعبثن بالشرف الذى لا يقدرنه حق قدره اليس كذلك ؟

ـ ان نساءنا الأشرف من ان تصفيهن هكذا فهن مثال الشرف والكرامة يالوسى يجب ان تعرفى ذلك

ـ وانت يجب ان تعرف انى غربيـة اتعشق الحرية وذقت طعمها اللذيذ فلا يمكن اى قوة فى الارض ان تحجبها عنى . فهمى . اتوسل اليك الا تخوض فى مثل هذا الـكلام مرة ثانية . انى احبك وفضلتك على ابناء جلدتى فلا تعرضنى لغيرتك . اهل انت فاعل .   ـ ربما استطيع

وعندما وصلا بكلامهما الى هذا الحد تقدم اليهما احد المدعوين وهو شاب فى مقتبل العمر يدعى ادوارد كلايتون فانحنى امامهما ووجه كلامه الى مس لوسى قائلا : ما اشد إعجابى بك الليلة ياسيدتى

اجابته : شكراً على رقيق عواطفك

فأجاب : من ذا الذى يستطيع ان ينكر ضوء الشمس فى رابعه النهار

فامتعض فهمى افندى من ذلك الاطراء وعده مغازلة لزوجته ولـكن الشاب التفت اليه قائلا : معذرة ياسيدى . ثم خاطب لوسى متمما : هـل تسمحين لى بشرف الرقص معك فى هذه الفرصة . هيا . هيا

قال هذا وجذبها بلطف اليه ولم يترك لها مجالا للاعتذار

فسارت من الشاب وهى تنظر الى زوجها نظرة طويله تركته واقفا كالمعتوه فوضع يده فى جيب ردائه واسرع تو الى حديقة القصر منفردا بنفسه وهناك جلس على احدى المقاعد واشعل سيكارة وهو يقول

ـ ربى تـكاد الغيرة تأكلنى . زوجتى بين ايدى الرجال واذا خاطبتها فى ذلك قالت

اننا نعرف كيف نعيش فى ظل الحرية . اى حرية هذه ؟ ولكن لا بأس فلن يروها بعد الليله سأقفل عليها القصر . سأجعلها شرقيه رغما عنها . وفيما هو على ذلك اذا احس بيد فوق كتفه وصوت يقول

ـ معذرة ياصديقنا المصرى . ارجو ان لا اكون ازعجتك

وكان صاحب الصوت رجل كهل وهو من الرجال السياسيين فى انجلترا ومن ذوى النفوذ فى بلاده وكان فهمى افندى تعرف به بواسطة لوسى فقد كان صديق والدها . فنهض فهمى افندى ورحب به واجلسه بجانبه . فقال الانجليزى اذا صدق ظنى فأنت تفكر فى مستقبل بلادك

وكان هذا الظن بعيدا كل البعد عن فكر فهمى افندى الا انه لم يبد مانع من متابعه الرجل فى حديثه لعلمه ان رجال السياسة لا يطيب لهم الجلوس الا فى جو السياسة فقال كذلك ياصديقى العزيز

ـ بلغنى من زوجتك انك من رجال الجيش ـ نعم ياسيدى

ـ إذاً فأنت كنت مع عرابى

ـ نعم كنت اقاتل مع عرابى باشا

ـ ترى انه انهزم اخيراً امام جيوشنا؟

ـ فعلياً . لم ينهزم ياسيدى . بل جاءته الهزيمة من طريق الخيانة

ـ وهذا رأيى ولولا الذهب الوهاج الذى حشونا به مدافع أطماعنا وأطلقناه تحت أقدام ذوى النفوس الصغيرة والمراكز الكبيرة لما استطعنا أن نقبض بيدنا على مفتاح الشرق الذى كنا نسعى اليه منذ مئات السنين

قال هذا وصمت قليلا وحك بأصبعه فوق رأسه الخالية من الشعر الا القليل ثم استرد حديثه قائلا

ـ وسوف نعمل كل ما فى استطاعتنا للاستيلاء على الاقطار السودانية اذ لا يخفى عليك اهميتها عندنا

ـ البلاد السودانية ؟ ـ نعم

ـ انها من حق مصر وان جيوشكم لا تستطيع الوصول الى هناك بل سوف ترحل جيوشكم من مصر نفسها متى عاد الامن والسكون

ـ ومتى يعود الامن ؟ . ان فى السودان ثورة لهى أخطر اذا امتد لهيبها الى

مصر من الثورة العرابية . فيجب قمعها فى الحال قبل استفحال أمرها . ألا ترى ذلك

ــ ان حكومتنا سوف تطفىء هذه الثورة فى مدة قليلة

ــ أنت ترى ذلك . والوقائع تدل على عكس ما تقول فالجيش المصرى الموجود فى هذه الاقطار لم يوفق للآن فى هزيمة هؤلاء البربرولا مرة واحدة وارى ان تدخل القوات الانجليزية المدربة على القتال والمجهزة بأحدث الاسلحة كاف لوقوف هذه الثورة . واذ لم تفعل ذلك انجلترا اعتبرها كما يعتبرها غيرى من شاسة السياسيين ارتكبت اكبر غلطة نحو الشرق الذى هو طريقنا الى الهند . آه لقد تجاوزت الحد فى حديثى معك ولكن لا بأس فقد اصبحت منا بعد زواجك بفتاة انجليزية

ــ مهما كانت الصلات التى بينى وبينكم فانا مصرى وانتم انجليز

ــ حسناً . سوف نكون اخوين يوماما . اوعلى الاقل شركاء كم انا متكدر جداً من هؤلاء الذين يسمون انفسهم بالدراويش ان الانتصار يتبعهم اينما حلوا . وها هم فى الاخبار الاخيرة الواردة علينا من هناك ان مدينة الابيض سقطت فى ايديهم وغنموا منها اشياء كثيره كانت للجيش المصرى

آسف جدا ياسيدى ولسوف تهتم حكومتنا بالامر وتضربهم الضربة القاضية . ذانه لا يوجد مصرى واحد يرضى بضياع شبر من ارض مصر

فكر طويلا ثم رفع راسه الى الرجل الذى كان يدخن فى غليونه وعلى شفتيه ابتسامة مملوءه بالمكر والدهاء وساله بلهجة حزينة

ــ يستطيع سيدى ان يقول كيف سقطت مدينة الابيض

ــ لكى اجيبك على ذلك . ارجو ان تصغى الى لاقص لك ظروف الجيش المصرى فلدى معلومات كثيره عن ذلك . فلقد رايتك تشرد بفكرك وتستغرب هذا الامر . اسمع : تكلم ياسيدى

ــ ان انجلترا لم تفعل عن اى حركة تقوم فى السودان فلدينا جمعيات كثيرة رحلت من قبل بحجة منع تجارة الرقيق انما السبب الوحيد لوجود هذه الجمعيات هى دراسة أخلاق وطبائع هذه الامم والقبائل حتى نعرف من أين يمكننا استعمار هذه البلاد الغنية بذهبها وتجارتها ومحصولاتها . وفوق ذلك فهى منبع النيل الذى يروى أرض مصر . فتى كان السودان فى أيدينا كانت مصر وراءنا تسعى للتذلل الينا وطلب ودنا

فنملى عليها ما نريد اذ اننا نعلم ان الشعب المصرى لا يمكن أن يصبر على احتلالنا له . فأردنا خنقه فى السودان كى لا يسمع له صوت

قال الرجل ذلك واعتدل فى جلسته بعد أن القى ما فى غليونه من الدخان المحترق ووضعها فى جيبه وقال

ـ لقد زحف المهدى بخيله ورجله الى الابيض حيث رتب رجاله حول المدينة وأعد المتاريس والطوابى ومنع دخول الاقوات اليها بتاتا فكان الجنود المصريون يدخلون الى منازل الاهالى ويأخذون ما فيها من الغلال والاقوات اذ لا مؤنة فى مخازن الحكومة ودام الحال على ذلك حتى نفدت الاقوات من كل سكان المدينة وهنا ابتدأوا أن يذبحوا الماشية والمجاعة آخذة فى التمشى حتى ذبحوا الحمير وبلغ ثمن الاقة من لحمها مائتين وخمسين ريالا . وكذلك ثمن الاقة من لحوم الكلاب . وبلغ ثمن الكيلة من الغلة سبعمائة ريال وأخيراً أعدم كل شىء وبلغ ثمن الدجاجة مائة وخمسين ريالا . وكان الجنود المصريون يخرجون على شكل مربع فى كل غداة الى حوالى المدينة ليأخذوا حشيشا اسمه (الحسكنيت) وفى جوفه حبوب تشبه الغلة يقتاتون بها حتى نفذ هذا الحشيش . . واشتدت المجاعة بالجنود الذين اكثروا من اكل الصمغ وتفشت امراض الاسهال والدوسنطاريا فازداد بذلك عدد الوفيات . هذه كانت ظروف الجيش المصرى وقت حصار الابيض

فوضع فهمى افندى يده على عينيه وقال : من يالهم من مساكين . . ان لديك معلومات ياسيدى ليس لدى أى مصرى على ارضها

ـ ان معلوماتى آخذها من أهم المصادر فلنا عيون كثيرة فى انحاء السودان كما قلت لك

قال ذلك الرجل الانجليزى متباهياً متفاخراً وأردف قوله هذا قائلا

ـ وعندما وصلت الحال الى ما تقدم لك جمع مدير الابيض جميع الضباط والموظفين والوجهاء وشاورهم فى الامر فقرروا جميعا ان يشاطروا الحكومة فيما ادخروه ولكن كل هذا لم يأت بالفائدة المطلوبة فقد فر كثير من الجنود وسلموا أنفسهم للمهدى وتمرد العساكر على الضباط حتى انهم كانوا يضربونهم ويهينونهم وتألفت عصابات من الجنود يوالون الهجوم على المنازل ليسلبوا ما يجدونه من الطعام وصار الخندق خالياً من المدافعين . فقال فهمى

ـ هل هذا يحصل وعبد القادر باشا حاكم السودان لم يحاول انقاذهم

فاجاب الانجليزى وهو يضحك : على العكس فهذا الرجل الذى اعتبره عظيما قد طلب من حكومته أن تمده بالمال والجنود ليستطيع انقاذ الابيض واستئصال الثورة من اقليمها هناك . الا ان الحكومة لم تصغ اليه مطلقا فماذا يفعل الاسد الكاسر فى قفص من حديد ..

ـ إذا لابد وأن تكون خيانة . . ألا تعترف بذلك

ـ لا أستطيع ان اجاوبك على ذلك . فهذا سر من اسرارنا التى تدفن معنا فى القبر . هذا سر الوطن .. انما أستطيع ان اقول لك ولك ان تستنتج بعد ذلك ما شئت ان الحكومة المصرية ارسلت الكولونيل ستيوارت بمأمورية سرية فى السودان وقد علمت انه عند ما وصل إلى مدينة بربر عرض كتاباً على مديرها من المعية السنية وطلب التصريح له بأجراء تفتيش عام على كل دفاتر الحكومة ومصالحها فأرسل المدير على جناح البرق يعلم عبد القادر باشا الذى امره بالانقياد لكل ما يأمره به الكولونيل المذكور ويقول البعض ان مأمورية الكولونيل كانت الوقوف على حقيقة ما أذاعه ذو المقاصد السيئة عن عبد القادر باشا حيث قالوا انه طامح للاستقلال بالسودان هذا وقد كلفت حكومتنا بعمل تقرير فانتهز هذه الفرصة لتحقيق مأموريته نحو وطنه انجلترا فى السودان فدرس احوال هذه البلاد درساً دقيقا وأرسل التقرير فى ٩ فبراير سنة ١٨٨٣ نظر فيه مليا فى حالة السودان المالية والادارية وبين وجوه الخلل وطرق الاصلاح وعجز المصريين عن حكم السودان وحدهم وبناء عليه ستشير انجلترا بمالها من حق الاستشار على الحكومة المصرية باخلاء السودان واسترجاع عساكرها وموظفيها ..

فنهض فهمى افندى واقفاً وقال :

ـ لقد تفوهت ياسيدى بأقوال خطيرة لو علم بها الشعب المصرى لسار على دولتكم التى تقف جيوشها فوق أرضنا بحجة نشر السلام فاذا بها تعمل فى وجود القلاقل والفتن

ـ وهل يستطيع أحد ان يقف على نوايانا .. ثم ان مثل الشعب المصرى الآن بعد أن تركته الثورة العرابية كمثل ذلك الجندى الجريح الذى لا يستطيع حراكا لذلك تنتهزون هذه الفرصة لتثبتوا أقدامكم فى وادى النيل من منبعه الى مصبه .

آه .. لاتذهب بعيداً ياصديقنا العزيز .. ان مجرد كلماتى لك لم تكن الاعن رأيى الخصوصى . والآن استسمحك عذراً فى تركى إياك كى تتهيأ لمحاصرة عروسك الانجليزية .. وأرجوا أن تجعلك هذه الزوجة رجلا منا . فقال فهمى افندى وهو يحنى رأسه رداً لتحية الرجل

ـ بل سأجعلها مصرية مثلى . وسوف ترون ذلك ..

***

لنعد بعد مضى شهر من هذه الحوادث . ونذهب بالقارىء الكريم الى شارع الناصرية وهو من أهم شوارع مدينة القاهرة فترى اسماعيل افندى الضابط الذى كان مع فهمى افندى فى مدينة لندن ثم عاد الى مصر نراه واقفاً أمام دار فسيحه بالشارع المذكور وهى دار أحد سراة مصر المدعو خليل افندى ادهم وهو عم فهمى افندى . وكان يعيش فى منزله مع ابنته دولت التى كانت زهرة يانعه فى حديقة سعادته والتى أحسن تربيتها وأحبها حبا يقرب من العبادة خصوصاً بعد وفاة أمها فكانت تعزيته فى حياته فأسكنها سويداء قلبه وكثيراً ما كان يناديها « يازهرة حياتى » وكما كانت دولت زهرة حياة أبيها كانت كذلك مطمح انظار اسماعيل افندى الضابط بالجيش وهى فتاة لاتتجاوز السابعة عشرة من عمرها ذات جمال رائع يسبى العقول رشيقة القامة معتدلة الجسم . لها جبهة عريضة وعينان سوداوان أشبه بعيون الغزلان ..

دخل الضابط اسماعيل افندى منزل حبيبته ليخبرها وأبيها بأنه دعى الى السفر مع حملة هيكس باشا التى سترحل من مصر فى يوم ٧ فبراير سنة ١٨٨٣ أى بعد مضى شهرين فصعد السلم بخطوات ثابتة يتقدمه الخادم الذى أعلن حضوره لسيده فأدخله غرفة الاستقبال حيث وجد خليل افندى بانتظاره فرحب به كل ترحيب ثم دار الحديث عن مسألة سفره مع الحملة لانقاذ كردفان وسحق المهدى هناك حيث سمعت دولت كل مادار من هذا الحديث وعلمت بسفر حبيبها فكان وقع الخبر عليها كالصاعقة فلعنت الحرب والمتسبب فى هذه الحرب . ولى جرم فى ذلك فقد هدم هذا السفر صرح سعادتها التى كانت تتوقعها بقرب زفافها الى اسماعيل افندى ذلك المخلوق الذى احبته من كل قلبها حينما رأته لاول مرة يزور منزل والدها مع ابن عمها فهمى ولم تستطع كتم غرامها به ولم تعدم وسيلة لكى يبادلها إياه فكما أن رجال

الجيش ماهرون فى رسم الخطط الحربية والذود عن بلادهم وكما لهم فى الكر والفر في ميدان الوغى لهم فى ميدان الغرام أوسع مجالا وأبرح مكانا فقد صوب اسماعيل افندى نظراته الفتاكة التى كثيرا ما يجد المتفرس فيها معنى للمكر والدهاء الى دولت كما يصوب القذائف النارية على صفوف الاعداء فيمزقها شر ممزق . وهكذا وقعت دولت الفتاة الساذجة الطيبة القلب أسيرة بين يديه

قال اسماعيل افندى يخاطب والدها : يسوءنى جدا هذا السفر الذى بلاشك سيؤجل موعد قرانى على كريمتكم

فأجابه خليل افندى وهو مطرق برأسه الى الارض : لا مرد لنداء الوطن يا ابنى واذا شئت عقدت لك عليها الآن حتى اذا ما عدت منتصرا الينا أقمنا شعائر الزواج ولقد اوصانى ابن اخي وزميلك فهمي بأن اسهل لك كل سبيل فى زواجك هذا . وأنا ما زلت أكرر لك بأنه لا مانع عندى مطلقاً

شكرا لك وله . ولكن من كان مثلى فى هذا الموقف الذى وجدتنى فيه الظروف ذاهب بين صفوف المقاتلين لا يعلم أن يعود حيا أم يدفن هناك

ـ لا سمح الله يا ابنى . بل ستعود حيا ان شاء الله

ـ ان حياة الجندى معلقة بين حبائل المعارك التى يقطعها رصاص الاعداء وتمزقها سيوفهم

ـ وهذا لا يمنع عقد قرانك عليها ان أرادت

ان جل ما أعناه يا سيدى هو أن اضع يدى فى يدك . ولكن رجائى الذى جئت من أجله أن نؤجل هذا الامر حتى تنتهى ثورة السودان . كى لا أكون حجر عثرة فى طريق مستقبل سعادتها

ـ ما دامت هذه ارادتك فانا اقبلها عن طيب خاطر واسأل الله لك حظا سعيدا وأن يكلأك بعين رعايته . فاذهب وانضم الى رفاقك الابطال فأنتم باخماد الثورة تحيون الحرية فى وادى النيل والموت فى سبيل الحرية هو الحياة الحقه . آه ليتنى كنت شابا مثلكم لكنت ترانى اول من يدافع عن السودان حتى آخر لحظة من لحظاته ولكن انتم ابناءنا تفعلون اليوم ما فعلناه نحن بالامس . اجل لا تبيعون بلادا اشتراها آباءكم وأجدادكم بدمائهم العزيزة بأبخس الاثمان

ـ اننا نعتبر يا سيدى ان السودان جزء من مصر لا ينفصل وانه مدار حياتها

وهانحن اشبال مصر سندافع عنه حتى النفس الاخير . قال هذا ثم غير لهجة حديثه قائلا . ذكرت لى ان ابن اخيك فهمى افندى ارسل اليك خطابا فهل لم ينبئك بعزمه على المجيء الى هنا ام لا

ــ بلى . بلى . قال انه سيعود الى مصر على جناح السرعة

ــ هذا ما كنت اتوقعه فقد رأيت اسمه ضمن الضباط الذين وقع الاختيار عليهم لمصاحبة الحملة وقد ارسلت وزارة الحربية فى طلبه ولكنه لم يخابرنى مطلقا منذ زواجه بتلك الانكليزية حقاً لقد دنسته ابناء وطنه

وعندما سمع خليل افندى ذلك هز رأسه آسفا وقال وهل تظن ان الشرقى اذا تزوج باجنبية يستطيع ان يعيش معها طويلا

ــ مادام الحب هو الدافع الى هذا الزواج فلماذا لا يعيشان

ــ هذا وهم باطل يا بنى فالطبيعة نفسها تحول بين ذلك عادتها غير عادته اخلاقها غير اخلاقه . دمها غير دمه تكوينها النفسى غير تكوينه كل شيء فى السماء والارض يحكم بتفريقهما . ودليلى على ذلك انه لم يمكث معها اكثر من شهر واحد حتى قامت فيه عوامل الشحناء . وهبت عليهما عواطف الشقاء . وها هو يقول لى فى خطابه انه عازم على فراقها

ــ هذه غلطتكم انتم

ــ ولماذا ..

ــ لانكم لم تزوجوه الفتاة التى احبها والتى هاجر وصحبنى معه بسببها لقد كان زواجها بغيره صدمة له لا يمكن أن يحتملها ولا اشارتى عليه بالسفر الى انجلترا فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار

ــ كان يودى ذلك ولكن والدتها رفضت بتاتاً بحجة انه فقير لا يمتلك غير مرتبه وهى تريد لابنتها زواجاً ذا ثروة

ــ وهل تظن ان احمد بك الذى تزوجها سيكون سعيدا

ــ ارى انه سعيد فالفتاة عاقلة جدا تبتسم له حين يقطر قلبها دماً والانسان لا يعرف غير الظواهر إلها من مأساه

قال ذلك ونهض يريد الانصراف فاجلسه خليل افندى ثانية قائلا :

ــ انتظر قليلا سأحضر لك حجابا كتبه لى رجل من الصالحين منذ ثلاثين سنة

فابتسم الضابط حيث قاطعه خليل افندى قائلا بلهجة جديه

ـ لالا ان هذا الحجاب عظيم جدا فهو يقيك المخاطر وينجيك من شر الاهوال

ـ ساحتفظ به بناء على اقوالك هذه فلا يفارقنى مطلقاً وبعد ان خرج خليل افندى من الغرفة استلقى الضابط على قفاه من الضحك قائلا

ـ ياهم من بلهاء تغرنهم الاقاويل ويستسلمون للظواهر ولكن من يدرى ربما وقعت فى غرامها فاتزوجها . وربما شفيت غليلى منها فاتركها وشانها آه. كم هى جميلة وفيما هو على ذلك واذا بدولت قد اندفعت كالسهم وسط الغرفة. قائلة اسماعيل ...

فاسرع نحوها ومديده اليها فامسكها واحس ببرودتها التى نتجت عن مجازفتها فى. مقابلته هكذا فقال

ـ دولت شكرا لك لقد اتيت الى الف شكر كنت اريد مقابلتك لامر هام. ولكن أبيك ربما يأتى

ـ لاتخف انه هناك يبحث بين أوراقه عن الحجاب فانتهزت هذه الفرصة لاقول لك . لاتسافر الى حرب فكفانا حروبا

ـ لو كان فى استطاعتى ذلك لما ترددت فى إطاعتك . ولكن لابد من سفرى هذا أمر وزارة الحربية ـ وهل يطول سفرك ؟

ـ من يدرى . وربما لاأعود منه .. فلا أراك بعد الآن

ـ بل ستعود سالما .. ولكن .. آه ماذا أقول . بل انت قلت انك تريد مقابلتى لامر هام . ماهو ؟

ـ عفواً اذا ماتجاسرت بطلبى الذى سأطلبه منك . فالمسألة مسألة وداع. بعدها حياة أو موت .

ـ قل تكلم

ـ أريد ان نتقابل سويا على انفراد فى مكان لانرى منه كى استنشق منك أريج الحياة ولتكن هذه المقابلة هى سلوتى فى بلاد السودان

ـ لك ذلك قالت هذا وطاطات رأسها حينما كانت الدموع تتدفق فى عينيها تحت تاثير كلمات اسماعيل افندى المموهة فقال

ـ أين ؟ قولى

ـ فى حديقة منزلنا

متى ؟

بعد منتصف الليل انى سانتظرك الليلة بعد انتصاف الليل

ـ آه شكراً لك

وهنا سمعا وقع اقدام والدها فاسرعت من الباب الداخلى واختفت ورائه عندما وصلا خليل افندى حاملا فى يده ورقة مصفرة من تقادم العهد عليها قال

ـ لقد ابطأت عليك ياأعز البنين ولكن أبطائى هذا أتى بنتيجة حسنة فقد اعثرت على الحجاب

فتناول اسماعيل افندى الحجاب منه قائلا

ان لسانى عاجز عن شكرك ياأعز الآباء

لاشكر على واجب

فوضع الضابط اسماعيل افندى الحجاب فى جيبه بتحفظ واعتناء ثم استأذنه بالانصراف على ان يزوره قبل سفره الى السودان فتبعه خليل افندى وهو يتوكأ على عصاة حتى باب الدار وهزيده طويلا وهو يصافحه

الفصل الثالث

(فى الحديقة)

عانق الليل والنهار فكان المساء باسطا جناحيه على مدينة القاهرة فكسى الجو برداء السكينة . وهدأت الطيور فى أوكارها والناس فى منازلهم

أسندت دولت رأسها على شجرة من شجيرات الياسمين حتى تخللت غصونها بين القضبان الحديدية المحتاطة بالدار وكانت تشم من زهرها الابيض عبيرا كالنده رفعت رأسها الى السماء فتهلل وجهها سرورا وانتعشت روحها ابتهاجا برؤية ذلك الكواكب الذى يبسط أجنحته التى لاحصر لها على دولة العشاق فخاطبته قائلة

« أيها القمر ياسمير العشاق . يامن تبعث فى نفوسهم الرهبة والسكون . ياشاهد على كل حركة من حركاتهم . لقد هيأتك الطبيعة لتجلس على عرش الحب بين نجومك رسل الغرام »

قالت ذلك وهى تقف بعضاً من زهر الياسمين وأدنته من أنفها وتشبعت برائحته الذكية ثم قالت

« آه . ما ألذ الحب . انه ذلك المصباح الذى ينير لنا طرق الحياة المظلمة فانى ممن أقروا بقدرته وآمنوا بمعجزاته فهو البخار الذى كلما زدناه ضغطا زادنا قوة وثورة . هو الكهربا يخرج لنا الحياة من العدم . هو المغناطيسية تتجاذب الارواح تحت سيله الجارف .... »

وفيما هى على ذلك اذ لمحت شبح اسماعيل افندى يتقدم الى سور الحديقة فأشارت له وأسرعت نحو الباب الحديدى وفتحه بكل هدوء حيث سارت واسماعيل افندى وجها لوجه ولكنها مع ذلك لم تتلفظ بكلمة الا عندما سارا قليلا فى أرض الحديقة فقالت

ـ قد جئت .. أجابها وهو يتظاهر بالارتباك الغرامى

ـ اجل .. يا ملاكى الحارس

عند ذلك لم يسعه الا أن يأخذها بين ذراعيه ويضمها طويلا بين خيوط اشعة القمر . ثم جلس على مقعد منفرد وهو ممسك بيدها مبتسما فى وجهها ابتسامة ملأها من سموم السحر وقال

لشد ما كان شوقى اليك عظيم يا دولت . ولهفى للقياك كثير . انى لم استطع المكوث مع فهمى افندى طويلا . وكم كنت أتمنى ان احظى بمثل هذه اللحظة التى جاد علينا الزمان بها والتى اشعر انا بسعادتى بين اويقاتها

فردت عليه دولت بصوت خافت متاجلج وهى تلاعب شرائط ردائها بأصبعها رداً غير مفهوم فقال لها

ـ حقا ان موقعنا هذا يعقد الالسنة ولكنها لا تلبث طويلا هكذا حتى تنطلق من عقالها . وانى انتهز هذه الفرصة فرصة وجودى معك على خلوة لاقول لك وربما يكون قولى هذا آخر ما أقوله فى هذا المعنى . انى احبك ولا افكر فى سواك

فاثرت كلماته هذه فى دولت تاثيراً شديداً لانها علمت القصد الذى يرى اليه وهو ذهابه الى حرب لا يعلم ايعود حيا ام يدفن هناك .. فخفق قلبها وانكمش بين ضلوعها خوفا عليه من الحرب. فرفعت عيناها قائلة :

- لاتقل ذلك يااسماعيل فلسوف تعودالى سالماً اذانه لاحياة لي بغيرك

- اشكرك يادولت على ذلك كما أنني أشكرك جدا على سماحك الليلة بعقا بلتى على انفراد لاول مرة وأعتبرها منك تضحية قدمتيها على هيكل حبنا . ولكن لو علمت بأن النفوس المتشابهة كالطيور المتشا كلة تنزع الى بعض وتحلق فى الاجواء سواء تعلمت سر اجتماعنا هذا . آه ماأسعدها ليلة

- هى ليلة لاتعادلها ليله .. أناسعيدة بك

- وكم أناسعيد بغرامك . فلاوالله يادولت ما بلغت أذنى نغمات الموسيقى حتى أجدنى وقدهزت نفسى هزاتها فأرانى أحق فى جو أحلامك فأمسى وكأنى سيال يملا جوانبه حبك ، ويستنشق عبيرك

ثم اعتدل فى جلسته حيث أصبح جسمه ملاصقاً لجسمها وطوقها بذراعيه وضمها اليه ضما خفيفاً ثم قال : ألم تقرأى خطاب ابن عمك فهمى

- بلى . قرأته ماخلاصته ؟

- يقول انه أرادالسعادة لنفسه بزواجه بالفتاة الانجليزية ولكنه بدلا من أن يجد السعادة وجد الشقاء وأنه عازم على تركها والعودة الى مصر . والذى شجعه على ذلك أكثر طلب وزارة الحربية له بمصاحبة هذه الحملة المشئومة

- علينا فقط . ولكن على الوطن فهى خير

- مادامت للوطن خير . فأنا أضحى نفسى وأتحمل عذاب قلبى فى سبيل مصر وبودى لو تحولت رجلا لكنت أول من يحمل السيف للدفاع عن الوطن المقدس

- انى أكبر فيك هذه العاطفة نحو وطننا . وستدوى هذه الكلمات فى أذنى فى كل المواقع الحربية التى سأحضرها . والآن أخبرينى هل علمت حورية بخبر قدوم فهمى - أجل أعلمها بذلك

- وماذا قالت . لاشك انها فرحت

- لاحظت عليها أنها تحاول الهروب من ذكر اسمه

- وهل علمت بزواجه فى انجلترا ؟

- بلى ولقد حاولت أن استطلع افكارها من جهته لما أعلمه من شدة حبها له فقالت له بدون ان يظهر عليها اى اهتمام : انت تعلمين يادولت بأنى لاأحب احداً فى الوجود غير فهمى منذ الصغر فقدكنا نلعب سويا ونلهو معاً . وانا اشعر بل

أؤكد انه يشاركنى هذه العاطفة الشريفة حتى اذا ما كبر ناشاءت والدتى التى لاهم لها غير الثروة لتملأ خزائن اطماعها رأت ان تزوجنى برجل من الاغنياء فلم يسعنى الا الرضوخ تحت تأثير القوة والعنف . رضيت ولكن عن غضاضة وها انا الآن اقاسى من انواع الالم ماتئن من تحته الجبال المكتوم . ولقد اضطر احيانا بالتظاهر بالسعادة امام زوجى وانا اذوب اسى وحزنا . واخيرا قالت لى انى تعسة يادولت فقلت لها «عندما يأتى فهمى الى مصر ربما ينسيك هذه التعاسة» أجابت «انها سوف لاتحاول مقابلته مطلقا كى لاتزداد ألما فوق المها» وتمنت لوكان نجح فى محاولته نسانها بزواجه بالفتاة الانجليزية اذ انها تعتقد ان الباعث الحقيقى لهذا الزواج هو نيسيانها — ومن هو زوجها هذا

— هو رجل يتجاوز الخامسة والاربعين اوالخمسين من عمره الا انه اتى من السودان بثروة طائلة هى ماربحه من تجارته هناك

— هو من تجار السودان .

— نعم ولكنه مصرى واسمه احمد بك على

— سمعت من مصدر موثوق به ان هذا الرجل كان فى الماضى ذا علاقة مع عزيزة هانم والدة حوريه .

فقالت دولت وهى تدير وجهها الى الجهة الاخرى : يجوز

— على كل حال فحوريه فتاة بائسة تحتاج الى اصدقاء يواسونها

— اجل وانى ساذهب اليها باكر وامكث عندها طول اليوم

— آه انت تشفقين على العشاق : — كيف لا وانا منهم

— اذاً انت تشفقين على .

— شفقتك انت على : ما اجملك يادولت

فاه بهذه الجملة بعد ان لاحظ عليها ذلك الاثر الذى تركته نظراته القوية فى نفسها فجذبها اليه وهى نشوى بخمرة الغرام ورشف من راضبها قبلة حارة احست دولت بحرارتها تتمشى فى شراينها ولم تعلم انها قبلة كانت بين الخداع والحب فقد حدثته نفسه الدنيئة باتيان امر لايقدم عليه الا كل مخلوق مات ضميره وتحجر قلبه فى صدره فابرقت عيناه اكثر من ذى قبل واخذ يقبلها قبلات كثيرة حمل صوتها نسيم الليل بين تموجاته المملوءة بالجلال فدول مع صوته كما تدوى الغادة التى تجبل خبزها بد مهلة

وتمزج شرابها بدموعها.

اهتزت دولت على المقعد وانتابتها رعشة خفيفة يرجع اصلها الى الضم والعناق ثمدت يدها وطوقت بها عنقه وأخذت تقبله بدورها .

فى تلك الساعة الرهيبة التى يقف فيها الشيطان منصوراً خرجت من بطون الارض ثلة من زبانية الرذيلة رافعين بين ايديهم المنغمسة فى دماء الضحايا قطعة من الحرير الاحمر المنسوج فى اعماق جهنم واحاطوا بدولت وهى فى سكرة غرامها يرقصون رقصة الموت بينما كان القمر يرسل عليهما خيوط من الرحمة ممزوجة بنوره . .

ياللعجب رجل لاتزعجه صلصلة السيوف ولا يرعبه دوى المدافع يقع أسيراً بين أيدى زبانية الرذيلة ثم تقهره الشهوة فيتحول الى شيطان رجيم فى صورة عاشق رحيم . .

ايتها السماء اسألك الرحمة لهذه التعسة التى وقعت فى حبائل حبه والتى سلمت له عنان نفسها خطمها بقسوة وشراهة ويامن تنكرون سلطة الرجل على المرأة ولا تعترفون بقوة خداعه إياها . تعالوا وانظروا ماذا فعله ذلك الضابط ترونه قد شهر حسام الفسق وهدم به حصن عفافها بعد ان اغمضت الزبانية عينيها بتلك القطعة الحرير الحمراء المنسوجة خيوطها فى جهنم

رحمة لك يادولت : ورحمة الزوال دولة العفاف عنك فقد أنزلك ذلك الوحش الذى لم يراع عهد الصداقة ولم تلبث تلك الهزة التى هزها والدك اياه فى يده باق اثرها بين اصابعه قد انزلك من كبرياء عفافك الى ذلة نفسك

الا فارفعى يدك الى السماء واشهديها جنايته . .

عندما رأى اسماعيل افندى ماحل بدولت وعلم بهول ماارتكب قال لها متلطفا ما ابدع هذه الليلة التى تستر علينا فيها القمر واخذتنا النجوم بين جوانحها

فأجابته وهى تجفف ماتناثر على وجنتيها من دموع خجل . بل قل ان السماء لعنتنا والطبيعة نبذتنا . .

فنهض واقفا آخذاً بيدها وقال . هذا وهم باطل . فنحن لم نأت شيئا يغضب السماء نستحق عليه اللعنة . لقد لبينا نداء القلوب وهو نداء مقدس انى شقيه . .

ــ اذا كنت تعتقدين ذلك . فهذا معناه عدم ثقتك بى

كلا . كلا لا أشك فى إخلاصك نحوى . فهذا وهم . . ليس إلا . .

وهنا وصلا الى باب الحديقة فضغط اسماعيل افندى بيده إلى يدها قائلا : الى اللقاء يادولت . سأعود من الحرب سالما . وسنتزوج . هذا ما أشعر به . سأحاول ان احتفظ بحياتى من أجلك .

فرفعت رأسها اليه وقد ظهرت عليها علامات الجد قائلة بشيء غير قليل من التحمس : بل مت فى سبيل مصر ولا تفكر فى غيرها مهما كانت الظروف فالدفاع عن الوطن واجب مقدس فوق كل الواجبات . . اذهب ولا تفكر إلا فى الدفاع عن مصر . وإذا عدت سالما فيعد هذا رحمة لى من الله . هل تعدنى بذلك ؟

ــ اعدك يادولت : إذاً إلى اللقاء .

ــ إلى اللقاء

قال هذا وطبع على فمها قبلة ثم سار فى طريقه الى منزله حيث رجعت دولت وهى تتعثر بأذيال الخزى والعار اللذين احست بهما وقالت تخاطب نفسها وهى توصد غرفة نومها عليها بعد ان مرت على غرفة والدها بكل هدوء وهو نائم كالملائكة الابرار . أبى : اغفر لى زلتى . فقد خنتك فى شرفك من حيث لا أعلم . ربى إنى ظلمت نفسى

الفصل الرابع

« أحمد بك »

ذهبت دولت فى اليوم الثانى لملاقاة صديقتها حوريه فى قصرها الذى شيده لها زوجها احمد بك على الضفة الغربية للنيل فكان آية فى الابداع وكانت حورية هانم جالسة فى مخدعها وقد اعتنى زوجها بتنسيقه فكانت جدرانه مغطاه بالحرير البنفسجى . معلق على جدرانه بعض من الصور القديمة وفى وسط الغرفة مائدة على احدى زواياها ساعة كبيرة الحجم جميلة الصنعة وعلى طرفها الآخر كأس مملوء بالزهور الجميلة وفيما بين ذلك كتب وأوراق مشتتة

دخلت دولت عليها وهى فى مخدعها فقامت اليها حوريه تعانقها وتقبلها قائلة

ــ ألف شكر لك يادولت . لقد كنت فى حاجة اليك

ــ وهل بك شيء

ـ اري اليوم ان العالم كله قد تغير : هذا ما أشعر به

ـ اني افهم مصدر هذا الشعور . ـ لا اظن ذلك يادولت

ـ بل اعتقد ان اعرف ذلك . وعند ذلك اخرجت من صدرها ورقة مطوية وقد متها الى حورية قائلة : خذي واقرأى

فاخذت حوريه الورقة وقرأت فيها ما يأتي :

« ابنة عمي . دولت

اكتب اليك اليوم وانا اجهز امتعتي للسفر اليكم . سأقول لك عند حضوري ماقاسيته من جراء زواجي بالاجنبية .. وسأنضم الى الحملة التي ستسافر الى السودان واعني ان تهدي مقابلتي مع معبودتي حوريه . اصل بلائي . عسى ان اودعها الوداع الاخير . . اخيراً اقبلك يا بنة عمي قبلة طويلة ؟ ابن عمك : فهمي .

قرات حوريه الخطاب ثم طوته ببطء واعادته اليها وقد اهاج كوامن قلبها فقالت دولت : ترى مايكون رايك ؟

ـ انني ارى ان حبي لغير زوجي الآن جريمة لا يغفرها الله . وان هذه الرسالة الموجزة وان يكن بها من الكلام مايلين القلوب ويذيب الافئدة شفقة عليه ترين يادولت انني لا استطيع ان اشيد اركان سعادة ذلك الرجل الهرم الذي وضع حياته وثروته بين يدي إلا على انقاض حبي فكما ان النظام لا يستقر الا على اساس الفوضي . كذلك سعادتنا الزوجية لا تستقر الا على اخماد نيران هذا الغرام

ـ اذا انت لا تقابلينه ـ ارى ان ذلك اوفق

ـ اتفضلين ذلك الهرم عنه

اسمعي يادولت : ان والدتي قدمتني على مذبح اطماعها الى هذا الرجل ولقد اخذت نفسي على ان اقضي بقية ايامي التي اشعر بأنها قليلة حافظة لعهد ذلك الزوج المسكين . . .

وعندما وصلت حوريه الى هذه النقطة دخلت الخادمة تعلن ان سيدها ينتظر سيدتها في القاعة الكبرى لتناول الشاي فالتفتت اليها حوريه بعد ان نهضت قائلة :

ـ حسنا . سنذهب . هيا يادولت . واجلسي معنا . . انه كابيك

ـ وابيك ايضا . ـ لا تؤلميني هكذا .

خرجت الاثنتان وفات دولت ان تاخذ الخطاب من فوق المنضدة وهكذا اراد الله ان ينكشف سرهما الى تلك الخادمة التى كانت ترتب الغرفة بعد خروجها فعثرت على الخطاب . وهى فتاة سيئة الخلق شوهاء الوجه مستديرة العينين كالبومة خنفاء عوجاء الساقين يقرأ فى سطور وجهها المجعد كلمات الخداع والمكر والدهاء . وهى تلك الخادمة التى لا يطيب لها العيش الا بين الدسائس ولا تحلو لها الحياة الا فى منازل الفساد مثلها فى ذلك مثل معظم الخادمات ولكنها لم تكن تجد فى سيدتها حوريه ما تتمسك عليها به لتكون صاحبة الكلمة . لذلك نراها وهى تحاول قراءة الرسالة وبعد ان فهمتها كادت ترقص فرحا لوقوع سيدتها فى قبضة يدها فاصبحت وكلمة من فمها الى سيدها تهدم هذا المنزل رأساً على عقب . . فاخذت الخطاب وطوته ثم خبأته بين طيات ملابسها وخرجت وهى تقفز كالقرد الشارد قائلة : ليمكث هذا الخطاب معى الى اليوم الذى احتاج فيه اليه . . مهلا ياسيدتى سوف احطم كبرياءك هذه . .

دخلت حوريه هانم مع صديقتها الحميمة دولت فنهض للقائهما أحمد بك الذى ابتسمت له زوجته ابتسامة مملوءة بالمرارة وقالت .

ـ يسرنى أن تكون الآنسة دولت معنا اليوم فى الفطور

ـ فأجابها وهو يصافح دولت بقلب يطفح سرورا

ـ انى أعتبر هذا اليوم يوما سعيداً بوجودها

ـ فأجابت دولت . أشكركما هذا العطف الذى تبديانه لى

أجابتها حوريه وهى تقدم لها المقعد للجلوس

ـ لو تعلمين يادولت مبلغ ارتياح نفسى بجوارك لمكثت عندى الى آخر لحظة من حياتى

ـ بودى ذلك . ولكن عنايتى بأبى تمنعنى عنك أحيانا

فقال احمد بك . أجل ان أبيك رجل يحتاج الى عناية فائقة فقد أقعده الكبر

وهنا نظرت حوريه الى دولت نظرة معنويه فقد أراد أحمد بك ان يظهر أمامها بمظهر الشباب ولولا دخول الخادمة فى تلك الساعة حاملة فى يديها صينية فضية عليها ابريق الشاى للحظ احمد بك معنى نظراتهما ولكنه حول نظره الى الخادمة قائلا . تقدمى يافريده واسكبي لنا الشاى فى الاقداح ثم انه التفت

الى دولت وقال .

ـ ان هذا الشاى من احسن الانواع . اشتريته ايام كنت فى السودان من احد تجار الهند

فقالت دولت . نحمد الله الذى جئت الى مصر قبل قيام الثورة المهدية اجابها وهو يمعن النظر فى محاسن زوجته

ـ آه يا آنسة قد كنت هناك فى ابتداء قيام المهدى بدعوته . ولكنى رايت بثاقب نظرى وجوب العودة الى مصر مكتفيا بثروتى التى جنيتها من التجارة هناك . فجئت وكان من حسن حظى ان تزوجت بزوجتى التى احبها فوق كل شئ فى الحياة . . فهى مثال الزوجة الصالحة

فأطرقت حوريه الى الارض خجلا من هذا الاطراء وخشية ان يدور كلامه حول هذا المحور ارادت ان تغير مجرى الحديث فقالت له

ـ ومن هو المهدى هذا . وكيف قام بثورته . اهو مثل عرابى باشا؟

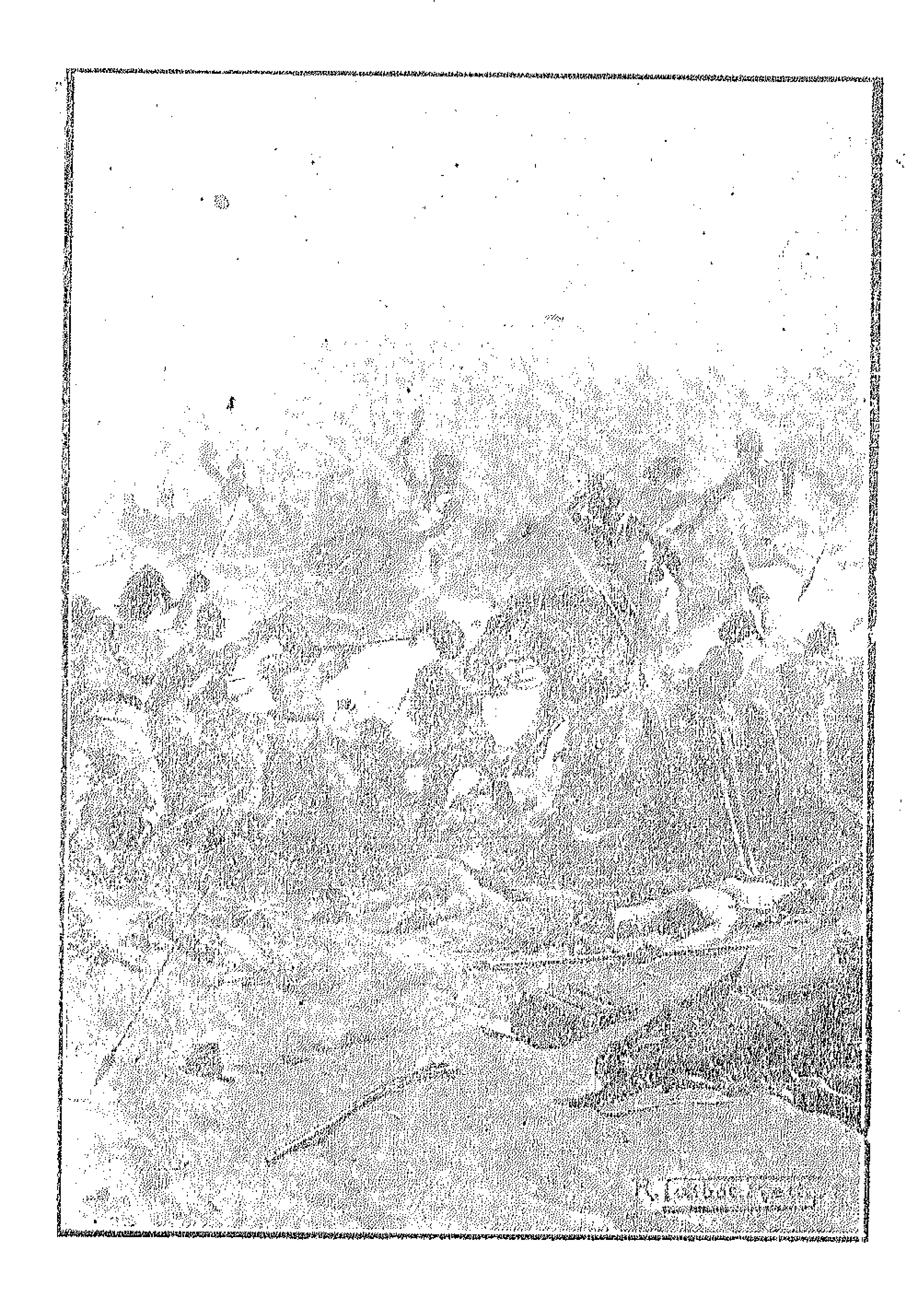
قالت ذلك وأشارت الى فريده الخادمة بالخروج فصدعت الاخيره بالامر بعد أن صوبت الى سيدتها نظرة مملوءة بالسم القاتل . فقال احمد بك رداً على سؤال زوجته بينما كانت دولت تتشاغل باذابة السكر فى منقوع الشاى

ـ سأذكر لكما كل ما أعلمه عن ذلك على سبيل التسلية فاسمعا . فى سنة ١٨٨١ جهز محمد احمد بدعوى المهدية . أى انه بعث من قبل الله تعالى ليقوم مقام النبى ﷺ وحث أصحابه على القيام معه لنصرة الدين والجهاد فى سبيل الله كما يفعل ذلك الكثيرون فلما وصل خبره الى رؤوف باشا حكمدار السودان أرسل اليه يسأله عن منشوراته وادعائه

فقالت دولت : وبماذا أجاب هذا الرجل الجرىء

ـ اجابه بأنه المهدى المنتظر وهنا أوفد اليه الحكمدار محمد بك أبا السعود أحد معاونيه فدخل عليه فى غاره وسأله عن دعواه فاجابه . أنا المهدى . أنا ولى الامر . فعاد أبو السعود بك الى رؤوف باشا وقص عليه حكاية محمد احمد فقالت حوريه وقد ظهرت عليها علامات الاهتمام : ترى ما فعل رؤوف باشا

فعلا أرسل اليه بلوكين للقبض عليه ولكن المهدى فى هذه الاثناء استطاع أن يجمع أتباعه فلما نزل الجنود المصريون الى البر فتك بهم على حين غفلة لان الجنود لم



« واقعة ما بين الجيش المصرى والحبش »

يكونوا على حذر . وهنا وضعت حوريه يديها على عينيها وصاحت

ــ يالدماء أبناء الوطن البريئة ؟

وكان لا يخلو وجه دولت من الاهتمام لان ذلك الحديث كان يدور على أصل ذلك الرجل الذى سيذهب خطيبها بعد مدة قليلة لمحاربته فقالت

ــ تكلم ياسيدى . انها لمأساة

ارجو ان لا اكون ازعجتكما . ومع كل سأكف من الخوض فى هذا الامر فصاحت حوريه . كلا . كلا . قل تكلم . انه وان كان مؤلم الا انه ممتع فاستمر حديثه قائلا

ـ بعد ذلك خاف المهدى العاقبة ففر بمن معه الى جبل يقال له جبل قدير وفى وفى ذلك الوقت ارتأى محمد سعيد باشا مدير كردوفان مطاردة محمد احمد المهدى وفى المدهش ان رؤوف باشا منعه وارسله الى جزيرة ابا ليحقق عن قتل الجند انها غلطة يجب ان لا تغفر له . وكم هذه اللحظة سمعوا صوت عزيزه هانم وهى والدة حوريه تقول وهى تدخل الغرفة

ـ كيف تشربون الشاى ولم تدعوا نى اليه

فنهض احمد بك واقفاً وقال: لقد خرجت مبكرة للنزهة كما قلت فظننا أنك ستمكثين فى الخارج أكثر من هذا ..

فنظرت اليه بدلال ولكنها أسرعت الى دولت عندما لاحظت وجودها قائلة بشىء غير قليل من الفرح وهى تمد يدها اليها

ـ آه . . انت هنا يادولت .

فنهضت دولت وقبلت يدها قائلة: أجل لقد أردت ان أقضى يومى هذا مع حوريه. أجابت وهى تجلس بجوار احمد بك

ـ انكما صديقان منذ الصغر. أليس كذلك يا احمد بك ألم ترهما وهما لعبان سويا

فأجاب احمد بك :لقد كنت دائما فى السودان. تأين يتسنى لى ذلك

ـ ولكنك كنت تاتى الى مصر على رأس كل سنة وتمكث عندنا شهرين وأحيانا ثلاثة شهور

ثم انها تنهدت وقالت : آه ما الذ هذه الايام التى كنا نقضيها سويا مدة وجودك فى مصر

وكان احمد بك راى ان هذه الثرثارة سوف تطلق لعواطفها العنان وهذا ما يسيئه جداً فقال وهو يقدم لها كوبة الشاى

ـ اشربى ياسيدتى .ودعينا من الماضى

ثم التفت الى حورية ودولت وقال: ماذا كنت اقول لكما

قالت حوريه : كنت تقول عن غلطة رؤوف باشا فى منعه سعيد باشا لمطاردة المهدى . فقال اجل :بعد ذلك استقر المهدى فى جبل قدير فلم يرق ذلك فى نظر مدير فاشوده راشد بك

فصاحت عزيزه هانم . آه. .راشد بك از زوجته كانت احب الناس عندى .

زكم كان حزنها شديداً على فقد زوجها . حتماً كان رجلا ولا كل الرجال . بالمعنى الصحيح رجل

فقال احمد بك . لقد راى راشد بك ان يزحف على المهدى ليسحقه فمنعه رؤوف باشا ايضاً

فتنهدت دولت وقالت : ليته فعل : لكنا قد استرحنا من شره فلم تسافر رجالنا الى حربه التى لا يعلم الا الله مصيرها . ولكن يظهر فى الامر دسيسه .. فقال لو شئت رأيى الخصوصى لقلت لك أن كل شيء هنالك كان بدسائس . ومع هذا فقد ذهب راشد بك باربعمائة جندى وقبل وصوله الى مقر المهدى كان المهدى تدجمع ثمانية آلاف مقاتل هجم بهم على راشد بك فقتله وأسر جماعته وفتك بالباقين . ومن ذلك تعرفون أن جواسيس كانت تنقل الى المهدى كل حركة فى الجيش المصرى

ـ انها جريمة والله . قالت ذلك حوريه وهى تنظر الى ولدتها التى كانت معجبة بكلامها . فقال احمد بك

ـ ولكن حكومتنا رأت ذلك فعزلت رؤوف باشا وولت الشهم الهمام عبدالقادر باشا مكانه . وقبل وصول الحاكم رأينا وكيله المدعو جيكلر يجهز قوة بقيادة يوسف باشا السلامى وهو لا يقصد من ذلك الا أضعاف الحامية المصرية . وفعلا قابلها المهدى بجيش عدده خمسة عشر ألفا فانتصر على يوسف باشا وقتله

فقالت عزيزه هانم . كان يجب أن لا يفعل هذا الوكيل شيئا دون أمر الحاكم العام

ـ انه انجايزى . ولا يهمه شيء . ولا يعلم السر فى ذلك الا المتضلعين فى السياسة واما نحن فكنا تجارا

فقالت حوريه . أليس لكم راى فى مثل هذه التصرفات ؟

ـ ان مثل هذه التصرفات لا يقصد بها الا اضعاف الحامية المصرية وتقوية المهدى بدليل انه لما ذاع خبر انتصار المهدى هابه الناس واخذوا بالهجرة اليه وامتدت الثورة الى سنار ومن هنالك الى النيل الازرق

قالت حوريه : الم يفعل عبدالقادر باشا شيئا

ـ انه وصل فى ١١ مايو سنة ١٨٨٢ على ما تذكرو اخذ فى تحصين الخرطوم وتجنيد العساكر والى بإستة اورط من السودان الشرق واخمد كل فتنة سنار

وعزل الموظفون الذين ثبتت خيانتهم . وسار هو ذاته مع رأس جيش نكل بزعماء الثورة فى سنار واحداً واحداً . ومن المحزن جداً انه على اثر انتصاراته على دعاة المهدى فى جنوب سنار صدر امر عال بفصله عن حكمدارية السودان والغاء النظارة وانشاء قلم مخصوص بنظارة المالية لمراقبة حسابات السودان . وقد وقع نبأ فصله أسوأ وقع عند أهالى الخرطوم وسائر مستخدمى الحكومة والاعراب الموالين لها وفعلا رفعنا العرائض تباعا الى المغفور له توفيق باشا نسأله العدول عن هذا الامر فلم يفعل . وقد كتب الاوربيون والقناصل جملة لتماسات بهذا المعنى فلم تنجح . فقالت دولت . ان الانسان يحار من أقدام الحكومة على هذا الامر الذى لا ريب أنه يولد الظنون والشكوك . قال احمد بك . ارانى أقول ان هذه ارادة انكلترا . فهى لا تريد وجود رجال مخلصين فى السودان مطمح أنظارهم فقالت حوريه بشىء من الحزن

ـ هذا ظاهر كالشمس فانه أراد أن يخدم بلاده بضمير حى ولم يستمع الى أوامر الانجليز فسعوا فى فصله ليخلو لهم الجو .

قال أحمد بك . سمعنا أنهم وضعوا وشاية بينه وبين الجناب العالى الخديوى بأنه يريد الاستقلال بالسودان فأمر فى الحال بعزله لان سموه لا يحب الخونة . وقد أشار عليه الانجليز بتعيين علاء الدين باشا بدلا من عبد القادر باشا

وهنا تحركت عزيزه هانم قائلة لدولت . حقا لقد أصبح احمد بك من اقطاب السياسيين ولا يسعنى الا تهنئته . فاجابها احمد بك على اثر ابتسامة دولت لكلامها

ـ عفوا فقد طلب منى ذلك بصفتى كنت هناك . فقالت دولت : لقد سالته ان يذكر لى ذلك كى اكون على معرفة باحوال الحركة فى السودان فصاحت عزيزه هانم وكأنها اكتشفت كنزا

ـ آه . . انت بلاشك لا يهمك الا امر اسماعيل افندى خطيبك اذ انه سيسافر الى هناك

فخجلت دولت من ذلك ولكن حوريه لم تدعها فى خجلها طويلا فقالت لقد كان موعد زفافها عليه فى هذا الشهر . ولكن حال دون ذلك سفره الى السودان مع الحملة التى ستقوم من مصر

فقال احمد بك . الحملة التى بقيادة هيكس باشا انها مؤلفة من ٧٠٠٠ جندى و ٥٠٠ من الفرسان والفين من الاتباع و ٥٠٠ جمل و ٣٠٠ بغل و ١٠ آلاف

حمار وخمسة آلاف جواد و ١٠ مدافع جبلية و ٤ كروب و ٦ نوردنفلت . آه كم اخشى عليهم من المهدى ورجاله يارحمة لهم

فنظرت دولت الى حوريه فقبضت حوريه على يدها وهمست فى أذنها قائلة « ياللهول » بينما كانت عزيزه هانم تصرخ فى وجه احمد بك وهو يصف حملة هيكس باشا

ـ ألا تكتفى بذكر السياسة والجند والحرب . نحن نساء ياحبيبى ولا يلذ لنا الجلوس الاحيث السرور والهناء

فقال لها بشىء من البرود . أذكر (حماتى) بأن هذا طلبهما كما قالت منذ هنيهة وعليه فأنا على أتم استعداد للاجابة على كل سؤال توجهانه الى . فتداخلت حوريه فى الامر قائلة . لقد تنزهت فى هذا الصباح ياأماه أما نحن فلا

فقالت . اذا أردت فهيا بنا نخرج جميعا ونركب العربة ونطوف حول المتنزهات هذا أحب الى من سماع سياسة زوجك

فاجابها أحمد بك . مازلت عند قولى ياسيدتى بانى أجيبهما عن أى سؤال

فقالت حوريه وهى تنهض واقفة . اذاً انتظرونى ريثما أرتدى ملابسى ثم أعود لنخرج جميعاً للنزهة . ألا توافقين على ذلك يادولت

ـ لم لا ؟ أنا رهن اشارتك اليوم حتى الساعة الرابعة مساء

ـ حسناً

قالت ذلك وخرجت الى غرفتها لارتداء ملابسها وعلى أثر ذلك نهضت عزيزه هانم قائلة . سأصلح من شأنى أيضاً . ثم التفتت الى أحمد بك وقالت . ساعلمك كيف تخاطب النساء

فضحك وهو مشبك يديه على صدره حينما انتهزت دولت فرصة خروج عزيزه هانم فقالت . يظهر من كلامك ياسيدى ان الانكليز هم أساس كل هذه الفتنة .. ترى ماسبب ذلك ؟

ـ إن بلاد السودان غنية جداً . فهى كنز من كنوز الارض وهم يريدون الاستيلاء عليها أولا لاهميتها السياسية ثانياً لانه أقليم غنى يعود عليها بالنفع الكبير : وانك لو علمت أن واردات السودان هى مليون جنيه فقط (بطريق أسوان) وصادراته هى ١١ مليون ونصف جنيه مصرى لعلمت إشدة

تعلق انجلترا به

كم يبلغ عدد الجيش المصرى هناك

- على ما أعلم يبلغ ٤٠٤٩٠ جنديا

ان الانكليز هم قوم لا ضمير لهم يسفكون الدماء البريئة فى سبيل تحقيق رغباتهم التى لا حق لهم فيها

ان الانكليز يعرفون من أين تؤكل الكتف يا أنسه فهم قد دسوا رجالهم فى خدمة الحكومة المصرية فى السودان بعد حوادث عرابى وظن اسماعيل باشا الذى كان يجيب طلبهم باستخدام رجالهم وباعطائهم السلطة التى لا حد لها ظن بذلك أنه يرضيهم ويحول مطامع انجلترا عن بلاده فظن خطأ وتولى الموظفون الانجليز المناصب بطلب حكومتهم وارشادها ليتمكنوا من هدم الامبراطوريه المصرية الواقعة على طريق الهند وتحويلها الى مستعمرات انكليزية فاستخدم هؤلاء الموظفون سلطتهم فمنعوا الرق لكى يغضبوا السودانيين الذين كانوا يستخدمون العبيد فى أعمالهم وينصرفون الى التجارة والاعمال الحرة الكبيرة . مع أن انكلترا كانت تتساهل فى امسلاكها الأفريقية كل التساهل مع الاهمال فى مسألة الرقيق

إذاً هم يقصدون إثارة الاهالى على الحكومه المصرية

- نعم ولقد اعتبر الاهالى أن كل هذه الاعمال كانت تعرضاً للدين ثم انهم فوق ذلك أى الانكليز ميزوا قبيلة على قبيلة اخرى فأعفوا قبائل الشايقيه من الضرائب فاغضبوا بذلك القبائل الاخرى . كما فضلوا أصحاب الطريقة الميرغنية على أصحاب الطرق الاخرى فأوجدوا بهذا التحاسد بين اصحاب الطرق

ولم يكد يصل احمد بك الى هذا الحد من الكلام حتى سمع وقع اقدام عزيزه هانم فاشار على دولت بالصمت قائلا

- لنصمت فقد جاءت الثرثارة

فضحكت دولت ضحكة مغتصبه بينما دخلت عزيزه الغرفة قائلة

- هيا فقد تهيأنا للنزهه

فنهض احمد بك ونهضت دولت وخرجوا جميعاً حيث قابلتهم حوريه فى الصالة الكبرى ونزلوا الى السلاملك حيث انفردت دولت بحوريه واحمد بك

بعزيزه هانم فقالت دولت لحورية همسا قبل ان يركبا العربة

ارايت انهما سائران الى خطر الموت

اجابت حوريه . نعم . ولكن الامل بالله واسع

ـ ان فهمي يريد مقابلتك كما فهمت من رسالته فهل لا تسمحين له عند مجيه وقبل سفره الى السودان بمقابلة . لقد سمحت انا بهذه المقابلة لاسماعيل

وهل قابلك؟

ـ نعم وعلى انفراد تحت ستار الليل . والآن اريد كلمة واحدة لا تقابلينه . .

ـ سأقابله . خبريه ذلك متى عاد .

اين ؟ ـ هنا . في منزلي . سنتدبر في الامر

ـ حسناً . .

وهكذا ركب الاربعة المركبه وساروا في طريق الحدائق ولو نظرت حوريا هانم قبل ركوبها لوجدت ان فريده خادمتها كانت تنصت على حديثها مع دولت واستطاعت ان تلتقط منه بعض كلمات لبعيد المسافه بينها وبينهما . ولرانها تهدد الغطاء بقبضتيها . وتجز على اسنانها العوجاء

الفصل الخامس

« إفشاء السر »

بعد مضى شهرين على هذه الحوادث أتى في خلالها فهمي افندي هرباً من زوجته الانجليزية التي شغفته حباً وتيمته صبابة . ومع هذا فقد فضل أن يهجرها ويطعن قلبه للمرة الثانية بسكين الالم من أن يراها تستقبل الرجال في قصرها يقبلون يدها عند السلام ويحتضنونها عند الرقص . عاد الى مصر وفي قلبه الف حسرة عليها وهو عالم علم اليقين بأن حبه متملك من نفسها آخذ بمجامع قلبها . . وكان أول عمل أتاه بعد عودته من انجلترا هو اذ أثبت حضوره لوزارة الحربية ليسافر مع حملة هيكس باشا كي يضع حداً نهائياً لآلامه الكثيرة اذ كان يرجو ان يداهمه الموت وهو في ساحات القتال . وبعد ذلك كان يترقب الفرص لمقابلة حورية هانم تلك المخلوقة التي كانت أول صورة طبعت على قلبه منذ الصغر فحالت أمها عزيزة هانم بينه وبين الزواج بها اقتدره فكانت صدمة هائلة وكان سفره الى انجلترا وزواجه بمس لوسي وهجره إياها ثم عودته الى

مصر . أراد أن يودع من كانت سبباً لتلك الآلام الوداع الاخير وان يلقى عليها آخر نظرة قبل سفره إلى حرب الدراويش التي يأمل أن يكون حبل حياته سينتهى عندهم .

كان ما أرادوا استطاعت دولت ابنة عمه أن تأخذ منها موعداً عند الساعة الحادية عشر فى حديقة القصر حيث تقوده إلى مكان أمين بعيداً عن أعين الخدم . إلا أن فريدة الخادمة التى كانت تراقب دولت كلما جاءت لزيارة سيدتها وتصنت على كل ما يدور بينهما من الاحاديث . استطاعت هذه الحية الرقطاء أن تعرف الموعد المحدد فكادت تطير فرحا وعللت نفسها بآمال كثيرة أقلها ذلك الربح الذى يعود عليها بثروة طائلة بفضل اكتشافها ذلك السر

ففى عصر ذلك اليوم كانت فريده جالسة فى غرفتها الخصوصية تعيد قراءة الرسالة مرات عديدة وقلبها يرقص طربا بتلك الثروة التى سوف تنالها من سيدها أحمد بك بعد أن تطلعه على الرسالة انتقاما من سيدتها التى تظهر أمامها بمظهر الكبرياء والعظمة الممزوجتان بالفضيلة والشرف . فقالت فى نفسها

ـ لك الله يا سيدتى الطاهرة . فقد جعلتينى اعتقد بأنك مثال الطهارة وعنوان الوفاء فاذا بك مثال الدعارة وعنوان الفساد . تخفين ذلك تحت ستار المكر والدهاء والعظمة والكبرياء . ولكنى الآن أستطيع ان أحطم هذه العظمة وأسحق تلك الكبرياء بفضل هذه الرسالة التى تعتقدين أنت أنها فى حوزة دولت وهى تعتقد أنها فى حوزتك ولكنها فى حوزتى أنا وعما قليل سأستبدلها بنقود كثيرة من زوجك أحمد بك

وبينما هى تعلل نفسها بثمرة هذا الاكتشاف وتفكر بما سينالها منه بعد ذلك الانتظار الطويل طرق أذنها نداء عزيزه هانم فهرولت فريدة بعد ان أخفت الرسالة فى صدرها الى غرفة سيدتها الكبيرة فوجدتها مضطجعة على مقعد كبير مرتدية ثوبا من الحرير يتطاير مع النسيم اذا ما هب وعلى يدها اليسرى طير صغير تداعبه على باب قفصه وفى يمينها مروحة من العاج الناصع البياض منقوش على احدى جوانبها تمثال لآلهة الجمال وعلى الجانب الآخر تمثال لآلهة الغرام

ليس هناك مخلوق على وجه الارض يستطيع أن يعرف عمر هذه السيدة وإذا سألها سائل عن عمرها تجاهلت الامر واذا سئلت عن امر حدث فى الازمان السالفة أجابت

وهى شاردة الفكر كمن تتذكر شيئا غاب عنها « انها تتذكر عنه بعض الشيء أو سمعت عنه من والدتها او انها كانت وقت حدوثه صغيرة تلعب بين ايدى (الداده) وغالبا تقول انه جرى او حدث قبل ميلادها . الاان عمرها فى الحقيقة (والواقع) فوق الستين سنة وهى مع هذا العمر الذى تنكره بكل ماوهبها الله من قوة وطلاقة لسان ، تراها وهى عند هذا السن قد جلست على عرش الجمال المتهدم الزائل وهى (بردة) ذات جسم صحيح بقامة لا بأس بها تتأنق فى ملبسها وتتزين بالحلى تخفى تجعدات وجهها التى رسمتها ستون سنة مضت بالطلاء المختلف الالوان وتقضى ساعات طويلة امام المرآة ما افسده لاصلاح الدهر فيها (وسيادتها) لاتحب من الملابس الا (الشفتشى) مع الجواهر الثمينة التى اهديت اليها منذ الصغر من عشاقها الكثيرين خصوصا احمد بك الذى زوجته ابنتها طمعا فى ثروته

وعندما دخلت فريده عليها الغرفة قالت لها : اتناديني سيدتى ؟

- نعم   - تحت امرك فى كل لحظة

- ردى هذا الطائر الى قفصه فقد حانت الساعة التى يجب ان ارتدى فيها ملابسى .

فاخذت فريده الطائر وهى صامتة واعادته الى قفصه ونهضت عزيزه هانم وهى تتهادى فى مشيتها وملائكة الدلال تتبعها وشرعت فى خلع ملابسها فالتفتت اليها فريده بعد أن اقفلت باب القفص على العصفور وقالت :

- أى ثوب تريده سيدتى ؟

- آه ... يافريده . أرانى مترددة فى اختيار اللون وأرانى واقفة بين الاصفر والاحمر . أجل ان الاصفر لون جميل ولكنه يدل على الغيره .. ولست أغار من أحد بل بالعكس كل النساء يغرن منى . أما الاحمر فهو أدعى لجلب الانظار وسلب المهج والعقول فساعدينى برأيك يافريده

فأجابتها فريده وهى تعلم ان عزيزه هانم تترنح ثملة تحت تأثير كلمات المدح المنمقة وألفاظ الثناء المنسقة فقالت : انى عند حسن ظن سيدتى بى . ولكنك من النساء الجميلات التى يضرب بجمالهن فى الامثال فانت تزيدى الثوب جمالا مهما كان لونه وليس الثوب يزيدك جمالا

- تعجبنى صراحتك يافريده .. فاختارى اذا لون الثوب

ـ ليكن الاحمر . . اذا نه لون يحاكي لون خديك وفوق ذلك فهو علامة الحب ؛ ورمز العاشقين . فاهت فريده بهذه الجملة وسطور المكر والدهاء مجسمة على صفحة وجهها . وكانت نظراتها تراقب سيدتها التي ما كادت تسمع كلمة الحب حتى كثرت آهاتها وتنهداتها وألقت بنفسها على المقعد واندفعت مع فريده في احاديث الحب كما يندفع الماء من الشلال . وكانت فريده توافقها على كل كلمة تخرج من فيها وختمت عزيزه هانم كلامها قائلة بشيء غير قليل من الحسرة :

ـ اه . . كم كنت جميلة وانا في السابعة عشرة من عمري

أجابت فريده : ومازلت ياسيدتي جميلة . واني اقسم لك بانني لم أر أجمل منك في نساء مصر وذلك باستقامة قدك وتوريد خديك وبديع جمالك ولطف دلالك

فأخذت الهانم (الشمطاء) تتبختر في غرفتها كالنعامة التي لا ريش عليها وتمايل كالدب المذبوح وفريدة تقفز من ورائها معيدة على سمعها جمل المدح وتكرر عبارات الثناء ضاحكة على صغر عقل سيدتها العجوز وتعلقها في حبل الغرور حتى اذا ما أتمت ارتداء ملابسها قالت لفريدة مبتسمة

ـ كفى الآن اشكرك . وخرجت عزيزه هانم من غرفتها الى ردهة الدار لانتظار زوج ابنتها والجلوس معه وكانت في سيرها تتلفت ذات اليمين وذات اليسار قائلة « ثوبي جميل شعري زي الليل كسمي حلو والنبي »

وبعد خروجها وقفت فريدة حيرى فيما يجب ان تفعله حتى تغلبت عليها نفسيتها الخبيثة وحدثتها بأن تطلع احمد بك على الرسالة وموعد مقابلة فهمي لسيدتها الليلة في القصر وعليه قفزت خارج الغرفة قفزة الموت يحصد بعجلة الارواح واجتازت طرقات القصر حتى وصلت أمام حجرة سيدها فوجدته جالسا على مقعد يتصفح بعضا من الاوراق فدخلت ببطء ووقفت بجانب المنضدة أحس احمد بك بدخولها فبادر مستفهما : أتريدين شيئا يا فريده ؟

أجابت وهي تتصنع الارتباك كلا ياسيدي أريد ان أقوم بخدمتكم

ـ أعرف ذلك فأنت خادمة أمينة

ان كل همي ياسيدي ان اسهر على سعادتك وأتيقظ على راحتك

ـ شكرا لك ولسوف اكافئك على ذلك مكافأة ترضاها نفسك فانني تعودت أن لا أبخس الناس حقوقهم   اذاً ياسيدي

وهنا توقفت عن الكلام برهة الا أن لسانها كاد يدور في فمها كما يدور الشعبان حول نفسه فقال احمد بك اذ آماذا ؟

ـ هل يسمح لي سيدي بالكلام

ـ لك أن تتكلمي بكل ما في نفسك فأنا لا أبخل بتقديم اي خدمة لك يا فريده

ليس في الامر خدمة لي بل هي خدمة لك

أنا ؟ تكلمي اذاً فالتفتت الخادمة نحو باب الغرفة خشية ان يكون احد هنالك وقالت : ان ما سأقوله لك . يجب ان لا يسمعه احد سواك .

ليس هنا احد كاترين وان سيدتك تغتسل في الحمام

حسنا ياسيدي . اني ساقدم لك برهانا جليا على صدق خدمتي الك قالت ذلك وأخرجت الخطاب من صدرها وقالت

ـ ليقرأ سيدي هذا الخطاب ثم ليحذر أن يتملكه الغضب فيفسد كل شيء .

فتناول الخطاب منها وقد اوجس خيفة منه . وقرأه بامعان حتى اذا ما أتم قراءته علا وجهه اصفرار مخيف ورفع رأسه الى فريده قائلا بصوت مرتعش

ـ ومن أين لك بهذا الخطاب .

ـ لقد نسيته سيدتي في غرفتها . فعثرت عليه وعلمت منه ما علمته انت الآن فطوى الخطاب ووضعه في جيب ردائه ثم قال لفريده

ـ اذا لم يكن هذا صحيحا فأنت الجانية على نفسك ايتها الفتاة . واذا صح ذلك فاني أقول بأن زوجتي هي الشيطان بعينه .

ـ ان لدي اكثر من ذلك . فاذا سمح سيدي تكلمت

ـ ويلي اهنالك اشياء اخرى ؟

ـ اجل . فقد عاد فهمي افندي من سفره . ـ وبعد

ـ سوف تنفذ دولت رجاءه عند زوجتك . فنهض واقفا وقد ملاه الغضب وقال : متى يكون ذلك ... اتعرفين .

ـ اجل ياسيدي اعرف ذلك معرفتي بأن الغضب قد تملكك

متى

الليلة وفي الساعة الحادية عشر في الحديقة . اي بعد ان يدخل سيدي غرفته وينام فاذا اراد مولاي ان يتأكد من ذلك فلا يدع النوم يتسلط عليه هذه الليله

وليترك الغضب جانبا حتى لا يلحظ عليه ذلك فيحتاط للامر وعندما تجىء الساعة الحادية عشر ماعليه الاان ينزل الى الحديقة ويرى بنفسه ثم يكون لى الحق فى طلب المكافأة . قالت ذلك وقفزت خارج الغرفة ووقف احمد بك كمن انقضت عليه صاعقة فوقع على المقعد خائر القوى قائلا :

ويلى مااشقانى لوصح ماقالته هذه الشيطانة لننتظر ولنتدرع بالصبر ولم يلبث طويلا على هذه الحالة حتى دخلت عليه زوجته قائله : ما بالك جالس هكذا ان والدتى بانتظارك فاجابها وهو يتكلف الابتسام ساوافيكما حالا كان لدى بعض الاشغال الهامة — الك رغبة فى التنزه اليوم

اذا اردت ذلك فانا خاضع لارادتك

أمامن جهتى فانا أفضل المكوث هنا الالم بسيط ألم برأسى وامامن جهة والدتى فهى تريد النزهة فاسألك المعذرة بعدم مرافقتكما اليوم اذاعزمتما على ذلك فاجابها حسنا . انى سابقى معك . اهل ادعو لك بطبيب

اجابته وقد همت بالخروج : لاداعى للطبيب . فالالم بسيط

قالت ذلك وخرجت من الغرفة فخرج احمد بك على اثرها وفى نفسه من عوامل الانتقام مالو طاوعه قلبه على فعله لارتكب اكبر جناية يرتكبها الانسان . ولكنه كان يحبها كان يعبدها كشأن كل رجل من يتزوج بفتاة صغيرة

الفصل السادس

لنرجع بالقارىء الكريم الى الاقطار السودانية ولنذهب به الى الابيض بعدان سقطت فى أيدى المهدى . فنراه وقددخل المدينة ومعه خلفاؤه وأمراؤه ونزل فى ديوان المديرية وأنزل خلفاءه وأمراءه فى منازل الضباط والسناجق وقد ولد المهدى فى جزيرة ضرار من أعمال دنقله سنة ١٨٤٣ وهو من ذرية رجل اسمه حاج شريف واسم أبيه عبدالله وأمه زينب وكان أبوه نجاراً يصنع المراكب والسواقى وضاق به الرزق فى دنقله فرحل بأهله الى شندى ثم الخرطوم وابنه محمد أحمد طفل ثم مات الوالد : وكان محمد احمد ميالا الى التدين فى صغره فأخذ فى درس القرآن وتفهم قواعد الاسلام وانتهى فى دروسه الى محمد الخير فى الغبش تجاه بربر

اشتهر بين أقرانه بالمبالغة فى الزهد حتى قيل انه كان يمتنع عن أكل زاد أستاذه لأنه يجرى عليه من الحكومة وهو يعتقد أنه مال الظلم . وبعد أن أتم دروسه على محمد الخير مالت نفسه الى التصوف فذهب الى الشيخ محمد شريف حفيد الشيخ الطيب صاحب الطريقة السمانية وهو اذذاك مقيم عند قبر جده فى ام مرحى وسأله الدخول فى مصاف تلامذته وذلك فى سنة ١٨٦١ م فأجابه محمد شريف الى طلبه فأقام عنده منقطعاً الى الصلاة والعبادة وما لبث ان اظهر من التقشف والزهد ما ميزه عن سائر التلامذة حتى انه كان يشتغل فى منزل سيده بما هو منوط بالعبيد والجوارى من احتطاب واستقاء وطحن وطبخ وهو غير كاف بشيء من ذلك وكان كلما وقف للصلاة يبكى حتى يبلل الارض بدموعه ، واذا جلس امام شيخه نكس راسه ولم يرفع طرفه اليه الا اذا كلمه فيرفع طرفه بأدب واحترام واقام على ذلك سبع سنين . فلما رآه شيخه على هذه الحالة وانه سالك طريق المريدين وناهج منهج الصالحين مال اليه واحبه وجعله شيخاً واعطاه رايته واذن له فى الذهاب حيث شاء لاعطاء العهود وتسليك الطريقة فذهب الى الخرطوم وتزوج بابنة عم له واقام مع اخوته يبث طريقته بغيرة وجد

وفى سنة ١٨٧١ م رحل مع اخوته الى جزيرة ابا وراء الخرطوم وبنا فيها جامعاً وخلوة للتدريس فاجتمع عليه سكان تلك الجزيرة وهم دغيم وكنانة وغيرهم من عرب البادية وأخذوا العهد عنه ودخل بعضهم فى تلمذته وفى جملتهم على ود حلو الذى جعله بعد ادعائه المهدوية خليفته الثانى . ولم يمض الا القليل حتى اشتهر صيته وكثر أتباعه وكان أستاذه محمد شريف قد انتقل الى القادرية قرب جبل أولى على النيل الابيض وكان يزوره فى كل موسم أو عيد لتقديم واجب الطاعة وقبل الدخول عليه يجعل الرماد على رأسه والشعبة من رقبته وفروة الضأن على صلبه تشبهاً بالعبد فى ذله وكان محمد شريف يحل الشعبة من رقبته والفروة عن صلبه ويلبسه أنخر الثياب فيقيم عنده أياماً ثم يعود الى مركزه فى جزيرة أبا . وفى بعض زياراته حدثه عن خيرات البلاد التى رحل اليها وسهولة العيش فيها وزين له الاقامة فى العراديب بين أبا والكوة فانتقل اليها سنة ١٨٧٢ م وكانت العراديب على خصبها خالية من السكان والزراعة فعمرها وأقام فيها على صفاء تام مع محمد احمد برهة ثم لم يلبث أن تكدر هذا الصفاء فصار جفاء ثم نفوراً

ثم عداء

والسبب يرجع الى حسد محمد الشريف لتلميذه لاقبال عربان العراديب اليه فأخذ يخفض من سطوته ويناوئه وتعاظم النفور بينهما وظهر . فأخذ محمد احمد فى انتقاد اعمال استاذه ومن جملتها ان الشريف كان يأذن للنساء فى حضور مجلسه وتقبيل يده ولم يكن يرى مانعاً من الرقص والغناء فأخذ محمد احمد يعلم تلامذته ان ذلك يخالف الشرع فبعث محمد الشريف اليه ووبخه ومحا اسمه من الطريقة وهى اهانة عظيمة فى نظرهم

وكان محمد احمد يحب الطريقة وله خلفاء وتلاميذ فيها فلم يكن تركها سهلا عليه فعمد على الملاينة وذهب الى استاذه والتمس العفو وقد ذرى الرماد على راسه وجعل فى عنقه الشعبة وهى عود ذو شعبتين توضع فى العنق علامة التذلل والاستعطاف فانتهره محمد شريف وطرده واهانه . فلم يعد محمد احمد يستطيع الكظم فالتجأ الى شيخ آخر من الطريقة المذكورة اسمه الشيخ القرشى وكان بينه وبين الشيخ الشريف منافسة فخاف الاخير عاقبة الامر فاستقدم محمد احمد واستدناه فأبى وكان لذلك الاباء رنة فى اذان اهل السودان وعظم محمد احمد فى عينى الناس وانتقل الى جزيرة ابا . وبعد قليل مات الشيخ القرشى فبنى محمد على قبره قبة وبالغ فى اكرامه نكاية بالشيخ الشريف وازداد الرجل شهرة بالتقوى والكرامة فى معظم أنحاء السودان وهو الى ذلك الحين لم يدع المهدوية

وكان استبداد جباة الاموال ضاربا أطنابه وحال السودان مملوء بالقلاقل والاضطراب فكان محمد أحمد اذا ذكر الضيق الذى أصابهم من ظلم الجباة نسب ذلك خطية بنى الانسان وأن العالم قد فسد والناس قد ضلوا عن سواء السبيل فنالهم ما نالهم غضب من الله وأن الله سيبعث رجلا يصلح ما فسد ويملأ الارض قسطا وعدلا وهو المهدى المنتظر . وقد كان ذلك حديث الناس فى سائر أنحاء السودان فحيثما اجتمعوا تحدثوا فى ما يقاسونه من الضنك وما ينتظروه من الفرج على يد ذلك المنتظر حتى أصبح لفظ المهدى يدوى فى سائر مجتمعاتهم ومنازلهم فى الاكواخ والاسواق والمساجد والزوايا على الطرق والعطمور وحيثما وجدا اثنان أو ثلاثة فلا حديث لهم الا الفرج المنتظر على يد المهدى .

وكان محمد أحمد على بينة من هذا الشعور العام وحدثته نفسه أن يكون هو

الرجل المنتظر لكنه لم يصرح به لاحد . وبينما هو على ذلك جاءه عبدالله التعايشى من البقاره وكان يشتغل بالتنجيم وكتابة الاحجبة وله مطامع كبيرة فاستحث محمد أحمد على القيام بالدعوة وأكد له انه هو المهدى المنتظر من علامات زعم أن أباه وصفها له وانه وجدها كلها فى محمد احمد . فجاء ذلك وفقاً لما فى خاطر محمد احمد فاعتقد انه المهدى وقرب التعايشى وتعاونا على بناء قبة له واستقدم تلامذته واقام فى جزيرة ابا واخذ يفتش الكتب ويبحث عما يؤيد دعواه ويتبين صفات المهدى وعلاماته واخذ يظهر دعواه لتلامذته سراً من اواسط سنة ١٨٨١ م

ثم خرج سائحا الى بلاد الغرب مع رجاله وعليهم لباسهم الذى اتخذوه شعاراً لهم وهو : الجبة المرقعة . والسبحة . والعكاز . وقد اشتهر بلباس الدراويش نسبة اليهم . وجعل يبث دعوته بزرؤساء القبائل على ان يكتموا ذلك حتى تأتى الساعة للقيام بمناهضة الحكومة وكانت القبائل تبايعه اظانة منها بانه المهدى المنتظر حقيقة . وهذه صيغته المبايعه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الوالى الكريم . والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم اما بعد فقد بايعنا الله ورسوله وبايعناك على توحيد الله ولا نشرك به احداً ولا نسرق . ولا نزنى . ولا نأتى ببهتان ولا نعصيك فى معروف . بايعناك على زهد الدنيا وتركها والرضى بما عند الله رغبة بما عند الله والدار الآخرة وعلى ان لا نفر من الجهاد .

وهكذا ارتفع شأن المهدى عند السودانيين ولم تمض سنة ١٨٨٢ حتى اصبحت السودان شعلة ثورية تنادي بأسم محمد احمد وأخذ يناوش الحكومة وأراد الله له النصر حتى حاصر الابيض وسلمت الحامية المصرية اليه فلما فتح الابيض ودانت له كردفان أخذ فى تنظيم حكومته على غير نظام الحكومة المصرية . وام اقسام الادارة على ابسط وجوهها ثلاثة الجند والمال والقضاء فجعل على الجند خليفته عبدالله التعايشى قائداً عاماً على جماعة الدراويش يدير حركاتهم . وانشاء ادارة سماها بيت المال وفيه تحفظ الاموال كالعشور والغنائم والفطرة والزكاة والغرامات التى يضربونها على شارب المسكر أو السارق وعهد بادارة بيت المال الى صديق له اسمه احمد ولد سليمان . اما القضا فأقام عليه رجلا اسمه احمد ولد على كان قاضياً فى دارفور وسماه قاضى الاسلام .

ولقد أحصى المهدى ما اجتمع فى بيت المال من الغنائم التى استولى عليها من الابيض فوجدها ثلاثة ملايين ونصفاً من الريالات ومائتين وخمسين ألفاً من الجنيهات وأربعة آلاف أوقيـة من الذهب قيمتها ستة عشر ألف جنيه ومن اصناف البندقى والمجر ما يقدر بخمسة قناطير واربعة آلاف اوقيـة من الذهب المصنوع حلياً واكثر من اربعين قنطاراً من الفضة .

وبلغ الارقاء الذين غنمهم الفين وجمع من الملابس والمفروشات واثاث المنازل شيئا لا يدخل تحت حصر وانتدب امين بيت المال ابراهيم رمضان من اهالى اصوان لبيع المفروشات وانتدب ابراهيم بن عدلان لبيع الارقاء والماشية وعين كثيرا من كتبة الحكومة كتبة فى بيت المال وجلهم من الاقباط . .

وأخذت جميع الضباط المصريين فى الاسترقاق واستباحوا نساءهم وبناتهم .
وأصدر التعايشى خليفة المهدى منشوراً أباح فيه أخذ كل حسناء من زوجها وقال أن النبي ﷺ أمر بالحيلولة بينهن وبين أزواجهن الكفار .

جلس المهدى بعد ان صلى بالناس صلاة العشاء وأمرهم بالانصراف كل الى مكانه على (عنجريبه) فخرج الناس من حضرته وهم خشوع حتى لم يبق سوى عبد الله التعايشى الذى جلس بين يدى المهدى مطأطىء الرأس فقال له المهدى

ماصنع الله بك ؟ — كل خير يامولاى .
— هل جمعت الحسان — انهن تحت أمر خليفة رسول الله
— ألا يستحسن ان نذهب اليهن الآن — لا مرد لارادتكم .

فنهض المهدى واقفاً وحذا حذوة التعايشى فقال المهدى وهو يخرج من المنزل الذى اتخذه مسكنا .

— هيا لنرى من تصلح منهن لنا . وبعد ذلك خذ منهن مايحلو لك والباقيات وزعهن على رجالنا المخلصين ان النسا لذة الدنيا خصوصاً لجميلات منهن
— كلهن جميلات ياخليفة الرسول

وعند ماتوسطا الطريق الى منزل التعايشى الذى لم يكن بعيدا عن منزل المهدى التفحا كل منهما بوشاحه كى لا يعرفه أحد . وصارا حتى دخل منزل التعايشى فأدخله التعايشى الى ردهة واسعة وجدبها ماير بوا عن الخمسين فتاة ما بين امرأة وعذراء وقد انكمش فى ارض الردهة وملئت عيونهم بالخوف والذعر

وعند مادخل التعايشى امرهن الحارس المكلف بهن وهو من اقرباء التعاشى بالوقوف فوقفن متماسكات متلاصقات فقال التعايشى يخاطبهن بعد ان أمر الحارس بالخروج

ـ لتخلع كل منكن. ملابسها . ولتقف عارية . ان المهدى خليفة رسول رب العالمين يريد اختيار جواريه منكن فيالسعادة من يقع عليها اختياره

قال هذه الجملة وعلامات اللؤم ظاهرة عليه وقد نظر الى المهدى فوجد ابتسامه على فمه حيث قال له

ـ انك لداهية ياعبد الله

ـ انما أفعل كل هذه هذا لارضى مولاى

ثم نظر الى النساء فوجدهن مترددات فى تنفيذ هذا الامر فحمل عليهن بسوط كان فى يده وأخذ يضربهن به فآلمت ضربات السوط أجسام النساء الرقيقة فلم يسعهن امام هذه الوحشية الا الرضوخ فكنت تراهن وهن ينزعن ملابسهن ودماء الحياة تتساقط من وجوههن تشترك معها دموع الذل المتدفقة من عيونهن الذابلة الكسيرة .

وبعد قليل وقفن صفين منتظمين كما ولدتهن امهاتهن هذه تحاول ستر عورتها بيدها والاخري تضم ساقيها على بعضها فلاتحسن توازن جسمها فتقف مستقيمة خشية الوقوع وكان المهدى والتعايشى يمران امام كل واحدة ويفحصانها فحصا دقيقا ويسألها المهدى قائلا

ـ ماأسمك ـ اسمى توحيده

ومن هو أبوك . وما صناعته ـ كان يوز باشا بالجيش

فيجيبها وهو يداعب نهديها بيده الخشنة

ـ لقدمات ابوك الكافر . وأراد الله لك الاسلام على يدى فهل تقبلينى زوجا

فتجيبه الفتاة بدموعها الساقطة فيشير المهدى عليها فيأخذها التعايشى الى مكان آخر وهكذا تم اختيار نساء المهدى من سبايا الابيض ووقف المهدى مع عبد الله التعايشى بعد ان عادا الى منزله وسأله قائلا

ـ أرسل النساء باكرا صباحاً قبل صلاة الفجر

سأفعل يامولاى وهل كتبت المنشور الذى قلت عنه

كتبته وسيوزع باكر فى كل مكان

اذا اقرأه لى حتى اطمئن ان قلبي يحدثنى بأن الحكومـة ستنتصر علينا بعـد ذلك لقد اخبرتنا الرسل بان الحكومة تقوم باستعدادات كثيرة

هذا لايهمنا فاننا نستطيع ان ننكل بكل قوة ترسلها الينا وسوف نحاصر الخرطوم ونجلس هنا على عرش السودان فتنهد المهدى وقال

آه .. متى يتم ذلك فى القريب انشاء الله

ولسوف ناخذ من النساء ماتترع به قلوبنا وتطمئن اليه نفوسنا .

حسنا والآن أسالك أن تقرأ المنشور

فاخرج التعايشي من جيب ردائه الداخلى ورقة ملفوفة وبسطها امام المهدى وقرأ الآتى والمهدى يسمع

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم . وبعد فمن عبد ربه محمد المهدى بن السيد عبد الله اعلاما منه الى كافة المشايخ فى الدين والامراء والنواب والمقاديم اتباع المذكورين ياعباد الله اسمعوا ما أقول لكم وكونوا على بصيرة واحمدوا ربكم واشكروه على النعمة التى خصكم بها وهى ظهورنا فهو شرف لكم على سائر الامم ولكن المطلوب منكم ياأحبابنا المهاجرة فى سبيل الله والمجاهدة فى سبيل الله والزهد فى الدنيا وكل ما فيها فانها البوار ولو كانت لها بال لكاذ ربكم بجاهها وانظروا فى أهلها الذين كانت فى كل ما يطلبوه وصارت لهم بعدما كانت عسلا حنظلا وسما وصاروا فى غاية العذاب والهلاك وشدة التعب والمشقة ولو كان فيها خير لما صاروا هكذا وبعد ذلك فانهم العذاب الشديد فاذ ع بكم هذا فافعلوا والا فاتقوا الله وكونوا مع الصادقين وجاهدوا فى سبيل الله فهزة سيف مسلم فى سبيل الله أفضل من عبادة سبعين سنة ووقفة فى الجهاد على قدر فواق ناقة يعنى حلبة ناقة أفضل من عبادة سبعين سنة وعلى النساء الجهاد فى سبيل الله فمن صارت قاعدة وانقطع منها أرب الرجال فلتجاهد بيديها ورجليها والشبابة فليجاهدن نفوسهن ويسكن بيوتهن ولايتبرجن تبرج الجاهلية الاولى ولايخرجن الا لحاجة شرعية ولا يتكلمن كلاما جهرا ولايسمعن الرجال اصواتهن الا من وراء الحجاب ويقمن الصلاة ويطعن أزواجهن ويسترن بثيابهن فمن قعدت كاشفة فاتحة رأسها ولو لحظة عين فتؤدب وتضرب سبعة وعشرين سوطا ومن تكلمت بفاحشة فعليها

ثمانون سوطا ومن قال لاخيه ياكلب أوياخنزير أويايهودى أو . يا .. اويا ..
فيضرب ثمانين سوطا ويحبس سبعة أيام ومن قال يافاجر أوياسارق أويا زانى
او ياخائن أويا ملعون فعليه ثمانون سوطا أويا كافر أويا نصرانى ا ويالوطى فعليه
ثمانون سوطا ويحبس سبعة ايام ومن تكلم مع أجنبية وليس بعاقد عليها
ولا لامر شرعى يجوز ذلك الكلام فيضرب سبعة وعشرين سوطا ومن حلف
بطلاق اوحرام يؤدب سبعة وعشرين سوطا ومن شرب الدخان يؤدب ثمانين
سوطا ويحرق التنباك ان كان عنده وكذلك من خزنها فى فمه ومن عملها بأنفه ومن
ابقاها فيه يؤدب مثل ذلك ومن باعها واشتراها ولم يستعملها يؤدب سبعة وعشرين
سوطا ومن شرب الخمرة ولو مصة أبرة فيؤدب ثمانين سوطا ويحبس سبعة ايام
وجاره ان يقدر عليه يكلم أمير البلد وان لم يكلمه فيضرب ثمانين سوطا ويحبس
سبعة أيام ومن ساعد شارب الخمر بشربة ماء أو اناء فيؤدب كذلك ويحبس ويجاهد
نفسه فى طاعة الله حقيقة أشد من الجهاد بالارماح لان النفس أشد من الكافر مقاتلة
بالكافر تقاتله وتقتله وتكون لك الراحة منه وهى عدوة فى صورة حبيب فقتلها اصعب
ومسلكها تعب . ومن ترك الصلاة عمداً فهو عاصى الله ورسوله قبل كافر وقيل
يقتل وجاره ان لم يقدر عليه يكلم أمير البلد وان لم يكلمه فيضرب ثمانين سوطا ويحبس
سبعة أيام وقيل أموالهم غنيمة . وبنت خمسة سنين ان لم يسترها أهلها
فيضربون من غير حبس ومن علم بأمة معها زوج بغير عقد وصبر يوما قيل يقتل
وقيل يحبس وماله من غنيمة واعلموا أيها الاحباب أن خلافتكم وامارتكم ونيابتكم
عنا فى الاحكام والقضايا لاجل ان تشفقوا على الخلق وتزهدوهم فى الدنيا ليتركوها
وترغبوهم فى الآخرة ليرغبوها ويطلبوها وتعلموهم عداوة نفوسهم ليحذروا
منها وتنصفوا من انفسكم اذا ادعوا عليكم فيها فما أشكل عليكم فأمروهم فيه
بالصبر لغاية طلب الامراء وجمعهم عندنا ويصير تخبيره بحسب الحكم فيه من الله
ورسوله واعلموا يقينا أن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وكونوا عباد
الله مع الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه واعلموا أيها الاحباب أن
القضايا التى كانت من اثنى عشر رجب الماضى عام ١٣٠٠ ببقعة ماسا قد صار رفعها
مطلقا ماعدا الامانة والدين ومال اليتيم وأما التى بعد الاثنى عشر رجب الماضى
وقبل الفتوح تسمع فيه الدعاوى وأما قتل النفس ففيه تفصيل فى كونه مخير ولى

أمر المقتول فى اخذ الدية او القصاص واما بعد الفتوح بالنسبة الى العهد فيتعين فيه القصاص لا غير فاعملوا بذلك طبق المنشور وكذلك مال الخلع اخذه عموما من الازواج بعد الدخول بهن والاستمتاع بهن والاستيلاء عليهن فلا يصح أخذه منهن فاحكموا فيه بالحكم الذى فصله الله تعالى فى القرآن العظيم واعلموا ياحبابى ولا تخالفوا وامتثلوا الامر وكونوا سامعين طائعين لامرى ولا تتغيروا ولا تكفروا النعمة التى من الله عليكم بها فقيدوها بالشكر . وتزوج الغنية بعشرة ريال مجيدى او انقص والعزبه بخمسة ريال مجيدى او انقص ومن خالف هذا فعليه الادب بالضرب والحبس فى السجن حتى يتوب او يموت فى سجنه ومقطوع من اهل زمرتنا ونحن بريئون منه وهو برىء منا والسلام »

الختم محمد احمد المهدى

وبعد ان تم عبد الله التعايشى قراءة المنشور قال له المهدى

ـ نعم ماقلت . عجل بارساله الى جميع الجهات . ولكن على حذر من كل شى يحدث . فأجابه وهو يطوى الورقة

ـ انى لا اغفل طرفة عين عن بث العيون والارصاد لاستطلاع حركات الحكومة ومعرفة اعراضها .

ـ ويجب ان تعلمنى عن كل شىء فى حينه فلا تحدث حادثة او تنوى الحكومة نية او تخطو الجنود المصرية خطوة الا يكون عندى علم بها . وعليك بارسال القواد لتبث دعوتنا فى انحاء السودان

ـ لقد ارسلتهم يامولاى .

ـ والسودان الشرقى ألم ترسل اليه احد . كنا نبحث عن رجل يصلح لبث دعوتنا هنـاك

ـ لقد اهتديت اليه وهو عثمان دقنه الذى كان تاجراً الرقيق فى سواكن رصادرته الحكومة هناك فهو ناقم عليها من اجل ذلك . ولقد زودته بالمنشورات

ـ خير مافعلت . والآن انصرف الى منزلك فى امان الله وسلامته

قال هذا ومد يده اليه فأخذها عبد الله التعايشى وقبلها ثم انصرف تاركا المهدى بمفرده . فلما انفرد المهدى قال فى نفسه ان هذا الرجل داهية كبرى قد زين لى حب الدنيا وغمسنى فيها وذقت طعمها فـلا استطيع نسيانه . آه . ماأبدع

الحياة والذ نعا ئمها . .

قال ذلك ودخل المخدع المقابل لغرفته وهو مفروش باثاث ثمين على عكس ما كان يرى فى غرفته التى يستقبل فيها الناس فقد كانت نموذجا للتقشف والزهد وكانت بقية غرفه نموذجا للبذخ والرفاهيه دخل الغرفه وكان بها امرأة مستقيمة القامة لها هيئة كهيئة الرجال فوقفت اجلالا للمهدى الذى خاطبها قائلا .

ـ اهل نامت الجوارى؟

ـ انى لا ادعهن يستسلمن للنوم الا بعد امر مولاى

ـ حسناً . والآن دعينا نجالسهن قليلا . أهل تدربت تلك الجارية التى حضرت لنا أمس مع زميلاتها على الرقص

ـ لقد أفرغت قصارى جهدى لتعليمها ولكنها دائما تبكى هى وبقية الجوارى

ـ لا بأس فالبكاء شأن النساء

قال هذا ودخل الى غرفة الجوارى فوقفن اجلالا له فجلس على متكىء من الحرير غاص لنصفه فيه وأمر الفتيات بالرقص والغناء وهن عاريات فصدعن بالامر وابتدأ مجلس المهدى بين حريمه

فابتدأن بالرقص أمامه حتى اذا استفزته العاطفة صاح فى وجه إحدى الجوارى وقد نسى العالم وما فيه قال

ـ غنى ياسكينة . ان صوتك يطربنى فابتسمت له وتقدمت اليه وانبسطت على ظهرها بين يديه ثم نهضت بكل سرعة وارتمت بين أحضانه فقبلها قبلة طويلة قفزت على أثرها قفزة جعلتها وسط الغرفة فقال المهدى.

ـ أسمعينى أنشودتك التى أنشدتنيها أمس . فرضخت للامر وغنت قائلة

يالغرامك حل ورحل السكان من مدا أن جوفى تملك الاركان

ماألذ النار السارحة بى لو كان يبقى قلبى وقلبى فى الغرام شركان

وبينما كانت سكينه تغنى والمهدى ينثر عليها وعلى جواريه الذهب والفضة كانت المرأة المكلفة بحراستهن تغوى الفتيات الاسيرات كى يتبعن خطوات هؤلاء الجوارى كى يكتسبن عطف المهدى وحبه لهن عوضا عن بغضه ونفوره منهن الذى لا يعقبه سوى القتل فنهن من كانت تقبل ومنهن من كانت تفضل الموت من أن تسلم نفسها لرجل أقرب الى الوحش منه الى الانسان

وعلى هذا النمط كانت حياة عبدالله التعايشى من الفسق والفجور فهم يحلون لانفسهم ما حرموه على غيرهم وهكذا كان بقية القواد والعظماء . نساك فى النهار زناة فى الليل. هاتكين للاعراض . هادمين الفضيلة

الفصل السابع

« المقابـــلة »

ماوافت الساعة الحادية عشر من مساء الليلة التى اتفقت فيهـا حوزيه لمقابا فهمى حتى كان يتسلل سور الحديقة بكل خفة واستطاع بعد مجهود بسيط أ يكون وسط الحديقة مختفيا وراء الاشجار وأخذ يحدق بنظره فى الحديقة متمنا النفس أن يرى حوريه فى انتظاره فكان موقفه بالخشوع والسكون حاسبا لموقا هذا الغير مشروع ألف حساب فكانت تمضى الدقيقة وكأنها ساعة زمنية وأخي بعد انتظار دام أكثر من عشر دقائق راى فهمى شبحاً علابس بيضاء يتسلل م باب الدار الخانى ثم اختفى بين الاشجار تخفق قلبه واهتز وطار صوابه وخشى ع نفسه السقوط فأمسك بجذع الشجرة وقبض باليد الاخرى على موضع قلبه الذ اشتدت ضرباته الى درجـة كبيرة وكانت عيناه تدور فى ارجاء المكان فأبص بالشبح يتسلل الاشجار ونظر اليه مليا فتأكد له أن هذا الشبح لم يكن الا حور معبودته الحسناء جاءت للقائه فسرت الرعشة فى جسمه وسار نحوها بخطوات ث متوازنة حتى صار على مقربة منها ورأته الاخرى بدورها فوقفت برهة تلتفم وراءها ناظرة الى نوافذ القصر فعندما رأت السكينة مخيمة عليه وكل شىء هادى نظرت الى فهمى فوجدته واقفا فى مكانه مكتوف الايدى تخطت اليه خطوات بطي وهى مطرقة الرأس حتى صارت قاب قوسين أو أدنى فبادرها فهمى بصوت خاف متهدج وهو يمد اليها كلتا يديه

ــ حوريه. كيف يمكننى أن أشكرك ؟ فمدت اليه يداً مرتعشة أحس ببرودتم الشديدة ورآها تنتفض كما ينتفض العصفور المبلل فاقترب منها وطوق خصرها بذراعه ولكنها أزاحته عنها بلطف قائلة . فهمى لقد أتيت امرا مخالفا

ــ وهل فى مقابلتك لى أمر مخالف ؟

ــ كل المخالفة الا ترى أنه خيانة لزوجى

ـ ربما كان ذلك لو لم يكن حبنا قويا شريفا

ـ يجب ان ننسى كل شيء

ـ ترين ياحوريه انى حاولت ذلك بكل وسيلة مستطاعة فلم افلح ترين انى تعذبت من اجلك كثيرا

وبعد ان فاه بهذه الجملة اطرق براسه الى الارض ورجلاه ترتجفان من هول موقفه . منتظرا ان تهش حوريه فى وجهه او ان تمد له ذراعيها لتضمه ويضمها : او اوان تذهب به الى مكان امين يجلسان فيه . ولكن لم يحدث شيء مما كان يتخيله ذلك المغرم الهائم ولم يهب عليه نسيم غرامها فيلطف من حرارة قلبه الملتهب . ورأت حوريه نفسها وهى أمام فهمى على انفراد وسط أشجار الحديقة وبين اكتاف الظلام فانقلب خوفها الى عجب وفكرت فيما يجلب عليها وقوفه على تلك الحال من العار اذا رآها احد وقد لاحظ عليها فهمى هذا الارتباك فازداد به الهيام ودفعه حبه لها بالاقتراب منها قائلا

ـ مابك ياحوريه ؟ فلم تجيبه بكلمة سوى أن أخذت بيده وقادته وهى صامتة الى باب السلم الخلفى وصعدت أمامه ببطء شديد على درجاته بحذر حتى انتهت الى غرفة الاستقبال الذى كان مفتوحا فدخلت واياه وعندما توسطا الغرفة قالت وقد عادت اليها طمأنينتها شيئاما . يمكننا ان نكون هنا بأمن من العيون

ـ اجابها بكل هدوء . وهل تخشين أحدا ؟

فارتمت على مقعد بعد أن أوصدت الباب المؤدى الى سلم الحديقة وقالت

ـ كنت أخاف ان يرانا زوجى من شباك غرفته اذا ما استيقظ وأطل منها

اذاً . خيراً مافعلت . وانى اشكرك جدا

قال هذا وقد عاد الامل الى نفسه وظن ان عاطفة الحب قد تغلبت على عاطفة الواجب ولكن حوريه فاجأته بسؤال لم يحسب له حساب وقلب ظنه على عقبه فقالت . فهمى . ماالذى حملك على المجيء الى هنا ؟

حملق فى وجهها فراع اصفراره وقال . حملنى حبى الشديد بك . آملا ان اجد من حنوك نحوى وشفقتك على ميدا ناو اسعالى

اجابته . ان موقفنا هذا غير مشروع

فأمسك بيدها وهو جالس بجانبها وقال وهو يضغط قليلا عليها

ـ حوريه انني لااتردد في ازهاق روحي تحت قدميك . بل اشتري ساعة رضاء منك اقضيها بجانبك بروحي وما ملكت يداي .. آه لو تعلمين كم احبك وكم اتعذب من اجلك ... لوعلمت ذلك اتسربت الشفقة الى ابواب قلبك الرقيق ولهب عليه نسيم الغرام فحركه نحوي . وها انا اراك معي في غرفة واحدة وما فعلت ذلك الا تلبية لصوت غرامك -

ـ كفى يافهمي لقد دفنت كل غرامي . وما سمحت لك بمقابلتي الليلة الا لاقول لك يجب ان ننسى حبنا . ولكي لاارفض آخر رجاء منك وانت داخل الى ميدان حرب لا يعلم بنتيجتها الا الله

قالت حوريه ذلك وقد احست بان قلبها يتمزق بين ضلوعها فقد نطق لسانها بغير ماتهوى نفسها فلو خيرت في هذه اللحظة بين العالم وكنوزه وفهمي وغرامه لارتمت بين أحضانه وسلمت له نفسها راضية مرضية . ولكنها ما كانت لتفعل ذلك أمام رابطة الزواج المقدسة التي كانت حداً فاصلا بينها وبين غرامها لم يكن هينا على نفسها الشريفة أن تتعداه وفضلت أن تقع جثة هامدة امام ذلك الحد ان تصعد روحها شريفة طاهرة من ان تلوث جسمها بدماء الخيانة . فكرت في ذلك كثيراً وفهمي ينظر اليها وهو يعد انفاسه عداً ولما رآها لم تأت بحركة ما كاد يفقد صوابه فقبض على كتفها بيده وهزها هزة عنيفة قائلا .

ـ حوريه . ماذا تقولين ؟ اجابته وهي تستمد القوى من نفسها المتهدمة

اقول يجب ان ننسى كل شيء . واتمنى ان تعود سالما من هذه الحرب

فألقى فهمي يديه بحركة يأس شديديه وتمتم قائلا

ـ بل اتمنى ان الاقي حتفي هناك فتنتهي هذه الآلام

فارتعدت حوريه من هول ماسمعت وعندما تبين لها عزمه الذي ظهر على ملامح وجهه بشكل جلي . جرى دمها باردا في عروقها وغلبها البكاء وتناثرت عبراتها على وجنتيها كما تتناثر قطرات الندى على اوراق الورد الزاهرة وقالت وقد غيرت من لهجتها القاسية . ليس هذا شأن الرجال

ـ ان كلمة منك تعيد الى حياتي التي حكمت عليها بالموت

ـ اي كلمة تريدها؟

ـ قولي انني احبك وارحمي قلبي الذي يكاد ان يقفز من بين ضلوعي فانتبهت

حوريه الى نفسها وتخيلت زوجها وهو نائم فى فراشه هادئا مطمئنا تصورت انها هى زوجته التى احبها ووضع ثروته الطائلة تحت قدميها تجلس مع عشيق لها فى منزله وتحت سقف غرفته فراعها ذلك حتى انها لم تستطيع ان تخاطب فهمى بشىء سوى ان وضعت يديها على عينيها واطرقت براسها قليلا الى الارض فأمسك فهمى برأسها وقال

ـ قولى ياحوريه . قولى أنك أصغيت لنداء قلبينا . كلمة منك تفتح أمامنا أبواب السعادة

فرفعت رأسها اليه قائلة بصوت هادىء رزين

ـ السعادة . ؟ ليست السعادة أن تخون المرأة زوجها يافهمى

ـ ولكنه الحب قوة القوى التى لا تقهر

ـ مع هذا أرجوك أن تدع هذا الحب جانبا . بل أتوسل اليك أن تنسى كل ما كان بيننا ولا تعد الى الخوض فى حديث غرامنا . أسدل عليه ستار النسيان . ان أشعة الشمس ولذعات حرارتها بل النار ولهيبها لاهون على قلب فهمى من تصريح حوريه . فقال

ـ لك الله ياقاسية . ايمكن ان اظن ان حوريه تلك المخلوقة التى لا يخفق قلبها الا امام هيكل الحب تقف الآن موقف الجبار اما ذلك المغرم بها المتدله فى حبها . الا تشفقين على لقد اصبح قلبى ذليلا . كسيرا . اهـذا جزاء من وقف امام هيكلك الروحانى موقف الخضوع والخشوع انى لآخر ساجدا امام هذا الهيكل المقدس وارفع اليه مظلمتى واغسل قدميه بدموعى الملتهبة بنار الغرام

ـ قلت لك . لا داعى لذلك . انى ارى وجودى معك هنا إساءة كان يجب ان لا اوافق عليها

ـ وهل تعتبرين عملك هذا إساءة ؟

ـ ايوجد اساءة اكبر من هذه فى العالم . امراة تخون زوجها تحت سقف بيته بالجلوس مع آخر

ـ آه ياحوريه لقد تغير كل ما فيك . بل اراك قد وهبت قلبك الى ذلك الرجل الهرم . مع انى تزوجت بفتاة فى ريعان الشباب وهجرتها لانى لم استطع ان اعيش معها لاختلافنا فى الاخلاق والعوائد . ولانى رايت شبحك لا يبرحنى هناك

فنهضت حوريه واقفة امام هذه الكلمات التى كان وقعها شديداً عليها فخشيت ان تخونها شجاعتها فتلقى بنفسها بين احضانه وتقول له لا استطيع ان اعيش بدونك . ولا ان اعطى قلبي لسواك . فوقفت والقت عليه نظرة طويلة ثم خطت خطوة الى الامام قائلة

ـ كفى . كفى لا أريد ان امكث معك ولا دقيقة واحدة .

ـ إذاً انصرف انا . قال فهمى تلك الجملة بنغمة الذليل الكسير الذى فقد كل ماله فى الحياة . فتنهدت حوريه رغما عنها وشعرت بقواها تخور ولكنها عادت الى نفسها واستجمعت قواها وقالت

ـ ليس لك غير ذلك . ولسوف ارحل عن مصر

ـ هذا واجب على كل مصرى . واجب عليه ان يدافع عن وطنه

ـ سأدافع . واحارب واموت . فأرتاح من هذه الحياة التى دفن فيها الوفاء وفاض الاخلاص فى بطونها .

كان موقف فهمى فى تلك الدقيقة موقفاً دقيقاً للغاية . واثرت كلماته فى نفس حوريه فخانتها قواها وخرت الدموع فى مآقيها فلم تشأ ان يرى فهمى ذلك منها فخطت خطوتين وادارت ظهرها اليه فظن فهمى انها ستغادره بعد ان تفتح باب السلم له فقال بشيء غير قليل من الذلة والمسكنة

ـ الا تودعيني بكلمة واحدة انى لن اعود الى مصر ياحوريه . الك ان ترى وجهى مطلقا . كلمة وداع اسألك إياها

جرت دموعه وخانته قواه فهوى على المقعد يبكى كالطفل وهو يتمتم قائلا بصوت سمعته حوريه

ـ يعز على ان تتركيني دون ان اسمع منك كلمة رجاء احيا بها . ان نفسك العالية لا ترضى بأن تكون سبباً فى ازهاق روح لم تأت ذنبا سوى الحب ولم تقترف جريمة الا الغرام . جزى الله أمك كل الجزاء فقد قدمتني قرباناً على مذبح مطامعها . لك الله أيها المال ما كنت أعلم قبل اليوم أنك تستطيع التفرقة بين قلبين متحابين . رجعت حوريه الى الوراء ووضعت يدها على رأسه وقالت وكانها غزال مذبوح . لم يفصل المال بين قلبينا يافهمى

فرفع رأسه اليها وقال . اذا علمت حقيقة حالى لهدأت نفسك واستراح ضميرك

وليس فى تصرفنا هذا ما يسبب لك الغضب خصوصا على شاب مثلى شعر بحبك وعلم أن ذلك الذى يتنفس منه الحياة انما هو محيط حبك . ومع هذا فأنا لا اريد منك أن تجدد عهد الغرام بل اريد ان اتزود منك بكلمة واودعك الوداع الاخير يا اعز الناس عندى

فاه بهذه الجملة واشتركت دموعه فى التعبير عن كل حرف منها . ولما كان قلب المرأة قد خلق من مادة رقيقة حساسة واحيط عقلها بسياج من الشفقة والرحمة فانه كلماته اثرت فيها وقضت على البقية الباقية لها من القوة فتسربت الى قلبها الرقيق واستولت على مداركها فتقدمت اليه وهى تفيض حنانا عليه وامسكت بيدها وهى لا تعى من شدة ما هاجها من جيوش الحب وقالت

ـ كفى بكاء يا فهمى واصفح عنى . قالت هذا وشهقت بالبكاء نخشى فهمى ان يسمع صوت بكائها أحد فأخرج منديله واخذ يلاطفها ويجفف دموعها وهو يقول كان قلبى يحدثنى بأنك على عهدى ثابتة

فقالت فهمى انت لى كل شىء فى العالم . وانى لا أفكر فى مخلوق سواك ولكنى مع هذا لا أستطيع ان أجارى تيار غرامى . ولا احمل ضميرى مؤونة التأنيب بخيانة زوجى التمس منك ان ترحمنى آه لقد تقطعت نياط قلبى من اجلك

ـ يكفى ان اسمع منك بانك مازلت تحببنى . واننا قد ذهبنا ضحية مطامع والدتك .

اجل انى احبك ولكن حبى لك لا يتعدى الواجب الذى اراه امام ناظرى فى كل لحظة فهام فهمى فى وادى غرامه وقال

ان جل ما ابتغيه الا تتعدى الواجب الزوجى ويكفينى منك نظرة حنو تحيى ذلك القلب الذى تكسر على مظالم الآباء وها انا منصرف عنك تاركا روحى بين يديك ولئن فقدتك يا حوريه فى هذا العالم فلن افقدك فى عالم الارواح سوف نكون معا حيث لا مطامع تحول بيننا ولا مادة تقف حجر عثرة فى سبيلنا اعطنى يدك اقبلها أظنك لا تبخلين على بتلك القبلة الطاهرة النقية

ـ فهمى . لا تعذب نفسى كثيرا فوق عذابها . اطلب منك باسم الحب ان ترجع الى نفسك قليلا

ـ اه . ما اشقى نفسى . اراك يا حوريه ماثلة امام بصرى فى كل اوقاتى .

اسمع رنين صوتك العذب الجميل يلاطف سمعي. انت قطرة الندى التي تفتح لها زهرة شبابي. انت ضوء البدر الذي يغرد له فكري. انت شعاع الشمس الذي استمد منه الحياة. كنت أشعر وأنا بعيد عنك بأني في أرض مقفرة وليل مظلم طويل أبدي. وها أنا الآن وأنا بجوارك أحس بطراوة النسيم. آه ولكن قد شاءت الاقدار أن تتزوجي غيري.

فقاطعته قائلة. رغماً عني يا فهمي

ـ اعلم ذلك. ولقد حاولت الزواج عسى أن ينسيني فكانت محاولتي كالحيوان المذبوح يجري من سكرة الموت ولا يلبث يقع على الارض جثة هامدة

قال ذلك ومد يده اليها قائلا:

ـ الوداع. يا حوريه. يدك أقبلها يا ملاك الطهارة. ويا رسول الوفاء

مدت حوريه يدها اليه فأخذها بشغف شديد ولكنهما على الرغم منهما ولسبب يجهلانه رأيا نفسيهما محتضنين كجسم واحد بروح واحدة: وتبادلا القبلات الحارة وامتزجت دموع كل منهما بالآخر فأثر الموقف في نفسيهما وأخذا في البكاء وكل متمسك بالآخر ومكثا على هذه الحال برهة وهما لا يدريان ما يفعلان واذا بهما في أسعد وقت من حياتهما يسمعان نقراً خفيفا على الباب وقائل يقول. افتحي يا حوريه. . جمدت حوريه في مكانها وخارت كل قواها ولم تتفوه بكلمة واحدة سوى قولها. زوجي. لقد افتضحت

قالت ذلك وكادت تسقط على الارض لولا يد فهمي القوية التي حمتها وحالت دون سقوطها فاقترب بها فهمي الى المقعد ووضعها عليه وقد فقدت شعورها وارتمت مغشيا عليها. وما كاد فهمي ينتهي من ذلك حتى وجد زوج حوريه واقفا في وسط الغرفة شاهرا مسدسا في يده.. يخاطب فهمي

قف مكانك. ولا تحاول الفرار. فضم فهمي يده على صدره ووقف مواجها له وقال. لن احاول ذلك ياسيدي

خطا احمد بك بضع خطوات نحوه وألقى بنظره الى امرأته المفقودة الشعور والحواس وقال. ماذا تصنع هنا؟

فطأطأ فهمي رأسه ولزم الصمت فاسترد احمد بك الحديث قائلا

ـ أظنني ادركت كل شيء فقد كنت واقفا هنا منذ مدة وسمعت كل مادار

بينكما وعليه فأنت لص سفاك . مهدم لسعادة الناس ومع هذا فأنا واقف بين أمرين اموتك . أوحياتك . أما هذه المرأة التى فقدت شعورها وهى فى أحضانك فلى معها شأن آخر

فأجاب فهمى . سيدى . إن فى يدك مسدس . فأتوسل اليك أن تطلق منه رصاصة تذهب بروحى الى مقرها . أما هذه السيدة بل هذا الملاك الطاهر فأنا أؤكد لك انها لم تفكر فى خيانتك بل انها عنوان الوفاء فبدلا من أن يكون لك شأن معها وتحول اليها سهام انتقامك . أتوسل اليك أن تضعها موضع الشرف من نفسك وتقدرها حق قدرها وأخيراً ياسيدى . أرجوك أن تطلق مسدسك على

- أطلق مسدسى عليك . هذا جميل . ولكنى أعلم أنك ضابط فى الحربية

- هو كما تقول

- وانك راحل الى الاقطار السودانية لاطفاء الثورة

- كذلك ياسيدى .

- إذا . . لا يسعنى الا أن أضع مسدسى فى جيبى

قال هذا ووضع المسدس فى يده فاسرع فهمى باخراج مسدسه وصوبه الى رأسه واطلق الرصاص على نفسه ولكن يدا حمد بك قبضت على المسدس فجاة فتحولت الرصاصة الى جدار الغرفة وهكذا شاء القدر ان لا يموت فهمى تلك الميتة فانتبهت حوريه من غشيتها على صوت اطلاق الرصاص ودارت بعينيها فى ارض الغرفة ولكنها لم تستطع ان تتبين شيئا من تاثير انفعالها ولكنها ادركت هنالك جريمة ارتكبت فعادت الى غيبوبتها بنوع اشد . واستيقظت عزيزه هانم على صوت الرصاص فهرولت فى ردهات القصر وهى تنادى . فريده . فريده . ماذا حدث . وبينما كان ذلك يجرى قال فهمى لاحمد بك

دعنى ياسيدى اقتل نفسى

- لا ادعك تفعل ذلك لان حياتك ليست ملكا لك . بل ملكا لى . اتصرف بها كيف اشاء . ان قتلتك وان شئت عفوت . الا تعترف بان حياتك لى - نعم

إذا انا اوهبها للوطن . فاذهب وانضم الى صفوف المقاتلين وان عدت حيا لسوف اتصرف فى حياتك كيف اشاء . واطهر عارى بدمائك النجسة . اذهب ايها الضابط انى امرتك بذلك آمرك ان تسمع نداء مصر التى هى احوج الى حياتك الآن منى

أمامك السلم اخرج منه وسر من حيث أتيت ولسوف تلتقي يوما من الايام . فتحرك فهمي قليلا وخطا الى الامام ونظر الى حوريه فهاله اصفرار وجهها ففاجأه احمد بك قائلا . سر أمامي ولكن مطأطىء الرأس. تصحبك اللعنات الى يوم نلتقي فيه . أخرج قبل أن يداهمنا أحد هنا من سكان القصر وأشار بيده الى باب السلم المؤدى الى الحديقة فخرج فهمي مطأطىء الرأس حتى وصل الى سلم الحديقة فهبط منه اليها وتسلق السور وعاد الى منزله وهو يقول فى نفسه

ـ لقد عفى عنى من أجل الوطن ، فلاجل الوطن أحيا ولاجل الوطن أموت

ـ أما أحمد بك فما كاد فهمي يخرج من الغرفة حتى ارتمى على المقعد وقد اشتدت ضربات قلبه وداهمه الضعف فارتعشت أعضاء جسمه وحاول أن ينهض ليفتح النافذة كى يستنشق هواء عليلا فلم يستطع . وبينما هو على هذه الحالة واذا بعزيزه هانم داخلة مسرعة من الباب الثانى المؤدى الى ردهة القصر وقالت بشيء من الذعر وفريده خلفها . ماذا حدث . احمد بك

وعندما رأت ابنتها فاقدة الرشد على المقعد أسرعت نحوها ورفعت رأسها بين يديها قائلة ، رباه . ابنتي ما ألم بك . لقد سمعت صوت اطلاق الرصاص

فأجاب احمد بك . لا شيء لقد داهمنا لص فأحسسنا به فاطلقت الرصاص عليه ولكنه استطاع الفرار . أما ابنتك فقد راعها ذلك ووقعت مغشياً عليها

ثم انه نظر الى فريدة نظرة وحشية هائلة وقال لها

ـ افتحى النافذة أيتها الخبيثة

ففتحت النافذة وعادت الى عزيزه التى قالت لها

ـ ساعديني على حملها الى غرفتها . لعن الله اللصوص انهم لا يكفون عن اقلاق الناس فى منازلهم (الحمد لله الى ماخد حاجه وعمى عينه عن فساتينى الى ، كلفاهم الشيء الفلانى) . قالت هذا وحملت ابنتها بمساعدة فريده وذهبا بها الى غرفتها الخصوصية حيث وافاهما احمد بك حاملا زجاجة بها سائل منبه للحواس وأدناه من أنف حوريه . فأخذت تعود الى نفسها قليلا قليلا وبعد قليل فتحت عينيها أجالت ببصرها فيمن حولها حتى وقع نظرها على زوجها احمد بك فتأوهت وأغمضت عينيها عند ما قال لها زوجها

ـ اهدأى الى نفسك . ولا تخشى شيئا . نامى مطمئنة انى ساهر على راحتك ..

قال ذلك بلهجة المؤنب فكانت كلماته كالسهام المسممة يصوبها الى قلبها ثم ادار بظهره اليها وامسك فريده من يدها تاركا عزيزه مع ابنتها ظنت فريده انه سوف يغمرها بالمال ويجعل لها فى نفسه المكانة الاولى

وعندما خرجا من الغرفة قالت له ارايت ياسيدى صدق قولى

فشدد الضغط على يدها ورفسها بقدمه رفسة جعلها تتدحرج على الغرفة كالكرة وقال . خسئت ياشر النـاس . لقد سببت لى الما اشعر بانه سيقضى على حياتى

ــ سيدى كنت اعتقد اننى احسنت اليك وقمت بالواجب على

فاجابها بشىء من الخشونة الجافة: انى اطردك من منزلى طرد الكلاب لااريد ان ارى وجهك هنا فاذهبى . إذهبى ايتها الحية الرقطاء ورفسها المرة الثانية الى غرفته حيث ارتمى على فراشه جاحظ العينين مجروح الفؤاد . واحس بالم شديد فى راسه . فاغمض عينيه قائلا . هذا ما جنيته على نفسى . ظنا منى بان المال يتغلب على الشباب فاذا بالشباب يقهر المال

ثم رمى بنفسه فى بحار آلامه التى ابتدات منذ الليله

الفصل الثامن

حملة هيكس باشا

سبق ان قلنا فى سياق الحديث ان عبد القادر باشا حلمى فصل من السودان ودعى الى مصر وكان ذلك نتيجة الوشاية التى سعوا بها خصوم مصر عنـد الجناب العالى الخديوى فعاد الى مصر ذلك البطل الكبير والوطنى العظيم والحر المتفانى فى خدمة بلاده وعين مكانه علاء الدين باشا واليا على السودان فوصل الخرطوم فى ٢٠ فبراير سنة ١٨٨٣ وحصرت سلطته فى الادارة الملكية أما العسكرية فكان عليها سليمان باشا نيازى قومندانا عاما . وجعلت هيكس باشا رئيسا لاركان حربه وقد كان هيكس من الضباط الانجليز النابغين انتظم فى الجيش الهندى سنة ١٨٤٩ وشهد عدة وقائع حربية فى الهند والحبشة وتقاعد برتبة كولونيل . وفى سنة ١٨٨٢ قدم الى مصر

فسمي رئيس أركان حرب الجيش المصري

وأعدت الحملة التي قر الرأي لارسالها الى محاربة المهدي وكانت كلها من جيش عرابي وكانت الحكومة المصرية تسيء الظن به وقد أرسلته اما يهلك أو ينتصر فيعوض على الحكومة ما أفسده وعند ما سار جيش عرابي الى السودان بعد الغائه سمي هيكس باشا رئيس أركان حرب الجيش في السودان فبرح مصر في ٧ فبراير وسار بطريق سواكن فوصل الخرطوم في ٧ مارس سنة ٨٨٣ ؛ وتبعه جيش عرابي في هذه الطريق عينها وكان مؤلفا من أربعة آلات في كل آلاي ثلاث أورطو مجموعه نحو عشرة آلاف رجل عليهم أربع ضباط مصريين عظام وهم : الميرالاي سليم بك عوني قومندان ١ جي آلاي والميرالاي حسين بك مظهر قومندان ٢ جي آلاي والميرالاي ابراهيم بك حيدر قومندان ٣ جي آلاي والميرالاي رجب بك صديق قومندان ٤ جي آلاي فاقام هذا الجيش في ام درمان وشيد فيها رجب بك صديق طابية

وكان أول ما أقر عليه هكس باشا بعد وصوله الخرطوم ان يجرد حملة على ود برجوب الذي كان لم يزل شاهراً العصيان وقد اجتمع عليه الزعماء الذين خذلهم عبد القادر باشا فهمي . فلما كان يوم ٣ ابريل خرج من الخرطوم مع سليمان باشا نيازي القومندان العام وجمع في الكوة نحو ٦٠٠٠ مقاتل وسار بهذه القوة قاصداً الجبلين وخرج ود برجوب لقتاله بنحو ٥٠٠٠ مقاتل فالتقى الجيشان في المرابيع جنوبي أبا . كان هكس قد نظم جيشه ولم يكد يتم ذلك حتى أقبل الدراويش وفرسانهم في ساقتهم مهاجمين بهيئة قوس فلما صاروا على مرمى الرصاص صدرت الاوامر للعساكر فأمطروهم سحابة من الرصاص برحت بهم تبريحا وخاف فرسانهم وكبراؤهم ان يثنيهم ثقل الرصاص عن متابعة الهجوم فصاحوا بهم وحملوا في مقدمتهم بقلوب لاتهاب الموت فكنت ترى الفارس مجرداً سيفه ومطلقا عنان جواده قاصداً اختراق الصفوف فيصيبه الرصاص فيقع على الارض من قتلاهم فولوا الادبار وقد قتل من كبارهم ١٢ رجلا. اما الجيش المصري فقتل منه رجلان وجرح عشرون وتقدم هكس بالجيش الى الجبلين فوجد ديم الدراويش خاليا فعاد الى الدويم وترك جيشه فيها وتقدم الى الخرطوم ليعد نفسه للحملة على المهدي في كردفان



(الدراويش يقدمون الطاعة لهيكس باشا)

ففي مساء احدى الليالي جلس فهمي افندي الذي التحق بحملة هيكس باشا امام خيمته وقد نزع سيفه ومسدسه ووضعهما فوق كرسي من الخشب وكان في هذه الساعة يشعل لصديقه اسماعيل افندي سيكارته من عود الثقاب الذي اشعل به سيكارته وبعد ان تصاعد دخان السكائر في الجو انظر فهمي إلى صديقه الذي كان شارد الفكر وقال :

ـ لقد تغيرت كثيرا ياصديقي العزيز فلم تعد ذلك الصديق البشوش

فالتفت اليه اسماعيل واجاب بشيء من الفتور

ـ انني لم اتغير واذا كنت قد لاحظت ذلك علي فربما نشأ هذا التغيير من سفرنا هذا واقدامنا على حرب ارى ان كلها دسائس ومؤامرات سنذهب ضحيتها

ـ هذا وهم ياصديقي . فمن اين الدسائس وكلنا نقف امام الدراويش وصدره معرضا لحرابهم وسهامهم

ـ هذا لا يمنع من وجودها . وانا اؤكد ان هناك من يقوم بها

ـ من أي جانب ؟

ـ من الفريقين . هذا يطمع في المال ، وذاك يطمع في الاستعمار .

ـ دع عنك هذه الوساوس التي لا طائل تحتها . لقد مزقنا قوة الدراويش في

هذه الموقعة التي لم يمض عليها اكثر من يومين . وهكذا سنفعل وإنا لمنتصرون ان شاء الله

فالتفت اسماعيل الى صديقه وقال

ـ علمت اليوم من رسول جاء على هجين يقول ان عبدالقادر باشا بعد ان عاد الى مصر ألح على الحكومة المصرية ببقاء حملتنا كى تحافظ على النيل الابيض من الخرطوم الى فاشودة لمنع امتداد الثورة الى جزيرة سنار وترك المهدى وشأنه فى كردفان حتى يظهر للناس نفاقه أو تضيق به البلاد فيضمحل من نفسه

ـ وبماذا أجابت الحكومة ؟ ـ

ـ بما أن وراءها استشارة فقد سدت اذنها عن توسلاته هذه وامرت هيكس باشا بالزحف على المهدى فى الحال

ـ اذا سوف ندخل الى حرب أكثر هولا من كل حرب سواها

ـ هو كما تقول . وسيكون قائدنا الاكبر هيكس باشا

فأتى فهمى بحركة اندهاش وصاح قائلا : وسليمان باشا نيازى ؟

ـ نقل محافظا لعموم شرقى السودان وعين علاء الدين باشا قومندانا ثانياً للحملة

ـ وكيف تم ذلك ؟

ـ يقولون ان هيكس باشا أرسل تلغرافا الى حكومتنا يقول فيه انه لا يتحمل مسؤولية الحملة إلا اذا كانت له القيادة العامة عليها وهكذا تم له ما أراد

ـ فليكن . هذا لا يهمنى فما جئت هنا إلا للموت . اما انت ياصديقى فلا أخالك إلا ضنا بحياتك فهناك خطيبتك تنتظرك

فعبس اسماعيل وأدار وجهه شطر الجهة الثانية وقال . من يدرى ؟

فبادره فهمى قائلا :

ـ أنا متأكد انها ستبقى على حبك حتى تموت . فقد قالت لى عند توديعى لها قبل السفر . أوصيك بخيطبى

فصمت اسماعيل ولم يجب على ذلك الا بهز كتفيه استهزاء

فحملق فهمى فى وجهه واسترد حديثه قائلا

ـ اتشك فى قولى . اقسم انها لا ترضى احداً سواك

ـ فاجابه بكل هدوء وبرود : ربما يكون هذا شأنها . اما انا . . فشئ آخر

ـ لا أفهم ما تقول ـ أقول ربما أكون قد غيرت فكرك

ـ ماذا ؟ لا تتزوجها ؟ إنك ترتكب افظع خطأ فهى مثال الطهارة والوفاء
فضحك اسماعيل ضحكة عالية وأجاب . ولكنك تعلم بانى فقير
ـ إنكما من مركز واحد . وهذا كاف
ـ كاف فى نظرك اما انا فقد سئمت خدمة الجيش لان روحى عزيزة على . ومن هذا ترانى أبحث وراء المال ـ آه . تريد المال
ـ اجل وقد وصلت تقريباً الى ضالتى المنشودة ، فهل تعرف اليوزباشى حسن فندى كريم
ـ اعرفه وهو من اصحاب الاملاك الواسعة فى مصر
ـ الم تلاحظ اثناء سفرنا اننى كنت لا افارقه فى الطريق
ـ هذا صحيح
فنهض إسماعيل واجاب : الم تعرف ان له ابنة جميلة
ـ ربما يكون ذلك
ـ انا رأيتها فى مصر وفعلا جاءت ظروف حسنة اثناء السفر مهدت لى طريق لحديث عنها وبعد مناورات كثيرة حتى استطعت ان اكون خطيبها
فنهض فهمى ايضا وقد اكفهر وجهه وقال وهو يضرب الارض بقدمه
ـ انك إذا نا كث العهد ـ من اجل المنفعة يا بطل
ـ حسنا . هذا لا يهمنى
قال هذا وادار له ظهره وتقدم خطوة الى خيمته فقال له اسماعيل
ـ أتطردنى ؟ فالتفت اليه وقال
ـ ربما . فأنت قد أظهرت ما أفسد علينا الصداقة
فهز إسماعيل كتفيه وسار نحو خيمته التى كانت لم تبعد غير مسافة قليلة وهو يقول فى نفسه : مالى وللصداقة ، فقد أطفأت نارى من دولت فلماذا لا أهنأ بجمال نجية واملأ جيوبى بذهبها
وهكذا سار نحو خيمته يعلل نفسه بثروة طائلة بعد أن يتزوج بنجيه كريمة ليوزباشى حسن افندى كريم . اما فهمى فلم يستطع الجلوس بمفرده بعد ان راى خيانة صديقه ورجوعه عن الزواج بابنة عمه . فقد اضاف الما جديدا فوق آلامه فخرج هائما من خيمته بعد ان تقلد سيفه ومسدسه وسار بين صفوف الجنود وهم

نيام حتى وصل الى آخر حدود المعسكر فنظر الى الاحراش الممتدة امامه والى الوهاد والجبال التى شيدتها يد الطبيعة فأهاجت هذه المناظر اشجانه فسار وسط الاحراش ليروح عن نفسه ناظرا الى صفاء السماء ولمعان النجوم وبينما هو سائر على هذه الحال واذا باربعة رجال اشداء انقضوا عليه من بين الاشجار واوثقوه بحبل متين فلم يستطع ان يستغيث او يحرك ساكنا وما هى الا برهة وجيزة حتى فقد حواسه على أثر استنشاقه رائحة غريبة كانت فى زجاجة صغيرة وضعوها بجانب أنفه . وبعد أن تأكدوا من وثاقه وفقدان شعوره قال أحدهم : لقد اقتنصنا فريسة جديدة

فقال الآخر . لسوف تسر منها مولاتنا

فضحك الثالث وقال . بالطبع يارفاق لانه من الضباط الذين تحب أن تفنيهم بضع أسابيع تطفئ نيرانها المتأججة فى جسمها وبعد ذلك تنـ . . .

فقاطعه الرابع . قائلا صه . لئلا يسمعنا أحد من رجالنا فيسى بنا عندها فيكون مصيرنا الهلاك

ـ حسنا . وماذا يهمنا مادمنا متمتعين بكل شىء . أكل . ولهو . وطرب . ونساء وكل شىء فى نظير اصطياد مثل هذا الانسان

ـ ياله من عمل بسيط لا يحتاج الى صعوبة

وساروا به من مكان الى مكان حتى وصلوا الى باب كهف مغطى بالحشائش الكثيرة فأزاحوها قليلا ثم دخلوا حاملين فهمى بين أيديهم وساروا بعد ان أعادوا الحشائش كما كانت فى طريق مظلم مستطيل مسافة لا تقل عن المائتين من الامتار حتى وصلوا الى طرف الكهف الآخر فاذا بهم امام ارض منبسطة خضراء نبتت فيها الاشجار والرياحين فساروا فيها حتى انتهى بهم المسير الى بناء كبير غير منظم فوقفوا امام بابه المصنوع من الخشب المتين فطرقه احدهم طرقا خفيفا متفقا عليه بعد ان وضعوا فهمى على الارض واسندوا ظهره الى جدار البناء وبعد برهة وجيزة فتح الباب وظهر من ورائه عبداً اسود طويل القامة مفتول الساعدين تدل هيئته على الشجاعة والاقدام ونظر اليهم نظرة سريعة ثم قال مخاطبا احدهم . اهناك من جديد ؟

اجابه نعم . لقد جئنا بضابط من رجال الجيش نرجو ان يلائم مولاتنا فتزداد ثقة بنا . فخرج العبد امام الباب ونظر الى فهمى مليا ثم رفع راسه وقال

ـ إنه جميل وممتلئ بالشباب . سوف تكون مكافأتكم من مولاتنا ثمنه

فاجابوا بصوت واحد . نامل ذلك

ثم اشار اليهم العبد بالانصراف فانسلوا داخل الحديقة وهم يقفزون كالقردة اما العبد فانه اخذ يعالج وثاق فهمي حتى خلصه منه فصارت يداه قدماه طليقة . وبعد ان انتهى من ذلك جرده من سلاحه ووضعه في مكان خاص وراء الباب ومن ثم اخرج من مئزره زجاجة صغيرة أدناها من أنف فهمي فأخذ هذا يعود الى صوابه قليلا قليلا حتى اذا ماعاد الى رشاده هم واقفا وكان أول عمل أتاه البحث عن سيفه أو مسدسه ولكنه لم يجد شيئا سوى ضحك ذلك العبد الاسود المنتصب أمامه كالمارد فصاح فهمي في وجهه قائلا : من أنت ؟

فوضع العبد أصبعه في فمه اشارة الصمت وأمسكه بيده القوية وقاده داخل الباب حيث شعر فهمي امام قوة العبد بالخذلان ولم يسعه الا أن يسلم نفسه الاقدار لاعنا تلك الساعة التي ترك فيها المعسكر . ثم سارا في سراديب طويلة مظلمة ولم يلبثا طويلا حتى رأى فهمي ضوءاً أخذ ينير السرداب ووصلا امام باب مرتفع من البرونز كله خروق فطرق العبد الباب بقطعة من الحديد ذات مقبض خشبي ثم ترك فهمي وحيداً دون أن يفوه بكلمة وعاد من حيث أتى . فوقف فهمي مبهوتا ولكنه شعر بضعف شديد ودوار في راسه لم يعرف له سببا ولم يلبث طويلا هكذا حتى خارت قواه وعاد الى غيبوبته فارتمى على ارض المكان التي كانت كلها مفروشة بالسجاجيد المنقوشة نقشا بديعا . . وبعد قليل فتح الباب وظهرت منه فتاتان سودانيتان عاريات الاجسام لايسترهن الاقطعة من الحرير الابيض يلفانها حول وسطيهما فأسرعت احدها نحو فهمي وحملت راسه وتفرست في وجهه ثم خاطبت الثانية التي كانت واقفة في نهاية قدميه وقالت : ما اجمله ياسكينة

ـ حقا يافاطمة فهو اجمل مارات عيني في هذا المكان منذ وطأته قدماي

ـ سوف يكون له شأن كبير مع مولاتنا زينب وقلبي يحدثني بذلك

ـ مولاتنا لا يهمها شيئا في العالم سوى ان تمتع نفسها حتى اذا ماشبعت من لحم فريستها طرحتها للكلاب الم يكن هذا شانها مع كثير من الرجال

وبينما كانت سكينه تخاطب زميلتها فاطمة كانت الاخيرة تتفرس في وجه فهمي واخيرا تنهدت وقالت . دعينا من ذلك . هيا نحمله الى غرفتنا ليبيت فيها الى

الصباح كما امرنا . لان مولاتنا فى شغل مع رجل آخر الليلة

ـ وبالطبع ستكون هذه آخر لياليه

ثم حملته الاثنتان ودخلا من الباب بعد ان اوصلوه وذهبا الى غرفتها واضجعا فهمى على متكئ مستطيل فرش بالحرير الاخضر : ثم جلست فاطمة تحت قدميه تنظر الى ملامح وجهه جيدا حيث قالت لها سكينة

ـ لو رأتك مولاتك تنظرين الى الرجل هكذا لقتلتك لامحاله -

فانحدرت دمعتان على وجنتى فاطمة وتنهدت ولم تجب

***

فى صباح اليوم الثانى استيقظ فهمى من نومه فوجد نفسه على فراش وتير ورفع رأسه وادار بنظره فى الغرفة فتملكته الحيرة وأخذه الاندهاش وقال يخاطب نفسه . ترى فى أى مكان أنا · وما معنى كل ذلك : لاشك بأننى أسير وقد استعمل هؤلاء القوم معى طرقا غريبة . آه . ما معنى ذلك .

وفيما هو على ذلك اذ دخلت عليه فاطمة تحمل على يدها صينية من النحاس الاصفر المنقوش نقشا بديعا وعليها ابريقا من الشاى فوضعته أمامه وصبت الشاى فى القدح حيث لم يستطع فهمى ان يخاطبها بكلمة اذ وجد امامه فتاة سودانية على جانب عظيم من الجمال لاترتدى بشىء سوى قطعة من الحرير الابيض وظهرت جميع اجزاء جسمها وكانت الفتاة تخالسه النظر وصدرها يعلو وينخفض وبعد صمت غير طويل سألها فهمى

ـ هل تستطيعين ان تخبرينى . اين انا ؟

فرنت اليه الفتاة بطرف عينها واشارت إشارة الصمت فكرر عليها السؤال فلم ينل منها جوابا سوى ان اشارت له بشرب الشاى فلم يستطع الا لامتثال وما كاد ينتهى حتى امسكت فاطمة بيده فأحس ببرودة يدها وسارت به خارج الغرفة فتأملها وهى تسير امامه فوجدها حسناء وكان شعرها المنتشر على كتفيها متموجا لاكسا . ذات ملامح منتظمة : انف مستقيم وفم صغير وشفتان رقيقتان جسمها نحيل رقيق لا يشبه فى شىء اجسام السودانيات وفى كل يد اسورة وفى كل رجل خلخال . وسارا فى سرداب مظلم لا ينفذ اليه نور الصباح حتى ظهر النور فجاة ووقفت فاطمة امام باب من الصندل المزركش بالصدف الملون وعليه استار من

الحرير الاحمر الثقيل فرفعت الستار فاطمة بيدها وقالت بصوت قوى . ادخل ياسيدى . :

فالقى فهمى نظرة طويلة داخل الغرفة فاذا بها غرفة كسيت جدرانها بالحرير الاحمر وفرشت أرضها بالسجاجيد الثمينة وتدلت المصابيح الذهبية من سقفها رأى فهمى أربع نساء متمددات على كومة من الوسائد المزخرفة والسجاجيد العجمية فى جانب الغرفة قليل الضوء تحت شبة قبو ينفذ اليه نور النهار من زجاج ملون وكن جميلات ذوات ملامح منتظمة يرتدين ملابس من الحرير الابيض مزينة بالذهب الا الواحدة منهن وهى الجالسة فى الوسط فقد كان رداءها الذى لا يستر جسمها الا قليلا اللون الاحمر وكانت سمراء اللون قاتمته تكاد تكون سوداء وكانت أصغرهن سناً عليها كثير من الحلى والجواهر وكانت قدماها عاريتين فاضطرب فهمى عندما حدق نظره فى جمال هذه الفتاة وكاد كلما حدق نظره فيها رأى معنى جديداً من معانى الجمال وكانت نحيلة الخصر ذات عينين كبيرتين سوداويتين لها نظرة وابتسامة لم يعرف مثلهما بين بنى جنسها وقد رأى جسمها من تحت ملابسها الحريرية الشفافة . وكانت هذه الفتاة عن تلك اللحظة التى دخل فيها فهمى مستسلمة الضحك وعند ما رأته تغيرت ملامحها ووقفت مستقيمة وقالت تخاطبه . .

ــ ادخل أيها السيد

فتقدم فهمى حتى صار على مقربة منها حيث أشارت على بقية الفتيات بالانصراف فانصرفن من حضرتها ونظرت اليه نظرة طويلة ساكنة ثم خاطبته سائله : يظهر من ملابسك أنك ضابط . فأجابها وهو كالمسحور . نعم

ــ مصرى ؟ ــ نعم . فقالت متهكمة

ــ ما كنت لاشك فى ذلك منذ رأيتك

فقال فهمى وقد تحرك نحوها قليلا : ولكن ياسيدتى ألا يحق لى ان اعلم اين انا . وبأى حق ابقى فى هذا المكان

فابتسمت الفتاة وانطرحت على جلد أسد كان بجوارها متمددة فتعرى ساقها الايمن الى ما فوق وقالت بنوع من الفتور الا يلذ لك المكوث هنا تعال نتحادث

قالت ذلك وجذبته بيدها جذبة جعلته يجلس بجوارها وهى ممددة وحدقت فيه النظر وبعد صمت طويل قالت ما أجملك . اتريد الذهاب الى معسكرك ؟

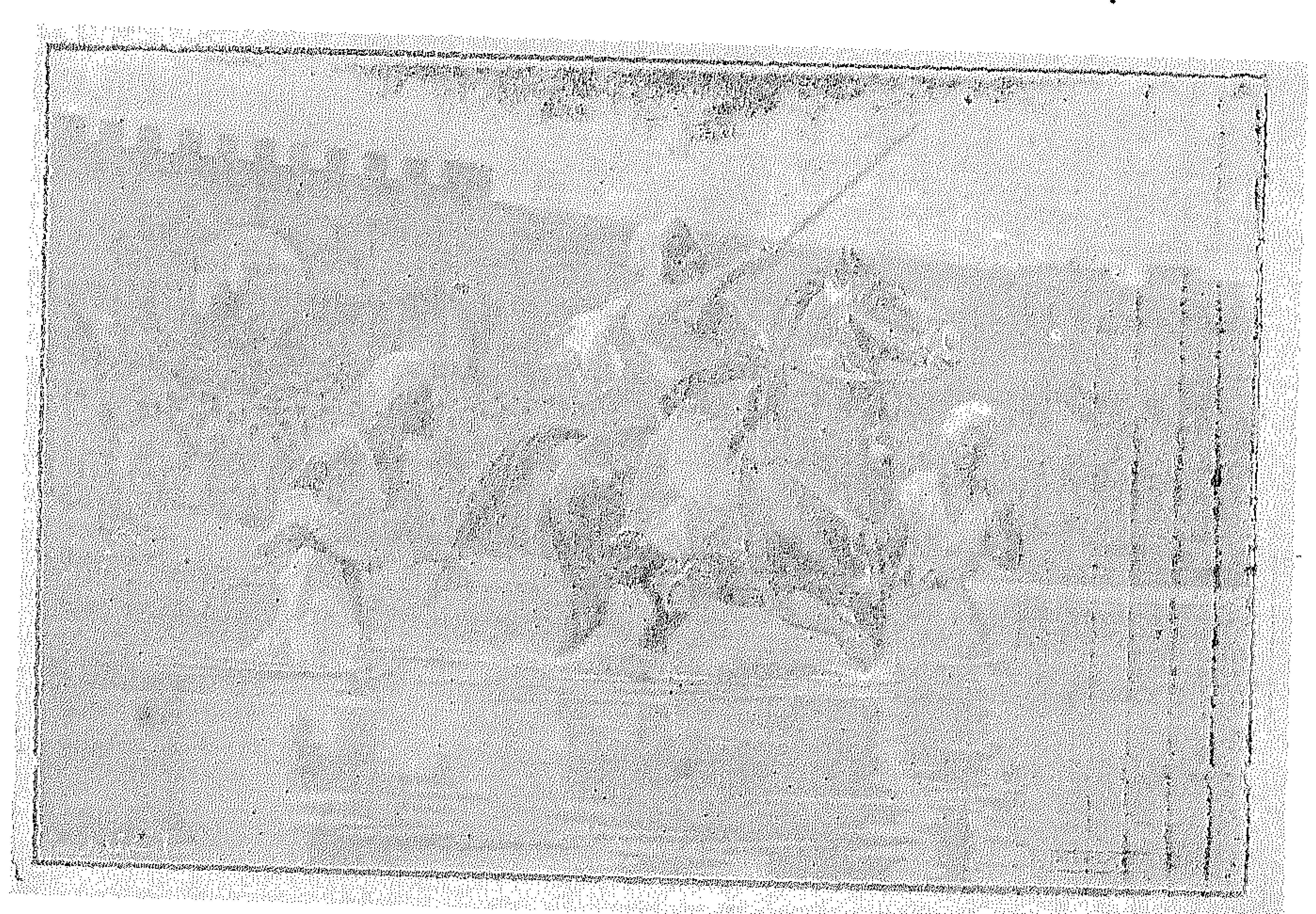
هذا ماابتغيه .

اذا انت تريد الموت   ولماذا تحتمين الموت

لعلمى بأن كل قوة تأتى الى هنا يكون مصيرها الهلاك

من اين لك ذلك ؟

ـ اعلم ذلك يقينا فقد انتشرت رجال المهدى فى كل مكان و أرسل رسله فاندسوا



« أحد امراء الدراويش »

وسط الجيوش المصرية حتى اذا ما علموا بحركاتهم وعلموا بقوتهم انسلوا تحت جنح الظلام ويعلمون المهدى أو خليفته عبد الله التعايشى

ـ ومع ذلك هذا لا يهم ولا يؤثر على قوتنا التى لا يقف فى سبيلها أى حائل حتى تقتحمه . سوف نحطم المهدى و نقتل عبد الله التعايشى هذا

عندما تلفظ فهمى باسم عبد الله التعايشى ظهر الاصفرار على وجه الفتاة وغطت عيناها بيديها وصاحت بصوت مكتوم : عبد الله ..

فسألها فهمى بعد أن لاحظ عليها الارتباك . ماذا وهل عبد الله التعايشى أفعى يزعجك هكذا . فنهضت الفتاة وجلست بجانبه وهى تتفرس فى وجهه مليا وقالت بصوت مبحوح . انه ثعبان سام يقتل كل من يقف فى سبيله

ـ اتكرهينه ؟ ـ بل أمقته . ومع هذا ...
ثم غصت بريقها ولم تستطع الكلام ثم حاولت أن تغير من الحديث فقالت وهي تطوق عنقه بذراعها الايمن
ـ دعنا من ذلك بما هو أفضل . أهل يسرك الجلوس بجانبي ومشاهدة رقص الفتيات وأغاني المغنيات أم تفضل الذهاب الى معسكرك حيث رقص الارواح على قيثارة الموت . فاجاب فهمي وقد تشبع من رائحتها الذكية المنبعثه من ذلك الدهان الذي تدهن به كل حسناء في السودان جسمها وسحرت لبه بحركات جسمها العاري فظهرت محاسنه قال
مع هذا أفضل الموت في صفوف القتال . من الحياة بين الحسان
فقهقهت الفتاة ولطمت ظهر فهمي بيدها وقالت. إنك الرجل الوحيد الذي قال لي ذلك . فكلهم تحت جمال المرأة خاضعون
فقال فهمي وقد ظهر عليه الاندهاش وهل تقابلين الرجال هنا ؟
نعم استقبلهم كثيرا ولكنهم لايلبثون هنا طويلا ـ أين يذهبون
فقالت الفتاة وقد ظهرت عليها علائم الجدسوف اعلمك بذلك في وقت آخر أما الآن فاني أشعر بالجوع . ألا تريد أن تتناول الطعام معي
حبا وكرامة . فنهضت الفتاة وطرقت على قطعة من النحاس طرقتين دخلت على أثرها فتاة عارية فبادرتها قائلة . جهزي الطعام لي وللسيد
فانحنت امامها واختفت وراء الساتر الحريريه حيث عادت الحسناء الى فهمي وطوقته بذراعيها قائلة وفمها قرب وجهه أنت رجل شجاع أليس كذلك
عند ظنك بي ـ أستطيع ان أهبت قلبي وسري
هذا رأيت
وكان فهمي جامدا جمود الصنم عندما قبلته الفتاة أول قبلة

الفصل التاسع

«المذبحـــة»

شرع هيكس باشا في تنظيم الحمله للزحف بها الى كردفان فكان اول ما به هتم

وسائل النقل فأرسل علاء الدين باشا الى شرق النيل الازرق فاشترى ٤٠٠٠ جمل وكان عنده ١٥٠٠ جمل فاجتمع للحمله ٥٥٠٠ جمل ثم ارسل علاء الدين باشا الى الدويم وشرع في ارسال الجند تباعا من الخرطوم وأم درمان. وفى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨٣ سار بقيـة الجيوش الى الدويم فوصلها فى ٢٠ من الشهر المذكور واجتمع عنده فيها اربع اورط مصريه وخمس سودانيه فيها ٧٠٠٠ من المشاه المنظمة و ٥٠٠ من الفرسان الباشبوزق و ١٠ مدافع جبليه و ٤ كروب و ٦ من نوع النوردنفلت ماعدا ٢٠٠٠ من الاتباع و ٣٠٠٠ بغل و ١٠٠٠٠ حمار و ٥٠٠ فرس

وعند ماوصلت الحمله الى الدويم اجتمع هيكس باشا بعلاء الدين باشا للنظر فى أمر الحملة فقال هيكس باشا وهو ينظر فى خارطة امامه

مارأيت ياباشا . فأشار علاء الدين باشا بأصبعه على الخريطة وقال

ـ أرى ان سفرنا من الدويم الى الابيض طريقان للسير . الاول هو طريق باره طولها ١٧٦ ميلا وماؤها قليل وتصل الابيض من الشمال

فهز هيكس باشا رأسه وهو يفرك شعر لحيته بأصابعه والثانى

الثانى طريق شات وطولها ٢٦١ ميلا وماؤها كثير وتصل الابيض من الجنوب . فقال هيكس

ـ أرى أن تسلك الحملة طريق باره لانها اقصر من الثانية

فقطب علاء الدين باشا حاجبيه وأجاب

وانا ارى ان تسلك الحمله طريق شات لان ماؤها اغزر يكفى الحملة اثناء السفر اما طريق باره فكلها تهددنا بالاخطار لعدم وجود الماء الكافى لكل هذه الحمله وهنا قام نزاع كبير بين الاثنين انطلق فيه لسان علاء الدين باشا بالحجج القوية حتى اقتنع هيكس براى علاء الدين فقال وهو يضرب المائدة الخشبية بيده

حسنا سوف نسير بطريق شات

وعند ذلك نهض علاء الدين باشا يريد الانصراف الى مكانه المخصص فأشار اليه هكس وقال الم تعثروا على الملازم فهمى افندى

ان كل ابحاثنا ذهبت مع الرياح ويغلب على الظن انه انتحر

ـ انتحر ! من أين علمت ذلك

ـ رفع الى احد رفاقه يدعى اسماعيل افندى تقريراً ذكر انه كان معه فى تلك

الليلة التى اختفى فيه وخاطبه بكلمات دلت على كرهه للحياة وأظهر له انه يريد التخلص من حياته بأى طريقة .

هذا عجيب ومدهش سوف اكتب لزوجته فى انجلترا بذلك انها أرسلت الى المسكينة خطاب مع مراسل التيمس الذى يصحب الحمله وكله يفيض حنانا وشفقة عليه . لاشك ان الخبر سيؤلمها فلم يبد علاء الدين باشا رأيا فى ذلك الموضوع سوى إظهار أسفه وخرج الى مقره وعلائم الاستياء بادية عليه

سارت الحمله فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٨٣ فى ترك بشات وتركت حامية صغيرة كانت على رأسها اليوز باشى حسن افندى كريم والملازم اسماعيل افندى الذى سر بتخلفه عن الحمله ثم تقدمت الى أبار رزيقه حيث وقع خلاف شديد بين هيكس وعلاء الدين بشأن ترك حاميات صغيرة فى الطريق لحفظ خط الاتصال مع النيل فكان علاء الدين واقفا امام هيكس والغضب ظاهر على وجهه حيث قال ان هذه الحاميات المؤلفة من ٢٠٠ رجل لا تستطيع حفظ نفسها اذ أن البلاد كلها قد سلمت للمهدى فلا نترك حامية فى مكان حتى تحيط بها عصابات المهدى وتأخذها عنوة فنكون بذلك قد اهلكنا جانباً غير قليل من رجالنا ولم نستفد شيئا .

فقال هيكس انى أرى عكس ماتقول ويجب الخضوع لكل ما أقول

فأجاب علاء الدين بشىء من الثبات اذا نعرض المسألة على كبار رجال الحمله لان المسألة مسأله موت أو حياة لامسالة خضوع لكل ماتريد

فلم يسع هيكس الا جمع كبار رجال الحمله وعرض المسالة عليهم فانعقد المجلس فى الحال وقر الرأى على قول علاء الدين. وسارت الحمله كانها جسم واحد متاهب للقاء العدو فى كل لحظة

وكان المهدى كما بينا ذلك قبل الآن لا يغفل طرفة عين عن مراقبة حركات الجيش فلما اتاه خبر قيام هيكس من الدويم امر أصحابه بخرجوا من الابيض وا ننخب منهم اربعة من خيار قواده وسيرهم على ٣٠٠٠ مقاتل أمرهم بالتوجه الى حيث تكون الحمله وتعقب حركاتهم وعدم محاربتها ويمنعوا أهل البلاد من الانضمام اليها ويوافوه بالاخبار تباعا . يبذلون فى سبيل ذلك من المال ماشاء لهم أن يبذلوه لمن يأتيهم بأخبار الحملة من رجالها الخائنون فكان له ما أراد فلازمت هذه القوة الحمله وصارت ورائها وكانت تطمر الآبار بعدها وكانوا يناوشونها القتال وساتطرفه

أحد منها الاقتلوه حتى ان الجمال لم تستطع المرعى لانحصارها داخل مربع الحملة فجاعت وأكلت قش رجالها وخارت قواها فمات كثير منها وبدأ اللغط فى الجند من ذلك الوقت فأيقنوا بالخذلان وتوقعوا العواقب الوخيمة وصاروا كلما توغلوا فى البلاد زاد خوفهم ولغطهم

وقبل وصول الحمله الى الرهد فر منها خادم مكاتب الدايلى نيوز وانضم الى الدراويش وأفضى اليهم بكل مايعلمه عن الحملة ويأس رجالها فارسلوه الى المهدى فى الابيض فرحب به وأكرمه وملاجيوبه بالذهب الوهاج وأخبره بإن الحملة فى ياس شديد وخوف فايقن المهدى بانتصاره

وأقام هيكس فى الرهد ستة أيام وفى نهايتها دخل عبد أسود الى معسكر المصريين ومعه ١٥٠٠ نسخة من كتاب كتبه المهدى لهيكس وجنوده فقادوه الى هكس ولما اطلع على خطاب المهدى مزقه واحرق نسخة كلها وهاك نص الكتاب

«بسم الله الرحمن الرحيم» — الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم . وبعد . فمن عبد ربه الفقير المعتصم بمولاه محمد المهدى بن عبد الله الى من يسمع من أهل الجرده فمن له عقل فانه لا يخفى على ذى عقل ان الامر بيد الله لا يشاركه فى ذلك بنادق ولا مدافع ولا صواريخ ولا عصمه لاحد الا من عصمه الله تعالى فاذا فهمتم ذلك فاعلموا ان الله واحد فلا تغتروا باسلحتكم ولا بجنودكم التى تريدون ان تقاتلوا بها جنود الله فان لا قوة لشيء دون الله وان قلتم ان مهديتنا مكذوبة فاعلموا ان الكذب انما يصدر ممن يحب الدنيا ويخاف المخلوق ويستعجز قوة الله فاذا فهمتم ذلك فلا تغرنكم أقوال علمائكم فان الترك الذين قتلهم شكوا للحق عز وجل وقالوا ياالهنا ومولانا ان المهدى قتلنا من غير انذار فاقول انذرتهم يارب فلم يسمعوا وحضر على ذلك شاهداً سيد الوجود ﷺ وقال لهم الامام المهدى انذرتكم فلم تسمعوا له وسمعتم قول علمائكم فذنبكم عليكم فاقبل بعضهم على بعض يتلاومون فقال الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا انتم لكنا مؤمنين وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم بل كنتم قوما مجرمين فان كان لكم نورا تؤمنون بالله ورسوله والدار الآخرة وتصدقوا بمهديتنا وتخرجوا الينا مسلمين ومن سلم يسلم وان أبيتم الا الجحود والاغترار بالمدافع والبارود فانتم مقتولون كما أخبر سيد الوجود وأسوتكم بمن

حسبنكم من الجنود والسلام»

محمد احمد المهدى

ولما علم المهدى بان كتابه لم يات بنتيجة خرج رأس جيش مؤلف من ٥٠ الف مقاتل ووصل به الى مكان يسمى البركة ثم سار به الى منهل شيكان الذى سارت الحمله اليه وهى لا تدرى ان المهدى وجيشه مرابض فى هذه البقعة وما كادت الحمله تقطع مسافة ساعه فى هذه البقعة حتى خرج من جيش المهدى حمدان ابو عنجه وعبد الله ودالنور وغيرهما ممن معهم من الانصار المسلمين بالاسلحة النارية وبينهم عدد وافر من الفرسان وحملو حمله صادقة على حين غفله من هيكس ورجاله على ساقة الجيش المصرى حيث المهمات والذخائر فاختلطوا بالعساكر فدارت عساكر المقدمه عليهم وهزمتهم ولكنهم تمكنوا من أخذ بعض الخيول والجمال والازواد . وبعد ذلك تجمع قواد المهدى عنده وأظهروا رغبتهم فى الهجوم العام على الجيش المصرى فاخبرهم المهدى بأن ذلك سيكون غدا لان النبى ﷺ أمره بقتل الجيش فى اليوم الثانى . فلما كان ضحى اليوم الثانى أى ٥ نوفمبر سنه ١٨٨٣ خرج هيكس بجيشه بثلاث مربعات على شكل مثلث متساوى الاضلاع وسار هيكس أركان حربه فى مقدمة الجيش يتبعه بعض الطوبجية باربعة مدافع . وماسار الجيش على هذا الترتيب نصف ساعة حتى دخل واديا مفتوحا شائكا وعلى كل من جانبيه غابة كثيفة وحشد المهدى جيشه فى هاتين الغابتين أى على يمنى الجيش وعلى يساره وجعل باقى جيشه فى وسط الوادى وكانت الحمله التى أرسلت المهدى لمناوشة الجيش المصرى مازالت سائرة وراءه فاصبحت حملة هيكس باشا مكتنفة بجيش الدراويش من الجهات الاربعة وذلك بفضل ما بذله المهدى من الذهب لشراء الضمائر والقلوب .

فلما رأى المهدى الجيش المصرى من بعيد جمع امراءه وصلى امامهم ثم رفع سيفه ونادى: « الله أكبر : الله أكبر . الله أكبر . » ثم قال احملوا عليهم ولا تخشوا نيرانهم فان ارواحهم مزمله ونيرانهم لافعل لها وانكم لظافرون عليهم باذن الله . فادخلت الحملة هذا الوادى حتى حملت عليها الدراويش حملة واحدة من كل جهة فاخترقوا صفوفها وأوقعوا الفشل فى الجند وأخذوا يقتلونهم طعنا بالرماح وضربا بالسيوف وأمعنوا فى القتال فلم يمض ساعة حتى قتل الجيش المصرى برمته وفيه هيكس وأركان حربه وعلاء الدين باشا وجميع الضباط المصريين ولم

ينجح من هذه الحملة سوى ملازمان وهما محمد افندى صلى من المنصورة واحمد افندى عزمى ونحو ثلثمائة جندى اختبأوا بين الاشجار وفى نهاية الواقعة قطع أحد الدراويش رأس هيكس باشا وحملها الى المهدى فكان هذا الانخذال العظيم الذى أصاب الحكومة المصرية بعد موقعة هيكس باشا قد قضى على نفوذها فى السودان بعد انضمام كثير من زعماء السودانيين تحت لواء المهدى عندما رأوا انتصاراته العديدة وكانت الحكومة الانجليزية قد أرسلت الكولونيل ستيوورت من من ضباطها العظام الى الخرطوم فى أواخر سنة ١٨٨٢ كما بينا ذلك سابقاً فدرس أحوال السودان درسا دقيقا وأرسل لها تقريراً بتاريخ ٩ فبراير سنة ١٨٨٣ نظر فيه ملياً فى حالة السودان الماليه والاداريه وبين وجوه الخلل وطرق الاصلاح وعجز المصريين عن حكم السودان وحدهم وعليه أشارات انجلترا على الجناب العالى الخديوى بوجوب اخلاء السودان فعرض أمر اخلاء السودان على مجلس الوزراء الذى كان يرأسه الوطنى الغيور والشهم الهمام شريف باشا فعارض فى الامر كثيرا وأصر على عدم اخلاء السودان لما له من الاهمية لمصر . ولكن انجلترا صاحبة الرأى فى البلاد أصرت على وجوب اخلاء السودان واعادته الى ملوكه الاولين فلم يسع شريف باشا إلا أن يقف ذلك الموقف الذى شرف من شأن مصر وكان نقطة بيضاء فى تاريخ حياته سجلت له فى صفحه مصر بدماء شهداء السودان فقد قدم استقالته تاركا منصة الحكم من أن يسجل بيده فصل السودان عن مصر واليك نص استقالته المشرفه «ألحت الحكومه البريطانيه فى طلب اخلائنا السودان غير اننا لا نملك الموافقه على ذلك الاخلاء لان هذه الاقطار ملك للباب العالى وماهى الاوديعه يجب على مصر أن تحافظ عليها . تقول حكومة الملكة أن الواجب على مصر ان تتبع نصائحها دون مناقشه وهذا إعتداء صريح على الامر العالى الرقيم فى ٢٨ اغسطس سنه ١٨٧٨ الذى بمقتضاه يحكم الخديوى مع وزرائه وبواسطتهم فنحن نستقيل لاننا منعنا من حكم البلاد طبقا لقانونها الاساسى» وعليه شكل الوزارة نوبار باشا الارمنى ووقع بامضائه على اخلاء السودان واسترجاع الجند المصرى من الحاميات وموظفى الحكومة وكل المصريين الموجودين فى الاقطار السودانية

***

تركنا مدام فهمى (مسز لوسى) فى انجلترا بعد أن تركها زوجها بسبب ذلك

الاختـلاف الذي نشأ عن العوائد والاخلاق بينهما فنعود اليها اليوم وهي تركب الباخرة من ميناء دوفر قاصدة مصر. فقد برح بها الهوى وتيمها الغرام فلم تستطع فراق فهمي أكثر من ذلك وفضلت النزول على ارادته وانضمامها تحت لواء العادات الشرقية من أن يهجرها بعد تملك قلبها وجميع حواسها. فوصلت القاهرة وكان أول همها البحث عن منزل عمه خليل افندي الذي أخبرها فهمي زوجها بأنه لا يعيش الا معه وانها اذا أرادته فعليها بالحضور الى ذلك المنزل. جاءت مدام فهمي الى منزل عمه خليل افندي وبعد أن تعارفوا ومكثت عندهم أكثر من أسبوع كنت تراها واقفة مع دولت ينتظران مرور عربة لتقلهما الى منزل حوريه هانم للاستفسار عن صحة زوجها احمد بك. ولم تلبثا طويلا حتى مرت بهما عربة مقفلة فركبتاها ومن ثم سارت بهما حتى وصلت الى باب القصر الذي تقطن فيه حوريه مع زوجها فنزلتا من العربة وامرتا السائق بعدم الانتظار بعد أن نفحته دولت أجرته. ودخلت دولت الى فناء القصر تتبعها مدام فهمي حتى وصلا الى داخل غرفة الاستقبال فوجدتا عزيزه هانم جالسة ترتب بعضا من الزهور في آنية فضية فنهضت لاستقبالها باسطة يدها الى دولت قائله

ـ لقد تأخرت علينا كثيرا. ان قلق ابنتي يزداد يوما عن يوم خوفا على زوجها ومن هذا تعلمين انها في احتياج الى مواساتك.

فارتسمت على شفتي دولت ابتسامة المحب ثم قالت

ـ لكل منا مهام تشغله عن الآخر. فمن يوم أن وصل الينا خبر مقتل حمله هكس باشا ونحن في خوف عظيم خوفا ان يكون فهمي تضمن القتلى قالت هذا وأشارت الى لوسي وقالت بصوت مرتفع وقد جالت الدموع في ما قيها

ـ أقدم لك مدام فهمي. زوجة ابنة عمي الذي لا نعلم مصيره

فهرولت عزيزه هانم الى لوسي تصافحها بينما دولت تجهش بالبكاء فلم يسع عزيزه هانم الا ملاطفتها قائله.

ـ خففي عنك يا دولت ولسوف يأتي اليكم سالما مع خطيبك اسماعيل افندي فخفضت دولت راسها عند سماعها خطيبها اذ ان عزيزه استطاعت ان تعلم سر الم دولت الحقيقي. اما لوسي فقد كانت واقفة كالصنم لا تدري ما يقال لعدم معرفتها اللغة العربية فنظرت اليها دولت وهي تجفف دموعها وخاطبتها بالفرنسية التي تعلمتها في المدرسة مع حوريه صديقتها

ـ عفوا يامدام لايخامرك الظن ان بكائى هذا لشىء سوى اشتداد المرض على زوج صديقتى التى جئنا لزيارتها

أجابت لوسى: هذا مما يزيد فى ألمى

وفى تلك اللحظة قادتهما عزيزه هانم والتى لم تكن تعلم ماحدث لحوريه ابنتها وزوجها وفهمى تلك الليلة الليلاء لان احمد بك لزم الصمت حتى عن زوجته التى كانت تذوب من الخجل أمامه حتى مرض مرضه الذى نشأ من هول هذه الكارثة التى لم يتحملها قلبه الهرم فاخذ المرض يتسرب اليه حتى ضعف ضعفا شديدا وانتابته الحمى فكان يهذى لياليه وكانت حوريه زوجته لا تفارقه لحظة عين فكلما فتح عينيه لا يرى الا وجه زوجته والدموع تجول فى عيونها فيشدد الضغط على يدها قائلا .

لقد عفوت عنك ياحوريه

ولم تكن حوريه تجاوبه على كلماته بشىء سوى أن تغمض عينيها باكية منتحبة . دخلت والدتها غرفة المريض فايقظ دخولها حوريه من ثباتها العميق فحولت نظرها الى الباب فرأت دولت وهى شاحبة اللون ومعها لوسى فنهضت للحال واستقبلتهما ببشاشة كلها تكلف واجلستهما بجوار فراش المريض الذى حملق بعينيه فى دولت ولكن دولت حولت نظرها عنه لعلمها بما يكنه قلبه من البغض لابن عمها فهمى وخاطبت حورية باللغة الفرنسية قائله

ـ نسيت ان اقدم لك زوجة فهمى ابن عمى فقد جاءت لمقابلة زوجها فى مصر ولما علمت بسفره مع حملة هكس باشا ثم خبر هلاك تلك الحمله عزمت على الرحيل الى السودان لتتأكد بنفسها وجود فهمى من عدمه وهى تؤكد انه لم يمت لانها لم تودعه الوداع الاخير . وهنا تداخلت لوسى فى الامر قائلة بلهجة التأكيد . نعم انا اؤكد انه لا يستطيع الموت بعيدا عنى

فطأطأت حوريه راسها وداهمتها الافكار المزعجة عندما علمت ان الجالسة أمامها هى زوجة فهمى معبودها فأخذت فى الحال تجاهد نفسها واستطاعت أن تغير مجرى الحديث عن فهمى وزوجته فقالت بلهجة قاطعة

ـ نتمنى جميعا أن نجده المدام سالما . فأحنت لوسى رأسها واجابت

ـ سوف يصلكم نبأ نجاته من الموت بمجرد وصولى

وعند ذلك نهضت عزيزه هانم وهى غاضبة من حديث يدور بلغة تجهلها وقالت .

أنا لا أستطيع الجلوس مع قوم لا يتكلمون بلغة لا أفهمها

وخرجت على أثر جملتها وهنا حول احمد بك رأسه الى جهة حوريه زوجته وقال .

لماذا خرجت والدتك ؟

ـ لانها لا تريد الجلوس فى مكان لا تفهم ما يدور فيه من الكلام

ـ وفيما كنتم تتكلمون ؟

فاحمر وجه حوريه ولكنها اضطرت أن تقول متلكئة وهى تشير الى لوسى

ـ كانت مدام فهمى تتكلم عن زوجها وعن هلاك حملة هيكس باشا فعندما سمع أحمد بك اسم فهمى انقبض قلبه وكاد أن يصيح فى وجه لوسى قائلا ان زوجك سافل دنىء يسرق الناس سعادتهم ولكنه تمالك نفسه وكتم شعوره وخاطب مدام فهمى باللغة الفرنسية قائلا : حضرتك مدام فهمى

ـ نعم ياسيدى ـ وجئت من بلادى لمقابلته ؟

ـ بالطبع لانى لم أستطيع العيش دونه ـ ولاى شىء افترقتما ؟

ـ لاختلاف بسيط وقع بيننا . فهو لا يريد أن يرانى رجل خلافه وأنا بصفتى انجليزية من عادتنا أن لا حجاب بيننا وبين الرجال .

ـ آه . هو لا يريد أن يراك مخلوق غير . . قال هذه الجملة بصوت مرتفع ونظر الى حورية زوجته نظرة معنوية فتلقتها منه بثباتها المعهود وحولت نظرها بسرعة الى دولت التى أدركت ما يرومه أحمد بك لان لوسى أخرجت الجميع من هذا الموقف قائله لاحمد بك . ومع هذا ياسيدى لم أجده فى مصر ولقد عزمت الرحيل مع حملة جراهم باشا التى ستقوم من مصر الى سواكن لتهدئة الخواطر هناك ومن هناك أرحل مع دليل الى الخرطوم حيث أستطيع الاستعلام عن زوجى . فأجابها احمد بك وقد داهمته فكرة شيطانية

ـ ومع هذا فالطريق الآن على ما اعتقد محفوف بالمخاطر

ـ لا أهتم بهذا ما دامت نهاية هذا الطريق رؤية زوجى .

ـ وكانت حوريه أثناء ذلك تخالس النظر الى لوسى وقد شعرت بالغيرة تدب فى جسمها ولم تنتبه الا على صوت زوجها يخاطب لوسى قائلا

ـ أعزمت عزماً أكيدا

لقد ذهبت الى جراهم باشا وخاطبته فى الامر فرفض أولا ولكنه رضخ الى

طلبي فى النهاية غير متحمل مسئولية كل ما يصيبني من الاخطار فى المستقبل

ـ اذا أنا استطيع أن اقدم لك مساعدة فلى فى السودان أصدقاء كثيرون يقومون بخدمتك عن طيبة خاطر فتهلل وجه لوسى بالفرح وقالت. إنني لن أنسى فضلك ياسيدي اذا فعلت ذلك. تداخلت دولت فى حديثهما قائلة للوسى

ـ انه من أشهر التجار هناك وله بالطبع عملاء كثيرون . فهزت لوسى رأسها وهى تبتسم قائله لى الشرف ياسيدى . وعند ذلك طلب احمد بك من زوجته أدوات الكتابه فأحضرتها له فورا فأخذ يكتب رموزا على ورقة بيضاء ثم ناولها الى لوسى قائلا . أتستطيعين قراءة هذه الورقة ؟

أجابته لوسى وهى تنظر اليها . لا يمكن لاى مخلوق أن يقرأها ياسيدى

فنظرت دولت وحوريه الى شكل الكتابة فلم يستطيعا قراءة حرف واحد منها وأخذ العجب الجميع فقال احمد بك

ـ هذه رسالة توصية الى احد أصدقائى يقيم فى الخرطوم إسمه الشيخ عبد الغنى سلام وهو من التجار العظام وله املاك واسعة فى المدينة فمتى وصلت مدام فهمى الى هناك تستطيع ان تهتدى اليه سريعا لشهرة الرجل وما عليها الا ان تسلمه هذه الرسالة التى كتبتها برموز هو يعرفها والتى كنا نتراسل بها بحكم سر مهنتنا وهو يقدم لها كل ما تحتاجه من المساعده

فشكرته لوسى على ذلك الان كلمات شكرها لم تصل الى سمعه من سعال انتابه فجأة فأخذ يسعل بشدة ثم ألقى برأسه على الوسادة وقد خرج الزبد من شدقيه فاهتم الثلاثة به الى ان هدأ السعال قليلا فاستأذنت دولت فى الانصراف وخرجت مع لوسى بعد ان شكرتا احمد بك على مساعدته للوسى وبعد ان خرجتا نظر احمد بك الى زوجته وهى قادمة من الباب بعد أن ودعتهما قائلا

ـ اذهبت دولت مع مدام فهمى ؟ نعم

فأغمض عينيه وتمتم قائلا بصوت ضعيف لم تسمعه حورية قائلا

الآن قد انتقمت لنفسى بعد ان هيأت لى الاقدار ذلك فلسوف يقتلها الشيخ عبد الغنى عند استلامه خطابى اذا قدر ان يكون فهمى على قيد الحياة واذا كان فى جهنم الآن فلسوف تلحق به امرأته . . .

الفصل العاشر

« الفــرار »

بعد ان قضى المهدى على حملة هيكس باشا ازداد نفوذه فى السودان واخذت القبائل تنضم تحت لوائه فسلمت اليه دارفور واسلم حاكمها سلاتين باشا ووقف على باب عبد الله التعايشى ضمن اتباعه وكذلك سلمت الفاشر وبحر الغزال وخلافهما مما جعل شوكة المهدى قوية وصار خطرا يهدد انحاء السودان وامتدت لهيب نيرانه الى سواكن فأرسلت حملة بقيادة محمود طاهر باشا فاصابها الفشل وتبعتها حملة بيكر باشا فكان نصيبها كالاولى وعندما رات انجلترا ذلك اخذت الامر كله فى يدها (وهذا ما كانت تسعى اليه) وعقدت مجلس نوابها واقرت على حماية سواكن فأرجعت بيكر باشا الى مصر وألقت مقاليد الاحكام العسكرية والملكية فى سواكن الى الاميرال هيوت فأبلغها فى ١٢ فبراير سنة ١٨٨٤ خبر سقوط سنكات وهلاك حاميتها فعقدت مجلسا آخر أقرت فيه على ارسال جيش فى الحال لحماية سواكن وانقاذ حامية طوكر وأوعزت الى قومندان جنودها فى مصر للجنرال جراهم على ٤٠٠٠ جندى فيهم ١٠٠ من الطوبجيه بستة مدافع وأورطة من الفرسان ومعه بعض الضباط الانجليز (الموظفين فى الجيش المصرى). وبينما كان جراهم باشا يتأهب للسفر بحملته كان فهمى وزينب السودانية التى مالت بكليتها اليه جالسين على وسائد من الحرير فى ذلك البناء المهجور وسط الصحراء وهى بملابسها الشفافة التى تنم عما وراءها وكانت متحلية بحليها وحللها وفهمى أمامها مرتديا رداء حريريا أبيض اللون حيث كانت تخاطبه قائلة وهى تكاد تلتهمه بنظراتها

ـ ترى يا فهمى أنك الشخص الوحيد الذى مالت له نفسى

فاجابها فهمى بشئ من الضجر. أراك قد عدت الى حديث قلبك. وهذا مالا أريده فسألته بغضب. ماذا تريد؟

ـ أريد وضع حد نهائى لسجنى هذا. فاما موت وإما حياة. وأنك تفرين منى كلما خاطبتك بذلك بعد أن طال مكوثى هنا مدعية أن عندك سراً سوف تبوحين لى به وللآن لم أعرف عن سرك هذا كلمة واحده

فاجابته زينب وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة حلوه

ـ لقد وعدتك بأفشاء سرى اليك عندما وجدت فيك رجلا شجاعا لا تهاب الموت

ـ وبعد ذلك

ـ وبعد ذلك . اعطنى أذنك قليلا فقد آن وقت إفشاء هذا السر

فأصاخ فهمى بأذنيه اليها قائلا . تكلمى . ها أنا صاغ

فمددت زينب ساقيها واضطجعت على صدرها فوق الوسادة وقالت

ـ لا يخامرك الظن بأننى من بنات الفجور . بل على العكس انى ابنة احد مشاهير التجار فى الخرطوم يدعى الشيخ عبد الغنى سلام . ولم يرزق أبى سواى فأحبنى حباً مفرطاً لم يكن ليستطيع فراقى لحظة واحده . لهذا كان يأخذنى معه عندما كان يضطر للسفر الى أى بقعة من الارض . فأعدت السفر معه حتى كانت السفرة الاخيرة الى مدينة الابيض فما كادت أقدامنا تستقر حتى حوصرت المدينة برجال المهدى ولم نلبث طويلا حتى سلمت المدينة ودخل المهدى برجاله ينهبون ويسلبون واخذوا نساء المدينة غنيمة حرب وكنت ضمن العذارى حيث ودعنى أبى بدموع غزيرة ولم تنفع شفاعته عندهم وساقونا سوق النعاج الى مكان فسيح وهنا جاءنا رجل علمت فيما بعد أنه عبد الله التعايشى خليفة المهدى وقائد جنده فأخذ يتصفحنا ونحن عرايا دون أن يخشى الله كما يتصفح فى كتاب مفتوح . وأخيراً كنت أنا ضمن من اختارهن هذا الرجل لنفسه كحظيات

فأجاب فهمى . هذا مدهش اذ هؤلاء القوم يدعون الولاية فكيف بهم يستبيحون أعراض الناس

ـ ان ظواهرهم غير بواطنهم : انهم يخفون وراء ردائهم الذى يسمونه (مرقعيه) نفوسا وحشية وقلوبا سوداء وضمائر مائتة . فقد كان يأتينا هذا الرجل (عبد الله) مساء كل ليلة ويهتك منا العرض .

وهنا غصت الفتاة بريقها وتوقفت عن الكلام بزهة وهى ترتعد خوفا وهلعا فقال لها فهمى وهو يمسك ذراعها ملاطفا

ـ يا لها من جريمة سوف تعاقبهم عليها السماء

فقالت زينب . أجل انهم سفاكون للدماء البريئة هتاكون للاعراض الطاهره وبعد ذلك ياسيدى رأيت ان الرجل ينظر الى كثيرا ويهتم بأمرى أكثر من غيرى

فقاطعها فهمى قائلا . وهل كنتن كثيرات

ــ كان عددنا يربون عن الثلثمائة بين مصرية وسودانية ـــ ياللهول

ــ إسمع فجاءنى ذات ليله وقال لى زينب تهيئى للسفر معى فقد اضطررت للسفر الى مكان سوف أقضى فيه بضعة أسابيع لامور تتعلق بحروبنا ولقد وقع اختيارى عليك أنت وخمسه من الفتيات فصدعنا بالامر وسرنا فى البرارى والقفار وكان كلما وقفت قافلته برجالها الكثيرين للاستراحة والنوم يدخل علينا فى خبائنا الذى ينصب عادة بعيدا عن معسكره ويأمرنا بخلع ملابسنا ويجلس أمامنا ليمتع انظاره برقصنا طويلا . فاذا ماعارضت احدانا فى تنفيذ رغبة واحدة من رغباته انهال علينا جميعا بالسوط يمزق أجسامنا.

فأجابها فهمى وقد غلت الدماء فى عروقه . ياله من رجل جبان

ــ أى جبان هو . أخيرا وصلنا الى هذا المكان الذى نحن فيه الآن وهى البقعة التى كان يريد الوصول اليها فأمر رجاله بتصليح ماتهدم من هذا البناء وفرشه بانواع السجاجيد التى قدمت له من رجال القبيلة التى كانت تقطن هنا والتى قدمت له يوم وصوله كل بناتها الابكار فاستعاضهم بنا ورحل مع رجال القبيلة الذين انضموا الى جيشه وتركنا فى هذا السجن قائلا . امكثن هنا فلربما أمر من هذه الجهة وقت الحروب فاجد عندكن مأ نسالى وهكذا تركنا ذلك الوحش الضارى أما انا وزملائى هنا فقد كنا نتسلى بعاشرة من يقع فى أيدينا من الرجال حيث نأمر بقتلهم بعد أيام قليله كى لا يصل هذا الامر مسامع عبد الله فينكل بنا أفظع تنكيل

ــ ولكننى أراك هنا الآمرة الناهية بخلاف بقية النساء

ــ لاننى مفضلة عنهن وكان عبد الله يقدمنى عليهن ولقد أتحفنى بكل هذه المجوهرات والمصاغ دونهن وفوق ذلك فقد ولانى عليهن يأتمرون بأمرى ويخضعن لاجل إشارة منى

ــ ولماذا لاتمنع الرجال المكلفون بحراستكن دخول رجال أجانب اليكن؟

ــ اننا نشترى ذلك منهم بالذهب الوهاج . وفوق ذلك فلكل منهم مأربا مع امرأة من هناء وهم يعتقدون اننا لانقصد باسر الرجال الا تعذيبهم وقتلهم فى سبيل الله ونصرة المهدى

قالت ذلك ونهضت واقفة وعلامات الجد ظاهرة على محياها الجميل وسارت

بخطوات بطيئة الى النافذة التى تطل على السهل الممتد أمامها وقالت

ـ من هذا ترى أننى أسيرة مثلك وأريد الفرار كما تريده أنت

ـ إذا كيف العمل ونحن بين حراس كثيرين

ـ لقد مهدت الطريق لذلك فتهلل وجه فهمى بالفرح وقال: كيف فأشارت الى النافذه وقالت. من هنا

ـ ان هذا العمل محفوف بالاخطار ـ لقد احتطت لكل شئ

ـ وهل أذهب معك؟ فضمته زينب الى صدرها وقالت لم أفكر فى الهرب إلا من أجلك. ـ وأين نذهب ؟

ـ الى الخرطوم . الى وطنى وبلادى . الى اهلى وعشيرتى.

ـ ولكننى أجهل طرقات هذه البقعة وليس معى خريطة نستطيع السير بمقتضاها وربما وقعنا بين أيدى الدراويش فيقتلوننا لا محاله . آه كلما فكرت فى تلك الخيانة التى دبرت لاغتيال رجالنا . كلما ذهب عقلى

فقالت زينب. ليتنى لم أقل لك ذلك. ومع كل إن حركات الحملة كانت تصل الى المهدى من بعض الرجال الذين مع الحمله. هذا ماعلمته من احد حراسنا ألم يكن الاجدر برئيسكم أن يحتاط للامر فلا يدع أى رجل يخرج من المعسكر

فهز فهمى رأسه قائلا. كان الاجدر ان لا نقبل تداخل الاجنبى فى شئوننا. وهذا ماجر علينا الويلات . ولكن هذا لا يفيد الآن ولنعد الى حديثنا الاول. قلت اننى اخشى وقوعا فى ايدى الدراويش وهم منتشرون فى هذه البقاع كالجراد

ـ كلا. فقد اخبرنى ابن عدى انهم رحلوا ليلة امس عند الغروب ولم يبق منهم احد لانهم يريدون ان يجمعوا صفوفهم ويهيئوا انفسهم لحرب آخر

ـ ومن هو ابن عدى هذا ؟

ـ هو احد حراسنا اغويته بالمال الكثير حتى مهد لى طريق الفرار الى الخرطوم معك . وهو شاب له قلب كقلوب الملائكة لا يهاب الموت مطلقا عارفا بمسالك الطريق .

ـ ومتى عزمت على الفرار؟ ـ باكر

ـ حسنا . سأكون على استعداد تام

وعندما وصلا فى الحديث الى هذا الحد كان القمر فى كبد السماء وكان فهمى

يشعر بتعب شديد اجعله يشتاق لى فراشه اشتياق الظمآن الى الماء فقال

ـ أرجو أن تأمرى أحداً بتوصيلى الى فراشى فى الغرفة التى أعددتموها لى إذ أنى لا أستطيع الذهاب بمفردى وسط هذه السراديب والطرقات المتعرجه

فضحكت زينب ضحكة رنت صداها فى أرجاء المكان الهادىء وقالت

ـ يقال إنه كان مسكنا لاحد ملوك الجان فى الازمان الغابرة ومع هذا لا أدعك تذهب من هنا

قالت هذا وهى تتعلق فى عنقه وأجزاء جسمها تتلاعب ذات اليمين وذات اليسار فأجاب فهمى . انى فى حاجة الى الرقاد خصوصا بعد أن عزمنا على السفر باكر . نحتاج الى الراحة ـ سوف تنام معى . ألا يروقك ذلك

فحملق فهمى فى وجهها وكان أن يقول لها . إنى لا أمتلك قلبي فأهبه لك ولكنه خشى أن تعرف منه ذلك وأنه لا يستطيع مشاركتها هذا الغرام فتنقلب عليه وتهدم كل ما بنته للهروب معه فعاد لنفسه قليلا وقال

ـ انى أرغب ذلك من صميم قلبى

فضمته اليها بشدة وأخذت تقبله بحرارة قائلة

ـ سوف نعيش بين أحضان عشيرتنا سعداء : وسأقدمك الى أبى ان كان لا يزل حياً وعاد الى وطنه كمنقذى من الهلاك . سوف نتزوج أليس كذلك؟

فاضطر فهمى أن يكذب وقال : بالتأكيد سوف نفعل ذلك

فقالت بفرح وسرور تملك نفسها بعد أن انطرحت على الفراش الحريرى وفهمى فى أحضانها . اذا الى الحريه . الى الحياة الجميله الحلوه

***

تركنا الضابط اسماعيل افندى مع الحامية فى شات وعلى رأسها اليوزباشى حسن افندى كريم الذى اعتزم ان يزوج ابنته الى اسماعيل افندى فمكثت هذه الحامية لحفظ خط الاتصال بين النيل وبين حملة هيكس باشا ولم يمض أكثر من ثلاثة أيام على مكوثها حتى داهمتها رجال قبيلة تقطن هناك . فلما رأى اسماعيل افندى ذلك هرول الى اليوزباشى حسن افندى الذى قابله بوجه مكفهر ومسدسه فى يده ففاجأه اسماعيل قائلا

لا فائدة من الدفاع . هيا لننجو بنفسينا

فهم ان يقاطعه حسن افندى ولكنه وضع يده على فه وأشار بأصبعه نحو رجال الحامية الذين سقط معظمهم قتلى وصاح قائلا. لقد قتلت الرجال هيا أسرع

فهرول حسن افندى وامتطى جواده وقد حذا حذوه اسماعيل افندى وحول عنان جواديهما الى جهة النيل فسارت تنهب بهما الارض نهباً ولما رأت جنود الحامية ذلك ألقت السلاح وهم كل منهم بالنجاة

— وبعد أن قطعا مسافة بعيدة أوقفا الجوادين ونزلا عند رابية للاستراحة وتركا الجوادين يأكلان من كلأ الارض فقال اسماعيل وهو ينفض الغبار عن ثوبه

— حقا. لقد سئمت حياة العسكرية. وأرى انه خير لنا ان نترك هذه البلاد المملوءة بالنار ونعود الى وطننا عن طريق النيل دون أن يشعر بنا احد

فاجابه اليوزباشي وقد ظهر العجب عليه. انهرب من الجنديه؟

فضحك اسماعيل ضحكة سخرية واجابه. ليس هذا هروبا. بل نجاة من الدسائس التي تقاء. هنا لهلاك الجيش المصرى. هذا هو رأيي ولن أتحول عنه

ثم أنه أخذ يسرد لحسن افندى أقوالا ويشفعها بادلة وبراهين حتى حبب اليه السفر الى مصر واستطاع ان يأخذ منه كلمة رضاء فقاما يستانفان السير بعد ان اتفقا ان يرتبا اول مركبة شراعية تسافر بهما الى مصر عن طريق النيل

فلنتركهما يتحملان مشاق السفر الى مصر ونعود الى فهمي وزينب بعد أن استيقظا عند شروق الشمس وارتديا ثياب السفر ووقفا امام النافذة المطلة على السهل الممتد امامها وكانت المسافة بين النافذة والارض بعيدة جدا تحتاج الى مجازفة فى الهبوط على الحبل الذى اخرجته زينب من بين الوسائد وعقدته فى النافذة وقالت لفهمي هل انت مستعد — نعم

— هيا اذاً وانزلق على الحبل حتى اذا ما وصلت الى الارض عمدت انا الى النافذة وهبطت الى حيث القاك. ومتى صرنا على ارض الحرية نجد ابن عدى ينتظرنا مع راحلتين فجلس فهمي على حافة النافذة ولم ينبث بكلمة واحدة وتدلى برجليه فى الفضاء وجاءت هبة من النسيم العليل انعشته فهوى بجسمه وهو ماسك بالحبل ثم اخذ يهبط شيئاً فشيئاً وزينب تراقبه وقلبها يخفق حتى وصل فى النهاية الى الارض ورفع راسه الى فوق فرأى شبح زينب يهبط على الحبل بخفة ونشاط فامسك الحبل من طرفه الاخير وقد تملكه الذعر خشية ان يراهما انسان فيفسد عليهما الامر وتكون

نهايتهما الموت لامحالة. وبعد برهة بسيطة كان فهمي يتلقى زينب بين يديه وينزلها الى الارض وقد التفحت برداء أبيض جعلت أحد أطرافه على رأسها ثم سارت به نحو مكان مماوء بالاعشاب حيث التقيا هناك بابن عدى وبجانبه الراحلتان فعندما رآهما نهض واقفاً كالمارد وأخرج من بين ردائه مسدس فهمى الذى نزعه منه عند دخوله الكهف أول مرة وكذلك سلمه سيفه فشكره فهمى لذلك وفرح فرحا شديداً لرجوع سلاحه اليه بعد أن فحصه وتيقن أنه مازال صالحا للاستعمال فركبت زينب راحلة وركب فهمى الاخرى وقد كانت الراحلتان تحملان قرباً من الماء وزاداً مما قد يحتاجون اليه فى سفرهم وهكذا رحلت تلك القافلة الصغير يتقدمها ذلك العبد الاسود (ابن عدى) يقطعون البرارى والقفار غير مصدقين بنجاتهم من براثن الدراويش حتى كان وقت الظهيرة فأناخا براحلتيهما وجلسا فى ظل بعض الصخور وابن عدى معهما يأكلون ويشربون وبيناهم على ذلك إذا بالغيوم تكاثرت فى السماء واحتجبت أشعة الشمس عنهم: وركد النسيم ركودا كأنه أبدى وأخذت الراحلتان تهدد وترتعش قوائمها فقال ابن عدى وهو ينظر الى قوائم الجمال وقد ظهر على وجهه الذعر الشديد. متى ارتجفت سيقان الجمل أنذر ذلك بقرب انهمار أبواب السماء بمطر هائل

قال ذلك وهو ينظر الى نقطة. سوداء كانت تتضاعف شيئا فشيئا

فصاحت زينب جزعة. هذه عاصفة: أليس كذلك يا ابن عدى

فأجابها العبد بهدوء رهيب كهدوء الموتى. نعم عاصفة

فسأله فهمى قائلا وعلامات الارتباك ظاهرة عليه. وهل من خطر علينا

فلم يجيبه العبد لانشغاله بتهدئة ثائرة الجملين فأعاد فهمى السؤال. فهز العبد كتفيه وقال. يجب الحذر على كل حال. فأنى أرى علائم تنذر بشدة هذه العاصفة ومع ذلك أنظرا . . : فرأيا التراب الذى اشار اليه العبد يتطاير من فوق الصخور التى جلسا تحتها واخذت بعض حبات من الرمال ترتفع فى ذلك الجو الساكن وتزايدت سرعتها فدل ذلك على مبلغ ماستكون عليه العاصفة من الشدة فقال فهمى لم يبق مجال للشك فى هبوب العاصفة

فقالت زينب للعبد. ماذا يجب ان نصنع

اجابها على الفور. الاصوب ان تركبا الجمال قبل ان تشتد ثورة العاصفة وتحت

السير حتى نحتمى عند مرتفع من الارض فسوف تهب العاصفة بعد مضى برهة وبعدما يأتى سيل جارف يملأ هذا السهل ويجرف كل ما فيه

فقال فهمى بعزيمة قوية وهو يركب ظهر الجمل مقتديا بزينب التى نفذت كلمات العبد

ـ هيا الى الامام قبل ان نموت غرقى

ثم ساروا جميعا ولقد اسرعت بهما الجمال يدفعها الخوف والوجل . . : .

وهبت الريح عاصفة فجأة واخذ النهار تظلم جوانبه وكانت السماء اشد ظلمة من الجو فصاح العبد قائلا وهو يشير بفرح الى ارض عالية من الصخور

ـ هذه سلالم محفورة فى الصخر تسلقوها كى ننجو فقد ازفت الآزفة

ولم ينتبه فهمى وزينب بادئ الامر الى صيحته وكلماته لانهما كانا فى راقبة السماء وقد ابرق البرق فى هذه اللحظة واوعد الرعد وتجاوب الفضاء صداه

وبدأت السماء تمطر نقطا غليظة . . وكانت العاصفة . وما مضت لحظة حتى كانت ملابسهم لاصقة بأجسامهم من المياه واخذ منهم الذعر مأخذه وشاء الله الا ان يهيئ له مكانا يلجؤن اليه فلم ينتبهون الا وفهمى يصيح بفرح شديد قائلا .

ـ لقد نجونا

وذلك انه راى ثغرة واسعة جداً فى جانب الصخر فشد راحلة زينب نحوها وكانت الجمال تتسلق الصخور باكثر مهارة من البغال وغيرها . وبعد بضع دقائق كانوا داخل الكهف فى مأمن من الخطر حيث اخذ السيل ينهمر محدثا ضوضاء شديدة . وظل الرعد يدوى بلا انقطاع على ازاشد منه كان دوى الصخور الصغيرة التى استاصلتها المياه فقد كانت تنهار دفعة واحدة ولا تمضى بضع ثوان حتى تذوب وسط التيار المندفع

ومكثوا فى كهفهم مدة من الزمان صامتين يتبادلون الانظار : واخيراً بعد ان هدات العاصفة وذهب السيل بما حمله من الصخور والرمال والاحجار واشرقت الشمس ودخلت خيوطها الذهبية الى الكهف حولت زينب نظرها الى العبد ونظراتها تطفح حنانا وقالت بصوت عذب به رنة من الالم والاسى

ـ اشكرك فلولاك لذهبنا غرقى ضحية هذا السيل

لم يستطع العبد ان يجيبها على شكرها بكلمة واحدة ولكن ملامح وجهه

كانت أبلغ من اللسان ولم يسعه الا أن يشير عليهما بالمكوث فى مكانهما حتى غروب الشمس ثم يستأنفوا السير ليلا . . فخضعا لارادته وما اختفت الشمس بوهجها النارى بين جموع الغيوم المتلبدة حتى شدوا الرحال وأخذوا يسيرون ليلا ويستريحون فى احدى الوهاد نهاراً وفى النهاية وبعد مشاق كثيرة وأخطار جمة وصلوا مدينة الخرطوم فى صباح احد الايام فكان فرح زينب لا يوصف بقرب لقاء أهلها وخلاصها من أسر المهدى ورجاله الاشقياء . وبعد أن ساروا فى المدينة زهاء الساعة وصلت زينب الى دار أهلها الواسع الارجاء وكانت بين أيدى والدها الذى تخلص من المهدى بأعجوبة وعاد الى بلده حزينا على فقد ابنته فأخذ يقبلها بشوق شديد ودموع الفرح تتساقط على لحيته البيضاء وبعد أن هدأت نفسه سألها عن ذلك الرجل والعبد اللذان يصحبانها فاسرعت زينب الى فهمى وقادته بيده الى والدها قائله

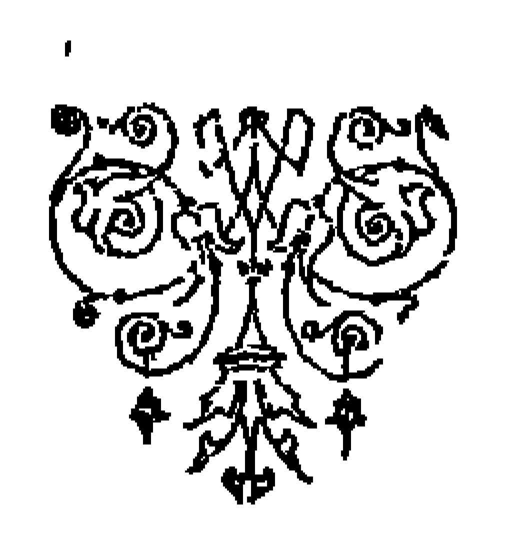
ـ أقدم لك منقذى يا ابتى . الذى لولاه لما رأيت وجهى الى الابد . وكثيراً ماعرض حياته للاخطار من أجلى

قالت ذلك وأشارت الى ابن عدى قائله

ـ ويرجع الفضل لوصولنا هنا الى ابن عدى الذى كان دليلنا لعلمه بطرقات جميع الاماكن

فمد الشيخ عبد الغنى سلام يده الى فهمى وقبله بين حاجبيه وكذلك صافح العبد الذى كان يبكى متأثرا مما شاهده من استقبال الرجل لابنته وهرولت النساء اليها وفى مقدمتها والدتها . فكان منظراً من أبهج المناظر وأبكاها

وهكذا نزل فهمى افندى ضيفا على والد زينب التى ألحت على فهمى بعدم الذهاب الى المعسكر المصرى حتى تظهر النتيجة التى وصل اليها المهدى فى حروبه . فخضع لحكمها ولكن على مضض منه . .



الفصل الحادي عشر

لوسى فى الخرطوم

عندما فشلت حملة بيكر فى سواكن قررت الحكومة الانجليزية إرسال قوة عسكريه لقهر عثمان دقنه رسول المهدى الى شرق السودان وفتح الطريق بين بربر وسواكن وعهدت بقيادة هذه الجنود الى الجنرال جراهم فوصلت هذه الحملة الى سواكن وكانت مدام فهمى ضمن هذه الحاشية كما قدمنا ذلك فمكثت لوسى فى سواكن تبحث عن دليل ليقودها الى الخرطوم وبعد بضعة أيام أبحرت الحملة من سواكن الى ترنكيتان

على ان المصائب التى حلت بالحملتين اللتين سبقتاها دعت الجنرال جراهم لاخذ الحذر وعدم الاغترار فسار بجملته عن ترنكيتان قبيل الظهر ورافق بيكر باشا الجنرال جراهم

أما عثمان دقنه فقد تحصن التيب واحتفر خندقا صغيراً أحاطه بمتاريس وضع عليها مدافع الكروب التى غنمها من الواقعتين الاولتين ولكنهم كانوا بلا مؤخرة تحفظهم من الخلف فكانت هذه الغفلة مما شجع الجنرال جراهم فتقدم هاجما على العدو وكان ضمن رجاله جنود الذين شهدوا واقعة بيكر باشا فجبنوا ولم يثبتوا فى الدفاع وولوا الادبار . وكانت مقذوفات العدو ومتواصلة ومع ذلك لم تجاوبها مقابل الجنرال جراهم وأخيرا تقدمت الحمله حتى صارت على بعد ميل واحد من حصون العدو الذى كانت نيرانه وقنابله شديدة جدا عليها وهناك أخذت نيران الحملة وقنابلها ومترليوزاتها تجاوب مقذوفات العدو وكان أحد جوانب الحملة عرضه لمقذوفات العدو فأراد القائد إبدال شكل المربع بطريقة تصير الاضرار خفيفة فلم يفلح وجرح كولونيل انجليزى فاغتنم عثمان الفرصة وزحف بخفة غريبة ثم اشتبك مع الحملة وصار القتال بالسلاح الابيض وبعد بضعة ساعات انفصل الجيشان ووضعت أوزار الحرب وخسر عثمان نحو ثلاثة آلاف قتيل وتقهقر الى (طوكر) وتابع الجنرال جراهم مسيره متأثرا له فلم يصادف مقاومة فى طريقه .

وكان عثمان يقصد من هذا التقهقر أن يغتر الجنرال ويتأثره فاذا توغل فى الغابات وأدرك جنوده بعض التعب يكر عليه ولكن الجنرال أدرك الحيلة وقفل

راجعاً من طوكر ولم يتأثر العدو وقتل بكباشى انجليزي وجرح بيكر باشا

وكانت مدام فهمى أثناء ذلك قد وجدت لها دليلا أميناً عالماً بمسالك السودان وأخذ على عاتقه أن يوصلها الى الخرطوم بأقرب طريق وأأمنه بينما هى تتهيأ للسفر مع الدليل واذا بحملة جراهم تعود الى سواكن فلم يثنها فشل الحملة عن عزمها وسارت فعلا على بركة الله وبعد ان كابدت أهوالا كثيرة وصعابا لا محل لذكرنا وصلت الى الخرطوم قبل حصارها بيومين وتوجهت تواً الى سراى الخرطوم بعد أن امرت دليلها بالبحث عن رجل تاجر اسمه الشيخ عبد الغنى سلام . وقابلت غردون باشا فى السراى وقدمت نفسها اليه فاشتاء لحضورها فى مثل هذه الظروف العصيبة إذ أنه علم بقدوم جيوش الدراويش فكان امله عظيم فى قدوم حمله جراهم لمساعدته ولكن مدام فهمى اخبرته بان الحملة لا بد من فشلها اذا عزمت على القتال مع الدراويش وأخبرته بهزيمتها امامهم وعدم استطاعتها التقدم فضاعف هذا الخبر من احزان غردون باشا

وفى غضون ذلك وردت الاخبار الى القاهرة ولندن بقطع الاسلاك التلغرافية بين الخرطوم والقاهرة وشرع العدو يحاصر الخرطوم فقررت الحكومة الانجليزية بعد أن تأكد أن المهدى غير كل شيء نحو سياستها فى السودان وخشيت أن يتملك السودان بقوته فأمرت الجنرال جراهم بالحملة على عثمان دقنه واختراق الصحراء للوصول الى بربر

وكان لعثمان دقنه عيون فى داخل سواكن يبلغونه كل أخبار الحكومة ونواياها فلما سمع هذا الخبر سر به وعزم على عدم مقاومة الحمله بالقرب من سواكن واخلاء الطريق لها حتى تتوغل فى الصحراء وهناك يثور فى وجهها ويتمكن من إبادتها

فلما خرج الجنرال كان على حذر شديد وتقدم فى الصحراء مسيرة يوم وليله ثم علم بحقيقة ما دبر له وعلم انه تابع مسيره كانت عاقبته لا تختلف عن مغبة حمله الجنرال هيكس باشا فصمم على العودة الى سواكن قبل أن تطرأ ظروف تجعل السلامة فى خبر كان فعاد ولم يصادف كيداً فى ذهابه او إيابه

فلما سمع عثمان عودة الجنرال اسرع اليه ليهاجمه قبل أن يبلغ سواكن فلم يفلح وبلغت الحمله مأمنها سالمه غير ظافرة بشيء مما كانت تتوق اليه وبهذه الحمله ختمت

روايه الجنرال جراهم حيث غادر سواكن وانصرفت أميال الحكومتين المصريه والانجازيه على فتح الطريق بين سواكن وبربر واصبح الامل ضعيفاً من اسعاف غوردون وامداده من جهة السودان الشرقى حيال ما أظهره عثمان دقنه من القوة والبسالة اللتين أدهشتا العالم أجمع وشددت عزائمه وقوت أمله فى الاستيلاء على الخرطوم

وفى غضون ذلك كانت القبائل التى حول بربر رفعت رأسها للثوره وسقطت بربر فى يد المهدى والخلاصة ان جميع حركات الجنرال جراهم لم تعد بأقل فائدة بل كانت تقوى ساعد العصاة بما غنموه من الاسلحة والذخيرة

وانسحبت الحملة من سواكن بكل عساكرها ولم يترك الجنرال غير مائتين منهم ليقوموا بحراسة المدينة مع السفن الانجليزية

***

كل شىء فى هذا العالم خاضع للطبيعة تتحكم فيه نواميسها فلكل كائن حى فى الحياة قانون طبيعى يدير حركته ويقف سداً فى وجه من يريد تحويله عن السير فى منحدره . ولما كانت الرأس الانسانية كائنة فمن البديهى ان يكون لها وعليها ما لسائر الكائنات . أى أن يكون لها قوانين خاصة تعينها على الحياة كاملة طيبة فى دائرة هى دائرة الحقيقة كما تكون عونا لها على منازعة ما يخالفها .. خلاصة هذه القوانين وزبدتها وعنصرها الفعال انما هى الارادة فكل ما يتعلق بالانسان من الماديات والمعنويات من المعقولات والمحسوسات تنموا وتتكامل فى هذا البناء الرصيد بناء الارادة

وهكذا كان شأن دولت طول هذه المدة . فقد يئست من الحياة بعد أن انقطع كل أمل فى وصول أخبار من جهة خطيبها وكذلك ابن عمها الذى لم يكن لها سواه بعد أبيها وكثيراً ما حاول أبوها ان يحولها عن اتجاه فكرها ولكنه لم يفلح امام إرادتها القوية وحبها المتين لخطيبها . وكثيراً ما كانت تجلس على ذلك المقعد فى الحديقة والذى مثل عليه اسماعيل معها روايته المؤلمة فى تلك الليلة التى لم تنساها والتى كلما تصورت ما ارتكب فوق هذا المقعد تتصاعد الدماء الحارة الى وجهها وكانت تقول «لعمرى ان لم ينجه الله ويأتى فيتزوجنى كان مصيرى الى الهلاك . والا فالعار لاحق بى وبوالدى المسكين» ومع هذا كانت تأمل خيراً كلما رفعت رأسها

الى السماء ورأت القمر كما هو فى تلك الليلة ساكن هادىء والطبيعة تحتاط به من كل نواحيه فيداخلها الاطمئنان ويخالسها السرور . جلست دولت أمام فراش والدها الذى حول رأسه اليها ببطء ومد ذراعيه النحيلتين وقال : اقتربى يادولت ياأعز البنات

فنهضت اليه وهى تفيض حنانا قائلة . أتريد شيئاً ياأبى ؟

ـ كلا ولكنى لاحظت عليك تغيراً كثيرا وأرى على وجهك صفرة لم أكن أعهدها من قبل .. وإنى أعيذك يا ابنتى من الجهل أن يهبط بك الى قرار القنوط

فاجابته وهى تداعب مابقى من شعر رأسه بعد أن أدركت ما يريد قوله

ـ ماذا تقصد بقولك هذا ياأبى ؟ إنما ذلك ما ظهر على نتيجة ضعف تولانى بعد ان اصبت بمرضك وليس هناك فى العالم شخص اهتم له اكثر منك

فقبض على يدها بهدوء وقد فاضت عيناه بالحنو الأبوى فأجاب

ـ شكرا لك . ولكنى اريد ان أقول لك وانا على فراش الموت .. فقاطعته دولت بجزع شديد قائلة : لاتذكر ذلك بالله ياابتى

ـ اشعر بذلك - ان الموت ليس ببعيد على احد وها أنا قد بلغت من الكبر عتيا وتخرجت من مدرسة الزمن التى يدرس فيها علم النفس والوصول الى الحقيقة لذلك اريد ان اصارحك بما يجول فى فكرك والذى اخشى عليك التلف منه فأكون قد قمت بآخر واجب اقوم به نحوك

فأرادت دولت ان تقاطعه فأشار اليها بالصمت واستمر فى حديثه قائلا

اعلم يقينا بأنك حزنت على ذلك النبأ الذى وصل الينا بقتل حملة هيكس . ولكنه لم يصل الى الآن ما يفيد عن اسماء الضباط الذى قتلوا والذين نجوا فأتمنى من الله وانا على سرير الموت ان يكون نهمى ابن اخى واسماعيل افندى ضمن من انجاهم الله . اما اذا قدر لاحدهم او لكليهما الموت لاقدر الله فسيكون عزاؤنا الوحيد هو اذهاب ارواحهم فى الدفاع عن الوطن . وفى تلك الحالة واجب عليك ان تعتصمى بالصبر ولاتستسلمى للاحزان لكل شىء نهاية حيث يتبدل حزنك فرحا وترحك مرحا

وكانت دولت اثناء حديثه مطأطئة الراس ودموعها تنهال من مآقيها فاجابته هى مختنقة بالبكاء . لعمرى انى لاأكون الاحيث احدك انت

ماكادت تنتهى من جملتها حتى فتح الباب فجأة ودخلت منه حوريه وعلى وجهها

شحوب الالم وهرولت الى سرير المريض وقبلت يده قائلة
- أرجو أن تكون بخير يا عماه
أجابها : أحمد الله على كل حال ... وكيف صحة زوجك ؟
- لم يطرأ عليها تحسن . لذلك تجدني جزعة عليه خصوصاً بعد ان فقد النطق
فأجابتها دولت وهي تقدم لها مقعدا : كم هو مسكين
فتنهدت حوريه قائلة : والله لست أدرى معنى لكل ذلك فالاقدار تعاكسنا من كل نواحي الحياة .. ثم انه همست في اذن دولت قائلة .
- لدى نبأ هام . اريد أن احدثك به على خلوة ..
فخفق قلب دولت وحولت نظرها الى ابيها فوجدته قد اغمض عينيه وابتدأ النعاس ان يستولى عليه بعد ان هجره ثلاثة ايام ثم سالتها حوريه بصوت منخفض قائلة : اى نبا ؟
- يجب ان تكون على انفراد ...
فنهضت دولت بكل هدوء كى لا يشعر ابوها بخروجها من الغرفة وسارت على اطراف اصابعها وتبعتها حوريه وخرجنا الى غرفة ثانية حيث ارتمت حوريه على المقعد قائله . لقد رايته اليوم
- من ؟ - خطيبك اسماعيل افندى
فازداد وجه دولت اصفرار حتى خشيت على نفسها السقوط بعد ان شعرت بان قلبها يتمشى بين ضلوعها فجلست على المقعد المجاور لحوريه قائله اسماعيل . رايته ... - نعم ..
- اين .. ؟ ربما اخطا نظرك فلو كان هنا في القاهرة لما تردد لحظة واحدة في المجيء الى هنا .
- ان نظرى لم يكذبنى قط . فقد رايته بعيني وهو مرتد ثيابا ملكية وكان مع فتاة في عربتها بينما كنت قادمة اليك
- انا لا اظن ذلك مطلقا
- وانا أؤكد لك ذلك : وفوق ذلك فقد عرفت هذه الفتاة التي كانت تصحبه
فنفذ صبر دولت وصاحت بجزع : اسماعيل هنا ؟ ومعه فتاة تعرفينها
فاجابت حوريه بسكون : وانت تعرفينها ايضا ..

ـ من ؟ ـ هى نجيه ابنة اليوزباشى حسن افندى كريم

فصاحت دولت وقد جحظت عيناها وسمعت ضربات قلبها

ـ ترى أى شأن له معها . إنى لا أصدق ذلك ..

فوضعت حوريه ساقها فوق الاخرى وقالت : إذا لم تصدقى كلامى فهيا نذهب سوياً الى منزل نجيه بقصد زيارتها

فنهضت دولت للحال قائلة : هذا أفضل عمل نقوم به الآن

وعندما ذهبت دولت لترتدى ثياب الخروج حدثت حوريه نفسها قائلة . كم هى مسكينة دولت . لقد أنساها غرامها فلم تسأل عن ابن عمها فهى آه .. فهى .. ترى ماذا حل بك ؟ . ولم تمض دقيقتان حتى دخلت دولت مرتدية ملابس الخروج وقالت وهى ترتعد

ـ برهة وجيزة ياحوريه حتى استأذن من أبى

ودخلت غرفة أبيها على أطراف اصابعها وألقت نظرة عليه فرأته يهذى بكلمات غريبة لم تفقه كلمة منها فلم تشأ ان توقظه وفضلت الخروج للاستطلاع عن اسماعيل تاركة ابيها تنتابه نوبات الحمى الخبيثة . وخرجت الى حوريه وتركتا المنزل بعد ان اخبرت الخادم بأنها ستعود حالا ... ومن ثم امرت حوريه سائق عربتها بالتوجه على جناح السرعة الى منزل نجيه هانم بالجزيرة فالهب السائق ظهور الجياد فسارت تسابق الريح حتى اوقفها امام باب حديقة المنزل المذكور فكانت دولت الاولى فى النزول وقد ساورتها الوسواس وداهمتها الظنون فدخلت الحديقه تتبعها حوريه وماكاد يتوسطان الحديقــة حتى لمحت دولت وحوريه اسماعيل جالسا فى نهايتها بجانب نجيه فرابها من امره مارابها ولـكنها بدافع قوى اسرعت الخطى نحوه وقد ظنت فى تلك اللحظة انه اتى من السودان ولم يتمكن من المجىء اليها بعد وخيل اليها بانه سيفتح ذراعيه بمجرد رؤياها ويضمها الى صدره طويلا .. ولـكن لم يحدث شيئاً مما كانت تظنه . واقتربت منه قاب قوسين او ادنى وما كان اكثر دهشتها عندما وقع نظره عليها وحول رأسه الى الجهة الثانية بينما نهضت نجيه لاستقبالها على زعم انهما أتيا ليهنئاها بالزواج الذى تم دون ان تقام لدلالة شعائر الافراح حسب ارادة زوجها اسماعيل وابيها فهرولت نحوهما وقبلت حوريه وهمت بان تقبل دولت الا انها وقفت مبهوته عندما رأتها واقفة كالصنم تحدق النظر فى اسماعيل

ووجهها شاحب كوجه الاموات وعندما رأت حوريه ذلك وضعت يدها على كتف دولت وقالت : كفى يادولت وهيا لنعود

فاستيقظت دولت من سباتها العميق بعد أن أدركت أن فى الامر سراً فقالت تخاطب نجيه وهى تشير الى اسماعيل . ماشأن هذا الرجل عندك ؟

فاجابتها نجيه وهى توجس خيفة : أى رجل تعنين ؟

ـ هذا . الجالس هنا ..   ـ انه زوجى

ـ ومتى تم هذا القرآن . فنهض اسماعيل بعد أن ضاق صدره وصاح فى وجه دولت قائلا : لماذا تسألين هذا السؤال ياسيدتى

فحملقت دولت فى وجهه بينما همست حوريه فى اذن نجيه قائله

ـ إنه خطيبها منذ زمن بعيد . ولقد أحبها وأحبته ووعدها بالزواج فالتمس منك ان تجدى لها عذراً فى تصرفاتها هذه

فامتقع وجه نجيه وقد أدركت حقيقة الموقف وسمعت اسماعيل يخاطب دولت قائلا . أجيبنى . لماذا تسالينها هذا السؤال

فاجابت دولت والدمع فى عينها محبوساً

ـ اسماعيل .. عد الى نفسك . واعلم أن لى الحق فى سؤالى هذا

ـ انني لم أتشرف بمعرفتك قبل الآن . فمن أنت

فطار صواب دولت وقالت هى تشد ازارها بيدها . ألا تعرفنى . أتنكرنى الآن   ـ نعم . لا أعرفك

ـ الم اكن خطيبتك . انسيت الآن . هذا جزائى منك ياسارق ...

وهنا توقفت عن الكلام كى لا تخجل نفسها امام حوريه ونجيه حيث قال اسماعيل لنجيه . يظهر ان هذه الفتاة بها مس من الجنون وانا لا يسعنى الا ابداء اسفى لذلك . فصاحت دولت صيحة منكرة وقامت نورة نفسها فلطمته لطمة قوية على وجهه قائله . انت نذل . جبان

فهم ان يقابلها بالمثل ولكن حوريه ونجيه توسطتا بين الاثنين وقالت له حوريه بشىء من التهكم . اهل من الشهامة ان تتجاسر على فتاة

وقالت نجيه وهى تفيض شفقة على دولت وحقدا على زوجها التى كانت تمقته من يوم زواجها به . خير لك ان تذهب من هنا الآن

فأجابها وهو مطأطىء الرأس ـ حسنا . سأفعل

وسار بخطوات بطيئة وعندما رأت دولت اسماعيل تاركها تذكرت أن شرف اسمها وعائلتها موقوف عليه فمدت يديها اليه كمن تتسول فى الطرقات وانهمرت الدموع على وجنتيها الشاحبتين قائله

ـ اسماعيل . هذا صحيح .. تذكر ... تذكر

ولكن اسماعيل كان قد اختفى من امامها سريعا فخرجت منها صيحة مفزعة ووقعت بين ايدى صديقتها حوريه لاتعى على شىء فارادت نجيبه ادخالها الى قاعة الجلوس حتى تفيق ولكن حوريه أبت ذلك واكتفت بقليل من الماء مرت به على وجهها فانتبهت قليلا بحالة يرثى لها فأسندتها حوريه على يديها وسارت بها الى العربة بعد ان ودعت نجيبه التى قالت وهما يركبان العربه

ـ لابد وأن يكون هذا الزوج المحترم الذى جاء به ابى رغما عنى قد خدعها

ثم انها توقفت عن السير وشردت بفكرها قليلا ثم رفعت رأسها قليلا وصاحت منادية . فاضل . فاضل ..

وما كادت تنتهى من مناداتها حتى كان فاضل سائق عربتها واقفا بين يديها فبادرته قائلة . قلت لى أمس انك قابلت فؤاد افندى

ـ اجل فقد كان سائرا كعادته من امام باب الحديقة ثم أشار الى وقال والتأثر ظاهر عليه . هل تزوجت سيدتك يافاضل . فاجبته . نعم . فقال

ـ اظنها لاتستطيع مقابلتى بعد زواجها

فقلت . هذا الامر يرجع اليها . سوف اخاطبها ..

فاجابته نجيبه قائلة . عندما يجىء فى ميعاده . اى بعد خروجه من المدرسة قل له ينتظرنى فى منزله فساوا فيه هناك كسابق عادتنا . فانحنى امامها فاضل وهو يبتسم وقال وهو ينصرف سوف أنبئه بذلك ..

ثم عادت نجيبه الى داخل المنزل وهى تقول فى نفسها دقة بدقه... ان الزوج الفاسق لايصلح اعوجاج المرأة بل يكون سببا فى تدهورها

اما حوريه ودولت فقد عادتا الى المنزل بعد أن أفرغت حوريه كل مافى جعبتها لتسلية دولت ناصحة لها بنسيان هذا الغرام فلم تسطتع الوصول الى قلب دولت المسحوق على مطامع اسماعيل الشهوانية فعندما دخلتا المنزل اذا بالخادم مسرعا

نحوها وقد بدت عليه علامات الذعر الشديد وقال لدولت

ـ سيدتى .. ان سيدى فى حالة سيئة جدا بعد ان خرجت ببضعة دقائق وهو يسأل عنك . فنسيت دولت كل شيء وهرولت جريا الى غرفة ابيها فاقتحمت بابها حيث وجدتها فى حالة سيئة وقد خرج الزبد من شدقيه وهو يسيل سعالا شديدا فصرخت قائله . أبى .. أبى .. ماذا حل بك ..

فحملق ابوها فى وجهها واستلقى على قفاه ورفع يده اليها وأمسك بيدها وكان السعال . قد فارقه نوعاما . ولم يحول نظره عنها فرأت ان وجه ابيها يكفر شيئاً فشيئا وأحست بالبرودة فى يده فارتعدت وصرخت للمرة الثانية قائله . أبى .. كلمة واحدة ... أبى

وكانت حوريه واقفة عند رأس السرير فعرفت للحال ما سيؤل اليه امر المريض فحاولت ان تجذب دولت اليها ولكن يد والدها كانت قابضة عنها واستطاع ان يجذب ابنته اليه وان يحرك يده الثانية فيطوقها ويضع على جبينها قبلته الاخيرة مات والدها بين يديها وهى لا تشعر حتى احست بجسمه الهامد ووقوف الحركه فيه فهزته اليها فلم يتحرك فعلمت الحقيقة فأبقت بنفسها عليه وهى تصيح

ـ أبى .. أبى .. لقد فقدت اعز الناس عندى بفقدك

واخذت تشق ملابسها وتلطم خديها وعلا صياحها وصياح حوريه معها : وبعد مضى برهة كانت جثة خليل افندى ممددة وسط الغرفة وحولها النساء يبكين طيبته ويندبن حلو معاشرته

اما دولت فقد كان البكاء عليها اكثر من البكاء على ابيها فقد اثر فيها فقد والدها فى اليوم الذى صدمها فيه خطيبها اسماعيل . تلك الصدمة التى ضيعت كل امل لها فى الحياة بعد فقد شرفها على مطمع شهواته ..

الفصل الثانى عشر

« مقتل غوردون باشا »

بعد ان اقرت وزارة نوبار باشا على فصل السودان عن مصر كما ذكرنا ذلك فيما سبق رحل غوردون باشا الى الخرطوم بأوامر عالية خلاصتها ما يأتى .

أولا ـ ان يسحب الموظفين المصريين وعائلتهم واموالهم من سائر انحاء

السودان الى مصر

ثانيا - ان يقيم مقامهم موظفين من اهل السودان يدير شؤونهم بحكمته كانه يؤسس دولة جديدة

ثالثا - ان يجمع كلمة القبائل المجاورة للخرطوم ويحركها على قبائل الهدندوة فى السودان الشرقى فيفتح الطريقين بين بربر وسواكن . وبربر وكسلا .

رابعاً - ان ينفذ سنار وسائر البلاد والواقعة بين النيلين الازرق والابيض

خامساً - ان يرسل خمسة بواخر لنقل عائلات الجنود المصرية فى مديريات خط الاستواء وبحر الغزال

سادسا - ان يدبر طريقة لمن بقى فى دافور ان ينسحبوا الى مصر عن طريق دنقلا

وكان غردون باشا قد تدبر أمر مهمته هذه فرأى ان ترك السودان وشأنها بعد اخلائها يعود بالوبال بعد أن علم بحركات الدراويش وانتشار دعوة المهدى وانضمام معظم القبائل اليه مما جعله يقلب سياسته فأصدر منشوراً يتوعد فيه الثائرين بعذاب أليم وينصح لهم أن يثوبوا الى طاعة الحكومة ولكن المهدى ورجاله لم يعبأ ولمثل هذه الافعال بل أسكرتهم خمرة الانتصار حتى اذا ما جاء شهر رمضان المبارك رأى المهدى بعد الحاح رجال القبائل عليه فى الهجوم على الخرطوم فادعى كجرى عادته فى كل عمل يعتزم القيام به أنه قد أوحى فى الرؤيا « حضرة النبى ﷺ » أن ينزل لمحاصرة الخرطوم فامر رجاله بذلك. فزحفوا برجالهم وأحمالهم وأثقالهم ودوابهم فضربوا نقاراتهم وساروا حتى أشرفوا على الخرطوم فعسكروا هنالك تحت راية التعايشى . ثم أمر المهدى أن يحدق جنده بالخرطوم ويشددوا الحصار عليها

وبعد مضى مدة استطاع أن يفتح طابية أم درمان فى البر الغربى وذلك فى ١٥ يناير سنة ١٨٨٥ وهى أول طابية فتحوها من حصون الخرطوم بلغت قوة الدراويش ما يقرب من السبعين ألف مقاتل

أما غردون فلم يقض فى الخرطوم شهرين حتى نفذت النقود من خزينتها فصطنع نقوداً من الورق بفئات متفاوتة يتعامل بها الناس الى أجل مسمى

على أن ذلك قلما خفف من ضيق أهل الخرطوم ونزلائهم فانهم ما انفكوا يشعر الضغط يوما بعد يوم والحصار يزيدهم تضييقا حتى أصبحوا محاطين بالعدو من

كل جهة وقل زادهم فجاعوا وغوردون يصبرهم ويعدهم بقرب وصول الحملة الانجليزية التى أرسل بطلبها من انجلترا لانقاذه والتى تأخرت كثيراً عن موعدها فمل الناس الانتظار واشتد الجوع حتى أكلوا لحوم القطط والكلاب ومضغوا سعف النخل وجذور الذره

هذا وكانت الحكومة فى مصر ساهرة على الثورة فى السودان وترقب حركاتها بكل اهتمام وكان غوردون يطلع دولته «انجلترا» على أحواله تفصيلا الى ان سدت طريق مصر وخيف على حامية بربر فندبت انجلترا الكبتن كتشنر واللفتننت رندل وكانا كلاهما من ضباطها النجباء الموظفين فى الجيش المصري وامرتهما بالذهاب الى بربر ولكنهما لم يفلحا وبقيا فى كورسكو ولكن كتشنر تطوع للذهاب الى دنقله واستجلاء حقيقة الثورة فيها ووصلا فعلا واراد الاشتراك فى الحرب مع مصطفى باشا ياور ضد الدراويش فرفضت الحكومة المصرية طلبه فبقى فى الدبة

واخيراً قررت الحكومة الانجليزية ارسال حملة منظمة لانقاذ غوردون واناطت قيادتها العامة باللورد ولسلي وقامت تلك الحملة التى كانت تصل اخبارها الى المهدى اولا بأول فأرسل اليها بعض الثوار لمحاربيها وتعجيزها فى الطريق وحصلت وقائع كثيرة بينها وبين الثوار كان الانتصار للحملة بعد ان خسرت جملة خسائر ورجال وتمكنت من الوصول الى ضفة النيل فعسكرت هناك ثم رحلت الى قرية جنوبى المتمة يقال لها انقبه

وكان غوردون قد أنفذ لملاقاة تلك الحملة أربع بواخر ليستعينوا بها للوصول الى الخرطوم وبعث يقول لهم « انكم اذا لم تصلوا الينا فى بضعة أيام ذهبنا هباء منثورا » ولكن الحملة مع ذلك تلكات فى الطريق وركبت رجالها فى باخرتين لم تصلا الخرطوم الا بعد فوات الوقت كما سيجىء ذلك فيما بعد حيث عاد السير شارلس كاسف البال

احتاطت جيوش المهدى بالخرطوم وأرسل هذا الى غوردون باشا الخطاب الآتى ننشره بحرفه

« بسم الله الرحمن الرحيم . وبعد فمن العبد المفتقر الى الله الواثق بما عند مولاه محمد المهدى بن عبد الله الى غوردون باشا

إعلم أنى حضرت من ام درمان بجيوشي المنصورة وأصحابى وأحبابى فى

المؤيدين بالنصر من عند الله وكن على يقين أنى على علم من حضور عساكر الانجليز بجهة دنقلا ولكنى لست مباليا بهم ولا بغيرهم بفضل الله وسيكون لهم أسوة بجيوش هيكس وغيره ولا تغرنك نصرتك المتوالية فكل من استشهد بها فهو عن أمرى رأفة بهم لينالوا درجة الصالحين تصديقا لقوله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل احياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ان لاخوف عليهم ولاهم يحزنون) ولولا مراعاة حسم دماء المسلمين لضربت صفحا عن مخاطبتك وبادرتك بالهجومات التى لاشك فى نجاحها فسلم تسلم ومن معك فقد نصحتك وانصحك والا فالحرب بعد ذلك والسلام على من اتبع الهدى محمد المهدى

وعندما وصل هذا الخطاب الى غوردون باشا ارغى وازبد وارسل له الكتاب الآتى

لست ابالى بك ولا بجيوشك وليست العساكر الانجليزية بجهة دنقلة كما تزعم تضليلا لعقول انصارك واغيا أنهم بطلب المستحيل بل هم بجهة بربر والمتمة وسترى مايحل بك وبجيوشك من النكال بل اذا لم يأتوا فى الكفاءة لان اعرفك قدرك ولا تغرنك كثرة انتصارك فالبغى له مصرع والسلام

غوردون باشا

فقرأ الخطاب فى حضرة المهدى وكان قد علم من جواسيسه ان الحملة الانجليزية استطاعت ان تشتت شمل الدراويش الذين ذهبوا لقتالها وانها قادمة فى طريقها الى الخرطوم فبعث الى القوات المحاصرة يقول لهم (انه علم بالوحى ان الله قد جعل أرواح أهل الخرطوم فى قبضته)

وأمر الجميع بالهجوم تحت جنح الظلام مع الهدوء والسكينة حتى يأخذوا القوم على حين غفلة

فى مساء ليلة الهجوم كانت مدام فهمى (لوسى) تسلم الشيخ عبد الغنى سلام الخطاب الذى سلمه لها أحمد بك فى مصر. وقد كابدت مشقات كثيرة فى الوصول الى صاحب الخطاب مع دليلها الامين. فقابلها الشيخ مقابلة حسنة وأجلسها على مقعد مستطيل مصنوع من (الجريد) وعليه فراء الوحوش المفترسة وبعد أن شربا الشاى فتح الخطاب فوجده مكتوبا بالرموز التى كان يتراسل بها مع احمد بك وغيره من

كبار التجار وذلك حفظ السر مهنتهم فأخذ يعالج الرموز وأخيرا اقرأ الآتى

صديقى العزيز

أحييك تحية صادقة. وبعد فلى مع حامله خطابى ومع زوجها الذى كان مع حملة هيكس وجاءتنا الاخبار بذبحها ثأر شديد لا يمحى الا بالدماء فاذا كان موجودا هذا الزوج السارق لعرضى اقتله كى تستريح عظامى فى قبرها إن مت والا فاقتل زوجته هذه. واسم زوجها فهمى افندى على ضابط برتبة ملازم أول. ومنى اليك الف سلام وتحية صديقك

احمد

وبعد ان فهم الشيخ مغزى الخطاب رفع عينيه الى لوسى فوجدها متهمكة فى أكل التمر الذى قدم لها فانتهز هذه الفرصة وأخذ يتفرسها جيدا حتى اذا ما حولت عينيها اليه ورأته مصوب نظره اليها توقفت عن المضغ وقد داخلها الرعب فطلبت من دليلها الذى يتقن لغتها قليلا من الماء جىء بها حالا وبعد ان استقر الماء فى جوفها قالت للدليل ان يقول للشيخ انها تريد البحث عن زوجها المفقود فهل فى استطاعته عمل شىء لها فنقل الدليل هذا الامر حيث كان الشيخ يبتسم له واخيراً قال له

ــ قل للسيدة اننا سوف نساعدها على ذلك بقدر استطاعتنا. ولاجل ذلك يجب ان تمكث هى هنا حتى نجده لها وعليك ان تنصرف انت فاخبرها الدليل بذلك فاستاءت جدا الذهاب الدليل وقالت له بحدة قل له يجب ان ابقى معها كى أستطيع ان نتفاهم سويا والا كنت وسطهم كالخرساء فقال الدليل للشيخ

ــ تقول السيدة انها تود بقاءى معها كى تستطيع ان تعرف كل ما يقال حواليها

فهز الشيخ راسه واجابه

ــ لا داعى لذلك فلدينا زوجا بنتا العزيزة وهو يعرف لغة هؤلاء الكفرة جيدا

قال ذلك وصفق بيده فجاءه خادمه على عجل فامره قائلا وهو يشير الى لوسى

ــ خذ هذه السيدة الى الحرم. وقدم لها طعاما مما هو مخزون عندنا حتى ننظر فى أمرها

فاقنعها الدليل بوجوب الطاعة وأدخل فى قلبها الاطمئنان من قبل الشيخ فرضخت للامر ونهضت تسير وراء الخادم حيث قبل الدليل يد الشيخ وانصرف وعند وصلت الى فناء الدار الفسيحة وجدت أمامها بابا واسعاً وعليه ستائر

تجريبية وبابا آخر لا يبعد عنه قليلا غير مغطى بشيء وطرق سمعها فى تلك اللحظة ضحكة نسائية من وراء الستائر ثم ظهرت فجاة صاحبة هذا الصوت بملابسها الثمينة وحليها الكثير وهى تعدو وفى يدها تفاحة ولم يلبث أن ظهر وراها شاب يعدو وراءها محاولا القبض عليها فتفرست لوسى فى المرأة والرجل وكأن صاعقة انقضت عليها فصاحت بملء صوتها قائلة

ـ فهمى . فهمى

وكان هذا الشاب فهمى زوجها يعدو وراء زينب الذى عقد عليها بعد مجيئه معها ببضعة ايام وما كاد نظره يقع على لوسى حتى نسى كل ما هو حوله وصاح بدوره وهو باسط ذراعيه

ـ لوسى .. لوسى ..

وهرول نحوها واخذها بين يديه فطوقته بذراعيها وهى تفحصه بعينيها كانها تتاكد انه هو واخذت تقبله قبلات عديدة قائلة

ـ احمد الله فقد عثرت عليك حيا . هذا ما كان ينبئنى به قلبى

فاجابها فهمى بفرح لا يوصف

ـ لقد نجوت من الموت . ولكن باعجوبة يالوسى .. ولكن ما الذى جاء بك الى هنا ؟

ـ جئت لابحث عنك .

ـ انك تحملت اخطارا جسيمة

ـ نسيتها بلقاك يازوجى المحبوب

واخذت لوسى تسرد عليه كل ماحدث لها والخطاب الذى اخذته من احمد بك والذى كان السبب الاولى للقياه فسالها قائلا

ـ احمد بك .. زوج حوريه ؟

ـ نعم . هو بعينه

فأوجس فهمى شرا من هذه الرسالة ولكنه أظهر عدم اكتراث كى لا يتسرب الخوف الى قلب لوسى . أما زينب فعندما شاهدت ذلك ورأت فهمى يحتضن بالمراة البيضاء ويقبلها وتقبله اظلمت الدنيا فى وجهها واوقفتها الغيرة التى شعرت بها كالصنم لا تتحرك ولم تنتبه من ذهولها الذى استولى عليها الا على صوت والدها حيث

دخل فناء الدار وراى فهمى زوج ابنته محتضنا بالفتاة فأدرك للحال ان هذا هو زوج المطلوب قتله فاسقط فى يده وحار كيف يفعل ولكنه تدارك الموقف وخاطب فهمى قائلا

- اهل تعرف السيدة ؟

فالتفت اليه فهمى والقى عليه نظرة عميقة واجاب

- نعم .

- هذا عجيب . ومن اين لك بمعرفتها

اراد فهمى ان يواجه الشيخ بالحقيقة كى يتسنى له معرفة ما فى الخطاب فأجاب انها زوجتى . .

وبدلا من ان يظهر على الشيخ الاندهاش والعجب ارتسمت على شفتيه الزرقاويتين ابتسامة شيطانية وقال

- زوجتك ؟ هذه من محاسن الصدف

فأجاب فهمى وقد وجد بابا للسؤال من الخطاب

- لقد اخبرتنى انها جاءت اليك بوصاية من احد اصدقائك لمساعدتها فى البحث عنى

- نعم وها هى قد عثرت عليك دون عناء

- وهل لى ياسيدى ان اقرأ هذا الخطاب

- انك لا تستطيع قراءته . لانه مرسل الى انا . فقط

وهنا تأكد لفهمى من نظرات الرجل ومن رفضه ان يريه الخطاب ان فى الامر سراً فيجب التيقظ والحذر . وفى هذه اللحظة سارت زينب بخطوات بطيئة والحزن بادعليها الى داخل الحريم حيث رمقها ابوها بعينه فشق عليه ان يرى ابنته تتالم وتصادف مرور الخادم فناداه الشيخ وقد ظهرت عليه علامات الغضب وامره قائلا

- خذ هذه السيدة الى الحرم . كما قلت لك

ثم التفت الى فهمى وخاطبه بلهجة جافية قائلا

- أما أنت فأحرم عليك دخول الحرم حتى تختار لنفسك زوجة واحدة إما ابنتى واما هذه الكافرة . . وعليك بملازمة دار الضيافة حتى نفصل فى الامر

- أنا لا أجد معنى لهذه التصرفات

ـ هذا شأنى . لا شأنك

فوجد فهمى أنه لا فائدة من الجدال مع هذا الرجل خصوصا وانه فى منزله والمدينة محاصرة بقوات الدراويش فأمر لوسى بدخول الحريم مع الخادم حتى يأتى الصباح فحاولت لوسى أن ترفض مفضلة البقاء معه فى مكان واحد فأفهمها أن عوائد هذه البلاد أن لا يجمعوا بين الرجل والمرأة . اللهم الا ان كانت من الجوارى . ولقد قصد بجملته الاخيرة أن لا تشك فى صحة قوله فقدراته يجرى وراء زينب قبل الآن . وبعد الحاح شديد أطاعت لوسى فهمى ودخلت الى غرفة الحرم حيث لا ونيس ولا أنيس . وبعد ذلك وضع الشيخ يده على كتف فهمى وقال

ـ أما الآن فانى اريد أن أقول لك انا بنتى التى زوجتك بها هى أعز على من روحى . ولقد رايت بنفسك مبلغ غيرتها والمها . فاختر لنفسك ماشئت اما ابنتى واما هذه الكافرة . .

فأجاب فهمى على الفور

ـ انى على استعداد ياسيدى لاطلق ابنتك

فوضع الشيخ يديه فى منطقته وقال

ـ وهل هذا رأيك الاخير . . والا ادعك تفكر الى الصباح

ـ هذا رأيى النهائى . فلا داعى للتفكير .

ـ حسنا سوف انيلك غرضك : فاذهب الآن الى مكان الضيافة وفى الغد ستكون مع امرأتك حرا

فسار فهمى غاضبا الى حيث مكان الضيافة حاسبا لموقفه الف حساب اما الشيخ فهرول الى الحريم حيث اختلى بابنته وهى باكية منتحبة فشق عليه ذلك وقال بهدوء من ثائرة نفسها

ـ ان هذه المرأة التى تشاركك رجلك ستموت الليله . .

فحملقت زينب فى وجه ابيها وصاحت بفرح : اتفعل ذلك يا أبى

ـ نعم . وفهمى . ماذا يفعل

ـ اذا تكلم فسيلحقها أيضا . . ـ أتقتله ؟

ـ نعم فأطرقت زينب الى الارض وهى تقول بصوت مبحوح

ـ انه زوجى . وقد أحببته . أجابها على الفور : انه يكرهك يازينب

ـ لااظن ذلك

ـ لقداعترف لى منذبرهة. فقد خيرته بينك و بينها فرضى ان يطلقك. وما كادت زينب تسمع هذا التصريح الذى اهاج عواطفها حتى نهضت واقفة واستلت خنجرا كان معلقا بالحائط وقالت والشرر يتطاير من عينيها : سأغمد هـذا فى صدرها الآن . وعليك انت بالرجل

ـ حسناً . سافعل

وهكذا تم الاتفاق بين الشيخ وابنته على قتل فهمى ولوسى عنـد ماينتصف الليل . امافهمى فقد شعر عندماانتصف الليل بقلق شديد وارق حرمـه الرقاد وحدثته نفسه بان يخرج من غرفة الضيافة خلسة ويذهب الى حيث لوسى ويهربا تحت ستار الظلام وهم بالخروج واذا بالخادم واقفا أمام الغرفة موقف الحارس فادرك انه اصبح اسيرا وان هناك خطر يهدد حياة لوسى فطار صوابه وجرت دماء النخوة فى شرايينه فانقض على الخادم انقضاض الوحش على فريسته ولطمه بقبضة يده لطمة قوية على أم رأسه ألقاه صريعا على الارض وللحال عمد الى عمامة الخادم وأوثقه بها وربط فمه بقطعة من القماش الابيض كى لايصيح ثم أخذ من منطقة الرجل خنجره وتسلل الى داخل الحريم

وبينما كان هذا يجرى كانت زينب واقفة على باب الغرفة التى توسدت لوسى فيها الفراش وازاحت الستار قليلا والخنجر يلمع فى يدها تحت جنح الظلام فرات لوسى نائمة نوم الملائـكة الابرار فظنت انها فى ثبات عميق فانسات داخل الغرفة بخفة حتى اقتربت من لوسى التى تحركت قليلا وفتحت عيناها فوجدت زينب شاهرة الخنجر فوق راسها فأتت لوسى بحركة رجعية نهضت على اثرها واقفة بعد ان هوت زينب بالخنجر فأصاب الفراش وقبضت لوسى على يدها قبضة قوية وصرخت قائلة بلغتها الانـكليزية

ـ انجدنى يافهمى . انجدنى يافهمى

واستماتت لوسى فى الدفاع عن نفسها وقامت معركة هائلة بين المراتين كاد يكون النصر فيها لزينب لولا ان اصابتها طعنة خنجر فى ظهرها اوقعتها على ارض الغرفة جثة هامدة لاحراك فيها

وهكذا فارقت زينب الحياة واخذ فهمى بيد لوسى وقادها الى خارج الغرفة

وبعدان سارا فى دهليز طويل مظلم وجدت لوسى جثة الشيخ فى بركة من الدماء فقالت لفهمى . لقد قتلت الشيخ

اجابها وهو يسرع بها الى الخارج . اجل . فقد حدثتنى نفسى بحدوث ذلك فاتيت اليك وما كدت اصل الى اول الدهليز حتى رايته هاجما على يريد قتلى بخنجر كان فى يده حيث سمعت صوت استغاثتك فاسرعت انا وسبقته بطعنة وصلت الى اعماق قلبه خطفت روحه الشريرة الى جهنم . وهكذا تمكنت من الدخول عليك وانقاذك

ومرا فى طريقهما على الحارس فنزع فهمى ملابسه والبسها لاوسى وبعد برهة وجيزة كانا خارج الدار يسيران فى شوارع الخرطوم فى طريقهما الى سراى الخرطوم وعندما اقتربا منها طرق آذانهما من الجهة المقابلة للسراى صوت اطلاق الرصاص المتتابع ودوى المدافع واصوات ترتفع فى الفضاء قائله

« فى سبيل الله . . فى سبيل لله »

وكانت هذه اصوات الدراويش بعدان اقتحموا المدينة واعملوا القتل فى حاميتها وهم قادمون الجهة المضادة للجهة التى جاء منها فهمى ولوسى للاستيلاء على سراى الخرطوم فقال فهمى وقد تيقن بذلك

ـ لقدهاجمت الدراويش المدينة . . فهيا يالوسى نختبىء فى مكان أمين

فلم تجبه لوسى بكلمة بل أسرعت الجرى بجانبه فى ظلام الايل

وكانت الدراويش تزحف بسرعة تحت قيادة ولد النجومى وانهالوا على المدينة كالسيل الجارف وهم ينادون « الى الـكنيسة . الى السراى » وأمعنوا فى الاهالى المساكين قتلا ونهبا ولم يبقوا ويذروا وسار بضعة منهم الى سراى الخرطوم حيث كان فهمى ولوسى يجدان فى السير وكان بينهما وبين الدراويش مسافة لا تزيد عن الخمسين مترا عندما وصلا الى سور السراى فاضطرا الى الاختباء وراء قطعة من الخشب كبيرة الحجم

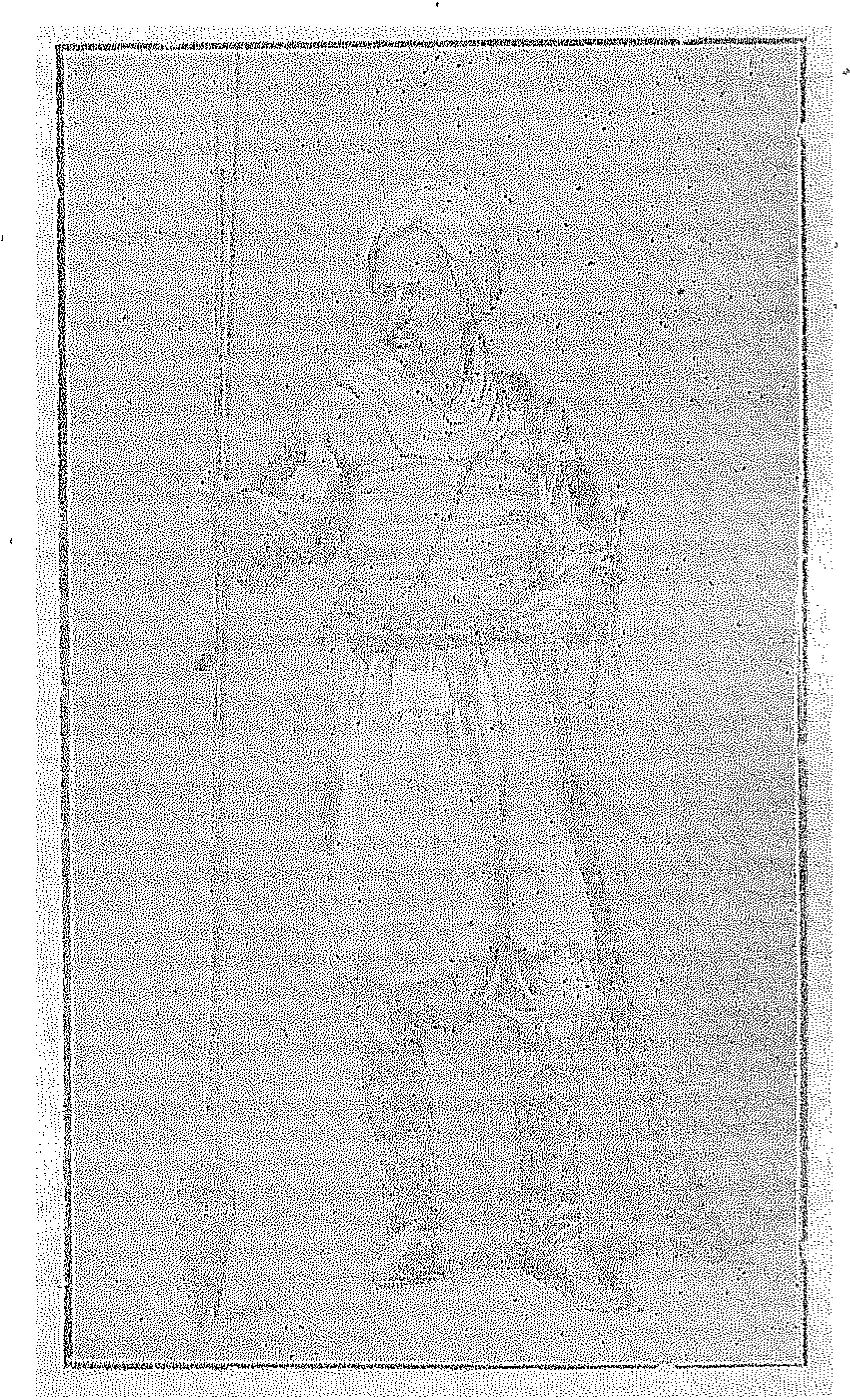
أما غوردون باشا فلم ينم تلك الليلة الا عند انتصاف الايل ولم يكد يغمض له جفن حتى سمع اطلاق النار فصعد الى سطح السراى وأشرف على الاسوار فرأى الدراويش قد دخلوا السور ولم يعد بالبد حيلة فأسرع الى الداخل وارتدى ثيابه وتقلد سلاحه وهم بالنزول فلاقاه ثلاثة من الدراويش فى أعلا السلم فسأل أولهم قائلا : أين محمد احمد ؟



« أحد الفرسان الثلاثه »

فأجابه أحدهم بطعنة قاضية من حربته وضربه آخر بالسيف فخر غوردون باشا قتيلا ولم يبد دفاعا وجرت جثته الى باحة السراى حيث قطعت رأسه وحملت الى المهدى فى أم درمان وكان سلاتين باشا مقيدا فى خيمته بأم درمان وقد علم بسقوط الخرطوم فوقف كئيبا حزينا ومر الرجال الذين يحملون رأس غوردون أمامه وبينهم رجل اسمه شطا كان سلاتين يعرفه فكشف له عن رأس غوردون وكانت موضوعة فى منديل كبير وقال

ـ أليس هذا رأس عمك الكافر



« سلاتين باشا وهو مأسور »

فأثر هذا المنظر في سلاتين كثيرا وكان قد هزل جسمه من الاسر والخوف وكاد يغمى عليه ولكنه تجلد قال بصوت ضعيف

- إنه مات في سبيل الدفاع عن واجبه : هنيئاً له فقد استراح من متاعبه . فقال له شطا ضاحكا . أتمتدح الكافر ؟ إنك ستلقى ما لقيه قريباً

ثم حملوا الرأس الى المهدى بعد أن تركوا سلاتين في قيوده الحديدية بين الموت والحياة. أما فهمي ولوسي فقد كانا مختبئين وراء الحاجز الخشبي والرصاص يتساقط حولهما بكثرة وكان فهمي يراقب المعركة محاولا أن يجد له خلاصاً من هول الموقف واذا بلوسي تصيح صيحة هائلة وقعت على الارض مضرجة بدمائها . فالتفت اليها

بمترعة قائلا . لوسى . أهل أصابك سوء ؟

فأجابته وهى تضع يده على صدرها الذى اخترقته رصاصة من رصاص الدراويش وقالت بصوت ضعيف

ـ لقد قتلت .. لاتتركنى .. امكث بجانبى .. اننى .. اموت

تملك فهمى الجزع وجن جنونه وقال : أنت بخير . لاتخشى شيئا

ـ اقترب منى . فاحتضنها فهمى وهو يحاول أن يوقف سيل الدماء السائلة من صدرها ولكن دون جدوى فقد اخترقت الرصاصة صدرها فجرت دموع فهمى حيث كانت لوسى متجهة بنظرها اليه وقد امتقع لونها وقالت له

ـ أتبكى ؟ . شكراً . اننى أموت . أشعر . بالموت . . كم . . انا . : سعيدة . اننى .. بقربك . . الوداع .. الوداع ..

كانت هذه آخر جمله فاهت بها تلك الفتاة الانجليزية التى استشهدت فى ميدان غرامها فقبلها فهمى قبلة طويلة مزجها بدموعه الغزيرة وكان موقفه يستدعى شجاعة كبيرة فأسند جثتها الهامدة بجوار السور وهم بأن يخرج الى الدراويش ويقاتلهم بمفرده وما كاد يخرج رأسه من تحت الحاجز الخشبى حتى رأى امامه جثث قتلى الدراويش بالقرب منه فخطرت له فكرة ولم يلبث طويلا حتى انبسط على وجهه واخذ يزحف ببطنه حتى استطاع بعد جهد جهيد ان يسحب احد القتلى وادخله وراء الحاجز وشرع فى خلع ملابسه وارتداها وهم بان يخرج من مكمنه الى حيث لايعلم مصيره ولكنه راى جثة لوسى بجانب جثة الرجل الذى اخذ ملابسه فوضع قدمه على عنق القتيل بشدة وانثنى الى لوسى يبللها بدموعه وقبلاته ثم وقف منتصباً قائلا

ـ وداعا يالوسى . . ليس فى اسطتاعتى عمل شىء لك الآن . . اننى لن أنس ذكراك . . ياشهيدة الوفاء

قال هذا وخرج مسرعا الى ساحة القتال ، شهراً سيف الجندى القتيل فى يده وماهى الا برهة وجيزة حتى كان ضمن الدراويش فلم يستطع أحد منهم أن يشك فى أمره لظلام الليل . فخاف أن ينبلج النهار فيكشف أمره فأسرع الى هجين رآه يعدو من غير راكب وامتطى ظهره وألهب عنقه بالضرب فجرت الهجين كالسهم الخاطف حتى استطاع أن يكون خارج المدينة عند طلوع الفجر واشتبه فى أمره بعض

الدراويش الذين رأوه يعدو بالهجين خارج المدينة والكل يدخلون اليها فعلموا انه من رجال الحكومة الفارين فأسرعوا بالجرى وراءه

وبعد جهد جهيد استطاع أن يفر منهم ويختفى بين الصخور بقلب جزع ونفس مضطربة

وهكذا سقطت الخرطوم .. أما الحملة الانجليزية فانها علمت بسقوطه وقتل غوردون فانسحبت من المتمة الى كورتى حيث كان فهمى مختبئاً بين الصخور فرأى البواخر تسير فى النيل فأسرع الى البر ولوح لرجال الحمله بيده فهرولوا جميعا ليروا الخبر . فأسرع بخلع ملابسه وألقى بنفسه فى مياه النيل وسبح حتى وصل الى أحد الباخرتين حيث ساعدوه على الصعود وقد رابهم من أمره مارابهم وما كاد يستقر به الجلوس حتى قص على قائد الحملة بكل ماحدث له فرحبوا به وهنأوه بالسلامة . ومن ثم عادت الحملة الى دنقله ومنها الى مصر وأصبحت السودان من ذلك الحين مملكة المهدى السودانى

الفصل الثالث عشر

دخل فهمى مدينة القاهرة فى المساء حيث خيم الليل على المدينة فكان يسير فى طرقاتها وفى نفسه لوعة الى رؤية عمه وابنة عمه . وعندما اقترب من الشارع المؤدى الى المنزل أحس بانقباض شديد لايعلم له سببا فعزى ذلك الى هول مالقيه فى تلك السفرة المشئومة ونظر الى السماء فتخيلت له لوسى تنظر اليه من خلال السحاب وطافت برأسه أشباح القتلى الكثيرين الذين كان يخوض فى أجسامهم حول سراى الخرطوم فتنهد وقال

« آه أيها الليل ... انى أسمع من بين جوانبك دقات القلوب الخفاقة والانات المتتابعة والزفرات الحارة .. انك تكاد تكون حكاية الشكاة الى الخالق المعبود . فشكاة الالم فى السعادة . شكاة العذاب فى اللذة . . شكاة النار فى جانم النعيم . . وأى نار أقوى من نار جحيم الخيبة فى البقاء

الموت . نعم الموت دقائق معدودة بعدها يفارق الانسان الحياة غير آسف على شيء إن زفرات الحياة لتصعد فى جو الوجود المتلاشى . وتنفسات الكروب الحارة الذاهبة فى الفضاء اللانهائى

هذه التنفسات الخارجة من أعماق الافئدة المكارمه : هذه النسمات دليل البقاء الفانى . شعار الحياد الذاهبة كما يذهب هذا الليل لوضوح نور الفجر فى جو الجلال

فى فضاء الملكوت . فى ساعات الليل العميقة تتنسم الاشجار فتخرج آهات تشعر بالموت

وهكذا وصل فهمى الى باب منزل عمه ووقف أمامه بعد أن تملكته الدهشة لرؤيته المكان مظلما : وباب الحديقة مغلقا . وليس هنالك ما يدل على وجود أحياء فيه . فحدثته نفسه بخطب جلل حل بهذا البيت الذى نشأ فيه وترعرع بين جدرانه تحت رعاية عمه الذى كفله بعد وفاة أبيه وذويه . . فطرق الباب بيد مرتعشة فدوى صوت الباب فى أرجاء المكان ولم يجاوبه غير صدى صوت الباب . فأعاد الكرة ثم أعادها وكاد اليأس يتسرب الى قلبه لولا أن رأى نور مصباح فى الطابق الاول ظهر ثم اختفى ثم ظهر وسمع صرير المفتاح وظهور خادم المنزل العجوز الذى أسرع الخطى نحو باب الحديقة فصاح فهمى قائلا له

ــ ماهذا التكاسل «ياعم رمضان»

فاستنكر رمضان هذا الصوت وأحدق ببصره الضعيف من خلال قضبان الباب الحديدى قائلا . من أنت ؟

ــ الاتعرفنى ؟ افتح

وبعد ان تأمله رمضان برهة صاح صيحة الفرح والسرور وهو يفتح الباب قائلا : سيدى فهمى . آه . لقد عدت الينا .. شكراً لله

واكب الخادم العجوز على فهمى يوسعه تقبيلا وضما وقد كان يبكى كبكاء الطفل . فساله فهمى قائلا وقد اطمانت نفسه

ــ اظن ان عمى قد توسد فراشه

فطأطا الخادم راسه وشعر فهمى بانه اخذ فى البكاء اكثر من ذى قبل فقال .

ماهذا البكاء يارمضان

فمسح الخادم دموعه بيده اليسرى واجاب سيده

ــ كلا انا لاابكى الافرحا بقدومك . لقدردك الله الى هذه المسكينة البائسة .

فاجابه فهمى بجزع . آية مسكينة . . وآية بائسة

فتقدم رمضان امامه قائلا وهو يسير

ـ ليدخل سيدى كى يستريح اولا

فحدثت نفس فهمى اليه ان هناك مصاب حدث اثناء غيابه . . وقال وهو يصعد السلم : ادخلت دولت إلى فراشها ؟ . .

ـ انها فى فراشها تقاسى انواع المرض

ـ كيف . أهى مريضة ؟ ـ نعم

وكان فهمى قد توسط صالة الدار فاتى على مقعد بعد أن لاحظ أن كل ما فى المنزل قد تغير وقال : متى مرضت ؟

ـ منذ أن فقدت ... ولم يستطع الخادم أن يتمم جملته بعد أن خنقته عبراته :

فصاح فهمى وقد نفذ صبره : من فقدت

ـ لقد . . فقدت . . عمك . . ياسيدى . . مات . . آه . . وأجهش الرجل بالبكاء وهم فهمى بأن يقف ولكن قواه لم تساعده فوقع على المقعد وقد وقفت الدموع فى مآقيه وبعد أن رجع الى نفسه بكى كالطفل والخادم يلاطفه ورفع فهمى يديه الى السماء قائلا

ـ ربى . . لقد اخذت والدها بعد أن حرمتها حنان امها فأسدل عليها ستار رحمتك واغمرها فى بحار صبرك

ووضع رأسه بين يديه واخذ يقطع من شعور رأسه والخادم يحاول ان يهدىء من نفسه حيث قال له

ـ لاتبكى هكذا ياسيدى . إنك رجل شجاع ـ المصاب اليم

ـ ولكن تذكر ان دولت فى غرفتها . فاذا راتك بهذا الحال . .

ـ اجل . . دولت . . دولت المسكينة . : التى فقدت كل مالها فى الحياة وانا ايضا قد فقدت كل شىء لى . . لقد اصبحنا يارمضان وحيدين . .

ـ لكما الله ياسيدى . .

ادرك فهمى ان موقفه يحتاج على شجاعة نادرة ورباطة جأش كى لايزيد من احزان دولت فكفكف دموعه واعتدل فى جلسته حيث ساله رمضان

ـ اظن سيدى فى احتياج الى طعام ـ لا . . شكرا

ومع هذا ساحضر لك كوبة من الشاى . .

ـ قال ذلك وانصرف دون ان يدع وقتا لفهمى للكلام وتركه بمفرده فى الغرفة فانطلق خيـاله من عقاله واستعرض فى تلك اللحظة كل ماقاساه من انواع المحن والمصائب وكان نظره يجول فى انحاء الغرفة وكانت صورة عمه معلقة على الجـدار وعليها قطعة من القماش الاسود فنهض مسرعا اليها وازاح قطعة القماش ووقف خاشعا امام الصورة ووجهه فى الحائط يبلله بدموعه قائلا

عمى .. لقد فقدتك الى الابد .. اذ ذكراك ستبقى على صفحات قلبي المعذب مادمت حيا: انى لن انسى ماقمت به من حق تربيتى وتهذيبى فاستودعك الله ايتها الروح الطاهرة النقية . استودعك الله الى يوم الاقيك فيه

ولو ان فهمى التفت وراءه فى تلك اللحظة لوجـد أن باب غرفة دولت انفتح ولرآها تقف على بابها السوداء ناظرة اليه كتمثال من رخام . فقد استيقظت دولت وسمعت صوت بكاء خارج الغرفة فاصاخت بسمعها جيدا وعلمت ان شخصاً غريبا دخل دارها فهمت من فراشها بدافع قوى ضاربة بذلك نصائح الاطبـاء فى عدم تركها فراش النوم مطلقا وخرجت من الباب فرات فهمى ابن عمها يبكى تحت صورة ابيها :.

داهمتها فى تلك اللحظة عاطفتان .. عاطفة فرح برؤية ابن عمها التى ظنته مائتا وعاطفة حزن لرؤيتها فهمى يبكى ابيها . ورغما عن ذلك فان دموعها تـكاثرت فى عينيها وحجبت فهمى عنها فلم تستطع السير اليه لضعف جسمها فصرخت فجاة قائله

ـ فهمى ... فهمى

أدار فهمى وجهه بسرعة مذعورا فرأى دولت مستندة على باب غرفتها تكاد تسقط لضعفها فأسرع نحوها باسطا ذراعيه لها قائلا

ـ ها أنا .. يادولت .. أنا بقربك ..

فارتمت تلك الفتاة المسكينة على صدره باكية ناحبة وهى تقول

ـ لقد مات أبى ..

ازداد بكاء فهمى اكثر من ذى قبل ودخل رمضان الخادم يحمل كوبة الشاى فراى ذلك المنظر امامه فرمى بكوبة الشاى الى الارض واسرع الى سيدته لعلمه ان وقوفها على قدميها يعرضها لخطر الموت كما قالت الاطباء وقال لفهمى

ـ يجب أن تحملها الى فراشها سريعاً . ماالذى جاء بها الى هنا . لقد جازفت بحياتها المسكينة

فحملها فهمى بين يديه وقـد عاودتها الحمى الخبيثة ووضعها بكل تؤدة على فراشها وجلس بجوارها على مقعد بجانب الفراش وجلس رمضان على أرض الغرفة يرقب بجزع مايصيب سيدته حتى غلبه النوم فنام تحت أقدام فهمى الذى اخـذته سنة الـكرى بعد برهه فوق مقعده

ما بزغت الشمس فى افق القاهرة حتى تلاءلاءت اشعتها الذهبية على زجاج غرفة اسماعيل فى منزل زوجته نجيه والذى هجره والدها اليوزباشي حسن افندى كريم مفضلا البقاء فى الريف عن ان يعيش فى جو كله عراك مستمر بين الزوجين

اجل . فقد شعر اسماعيل بانقلاب فى اخـلاق زوجته نجيه واشتبه فى سلوكها فأخذ يترقبها حتى علم بانها تقابل عشاقها فى كل مكان تريدو راى بعينيه انها لا تخجل من الوصول الى غايتها الشهوانية مهما كلفها ذلك . فاراد ارجاعها فـلم يفلح . وخاف ان طلقها الا يجد مايسد به رمقه فقد كانت لا تبخل عليه بايرادها الـكثير الى ورثته عن امها والذى يبعثه لها ابوها . وابت عليـه نفسه الشيطانية الرجوع لخدمة الجيش . ففضـل ان يعيش معها ولا يعارضها فيما تفعل ويفعـل هو كيف شاء

قام اسماعيل عندمارای خيوط الشمس تدخل غرفته وفتح النافذة ثم ذهب الى قاعة الطعام لتناول الافطار وسال عن زوجته الخادمة قائلا

ـ اين سيدتك

اجابته وعلى شفتيها ابتسامة معنوية سحقت قلبه : انها لم تستيقظ بعد

ـ ولم لم توقظينها ؟

ـ لقد امرتنا ليلة امس عندماجاءت بان لا نوقظها . لانها فى احتياج الى راحة كبيرة

ـ ومتى حضرت امس

فرفعت الخادمة حاجبها الى مافوق واجابت وهى تصب اللبن فى الـكوبة

ـ فى الساعة الواحدة والنصف

فتململ اسماعيل فوق مقعده ولـكنه لم يظهر شيئا من المه كى لا تلاحظ عليه الخادمة ذلك . وتناول إفطاره بسرعة واستلقى فوق مقعد طويل بعد ان حملت

مائدة الافطار واخذ يدخن سيكارة . وبينما هو كذلك واذا بالخادم دخل عليه قائلا

ـ لقد جاء احد اصدقاء سيدى ويريد مقابلته اجابه : ليدخل

وكان صديقه هذا الذى جاء لزيارته شاب من الذين يواصلون الليل بالنهار وراء ملذاتهم وشهواتهم تعرف باسماعيل حديثا فى أماكن الفسق والفجور . فعندما دخل عليه كانت تظهر على وجهه صفرة رسمتها الليالى وتجاعيد نقشتها بنت الراح فنهض اسمعيل مرحبا بصديقه وأجلسه بجواره قائلا

ـ هاقد جئت ياصديقى العزيز

ـ جئت لاحاسبك . فقد انتظرتك ليلة أمس كما وعدتنى فلم تأت

ـ آه وهذا صحيح . فلقد عاقنى عذر شرعى . فهل تقبل عذرى

ـ أقبله بأجر ـ ماهو ؟

ـ زجاجة من الويسكى . نشربها سويا ـ حسناً . لك ذلك

ـ اذا عفوت عنك . آه ياصديقى ليتك كنت معى أمس فقد كنت فى مجلس « على كيفك » عصفوره جديده

ـ كيف ؟ أجميلة هى ـ فوق الجمال « يابطل »

ـ إذاً سوف نذهب اليها الليلة ـ املا جيبك بالدراهم

ـ دائما مملوءة ـ هذا ماأعهده فيك

وبعد أن شرب القهوة نهض اسماعيل متأبطا ذراع صديقه وخرجا يشربان زجاجة الويسكى

أما زوجته نجيه ما نمت فانها استيقظت حوالى الساعة الحادية عشر وبعد ان تناولت طعام الافطار اخبرتها الخادمة بخروج زوجها مع احد اصحابه فضحكت ضحكة نسائية تفيض رقة ووقفت امام مرآتها وقد تهدلت جدائل شعرها على قميص نومها الشفاف الذى ينم عما وراءه وقالت

ـ اخبرى فاضل سائق العربة انى اريد التحدث معه

فامتثلت الخادمة وخرجت من الغرفة بينما تنهدت نجيه معجبة بهيكلها الجسمانى وابتسمت ابتسامة كلها حرارة وشهوة وسارت بخطوات بطيئة فى ارض الغرفة واذا بفاضل واقفاً امام الباب ينظر اليها وهى على تلك الحال فرمقته بنظرة كلها دلال ورشاقة وقالت بصوت رنان وقع على نفسه كما تقع نغمات الموسيقى

على قلب الحزين : ادخل يافاضل

فامتثل للامر وقلبه يخفق بشدة فشت اليه وجذبته بقوة الى داخل الغرفة ثم تحولت الى باب مخدعها وأدارت المفتاح فيه ... ثم رجعت الى فاضل وأجلسته على مقعد وهى بجانبه فامتلأت خياشيمه برائحة البودرة والعطر التى كانت تملا جو المكان فهدأت أعصابه الثائرة وجعل يفحص بعينيه سيدته التى تيمته جدا منذ ترعرع معها فى المنزل حيث كان أبوه سائق العربة وكان يساعدها فى مقابلة عشاقها فى مقابل قبلة منها .حتى تاقت نفسه الى أكثر من ذلك بعد أن تزوجت باسماعيل ولم تخف عليها الآخر ذلك فلم تجد بأساً من مقابلته بما يريد

أخذ ينظر اليها وهى بجانبه وأخذ فمه ينفرج عن ابتسامة تجلت فيها الرغبة الشهوانية. ذلك المخلوق المسكين رأى نفسه أمام معبودته فى غرفة واحدة واستطاع أن يرى بشرتها البيضاء الناعمة المشربة بالحمرة القانية . ووجهها المخضب وعيونها السوداء الساحرة . رأى أمامه قوامها الاهيف مجرداً عن الملابس لا يستره الا غلالة شفافة تظهر من خلفها السيقان البضة الناعمة. رأى أقدامها عارية وشعرها مسترسل على جبهتها ونهودها البيضاء البارزة من صدرها

دنت منه نجيه بدلال ورشاقة وقالت تخاطبه بصوت وديع ذليل

لقد سنحت الفرصة بهذا اللقاء يافاضل

ـ انك تستطيعين وجودها متى أردت

ـ انك تسيء الظن بى دائما . فأنا افضلك كثيراً

ـ هذا رأيى لاننا تربينا سويا

ـ مادمت تعرف ذلك. وان لاحجاب بيننا منـذ الصغر .فلا داعى إذاً بان تحدثك بانني هجرتك

ـ هذا أملى..ان تتعطفى على. كما كنت تفعلين وانت صغيرة

فطوقته بذراعيها ونظرت اليه نظرة استعطاف جعلت عينيـه تلمعان ببريق غريب حيث ابتسمت له نجيه عالمة بما يجول بخاطره ثم ارتمت عليه وهى لا تعبأ بقذارته وقبلته فى فمه قبلة اسكرته وكادت تغيبه عن الوجود الا انه قبض عليها بيد قوية مرتعشة وضمها اليه طويلا

***

وفى صباح ذلك اليوم انتبه فهمى على صوت سعال دولت المتتابع فطوقها بذراعيه عندما فزع الخادم العجوز من نومه ونهض واقفا وهو يقول بصوت منخفض :: االدعوا الطبيب

ولما راى فهمى ان حالة دولت سيئة جداً تدعو لاحضار الطبيب اومأ اليه بالايجاب وكانت عينا دولت قد جحظتا وخرج الزبد من شدقيها فاخذ فهمى يجفف مايخرج من فمها بمنديل

وما كاد الخادم يخرج من المنزل حتى وقفت عربة ونزلت منها حوريه هانم واسرعت الى الداخل كى تعود صديقتها دولت كجرى عادتها فى كل يوم وفتحت باب مخدعها ولكنها تراجعت الى الوراء عندما رات فهمى مكباً على فراش دولت ووقع نظره فوق نظرها

كانت ساعة رهيبة وموقف هائل فقد تلاقى العاشقان مرة ثانية بعد تلك الحادثة التى كانت السبب الاساسى فى مرض احمد بك . فوضع فهمى راس دولت على الوسادة والتفت اليها ومع هـذا لم يستطع ان يقول كلمة واحدة عندما تقدمت حوريه الى فراش دولت وامعنت النظر فيها قائلة لفهمى عندما رات ان دولت فى حالة غـير اعتيادية مابها ؟

فاجابها وقد انطلقت دموعه من عقالها : هى كاترين . تقاسى الم المرض

قال ذلك وهو ينشر المنديل الذى جفف به ماسال من فم دولت رجدت فيـه نقطا من الدماء ممزوجة بلعابها . فتا كدت ان دولت مصابة بمرض السل العضال فلم تمالك نفسها وارتمت على هيكل دولت توسعه تقبيلا وضما مجازفه بحياتها ولم تشعر بنفسها الا بين يدى فهمى الذى جـذبها الى الوراء قليلا . وفى تلك اللحظة فقط فتحت دولت عيناها وقالت لها بصوت ضعيف هادىء : لاتبتعدا عنى

واغمضت عينـاها حينما جلست حوريه على مقعد امام فهمى بجوار الفراش وخيم على الاثنين صمت طويل كانت عيونهما تنطق بافصح لسان عما يكنه قلب كل منهما للآخر وطال الصمت فلم يسع حوريه ان قالت لفهمى وهى ترفع بصرها الى سماء الغرفة : لقد عدت الينا سالما

فاحنى فهمى رأسه قائلا . لقد نجوت باعجوبه سماوية .

ـ لا يسعنى الا تهنئتك بسلامة العودة . . خصوصـا بعد ان فقدت

دولت ابيها : .

ثم عاد الصمت كما كان ولم يستطيعا أن يتكلما أكثر من ذلك للجزع الذى استولى عليهما على دولت ولم ينتبها الاعلى فتح الباب ودخول الخادم وعلى أثره الطبيب فنهض فهمى وتبعته حوريه وتنحى قليلا الى الوراء حيث تقدم الطبيب الى فراش المريضة التى كانت فى سبات عميق وأخذ يفحصها بكل دقة وعناية وهم ينظرون اليه نظرة القلق والاضطراب حتى حول وجهه القاطب بعد أن أعاد الغطاء على جسم المريضة وأطبق حقيبته وهو صامت وتقدم خطوتين الى الامام فهال فهمى صمت الطبيب وساورته الوساوس فقال له مستفهما . سيدى الطبيب ؟

فأمسك الطبيب بيد فهمى وخرج الاثنان الى صالة الدار حيث قال له الطبيب

ــ لاأمل بشفائها يابنى .   ــ أتظن ذلك .

ــ هذا ما يقوله الطب . وعلى الله إتيان المعجزات

فنفحه فهمى بدراهم وعاد الى غرفة المريضة بعد أن شيعه الى الباب الخارجى وقد علته صفرة شديدة لاحظتها عليه حوريه والخادم الذى تقدم اليه بجزع وهمس فى اذنه قائلا : ماذا قال لك ألم يكتب لها الدواء ؟

اجابه فهمى بصوت مملوء بالحزن والاسى . كلا   ــ اذاً .. الحالة خطرة .

فكاد الخادم يقع على ارض الغرفة ولكنه تجلد كثيرا واسرع الى الخروج حيث جلس على مقعده (بالمطبخ) مستسلما للبكاء على سيدته الصغيرة التى رباها وهى فى طفلة رضيع

أما حوريه أدركت من تلقاء نفسها ما قاله الطبيب فجلست على المقعد خائرة القوى ناظرة الى صديقتها بعين قلقة ووقف فهمى بجوار الفراش كئيبا حزينا . . وكانت دولت تفتح عينتاها ثم تغلقهما من وقت لآخر وانقضى بذلك وقت طويل والحزن مخيم والرهبة شاملة كل ارجاء المنزل حتى وافت الساعة الحادية عشر . حيث كانت آخر ساعة من ساعات دولت فى الحياة

فبينما كان اسماعيل يحتسى كؤوس الوسكى مع صديقه . كانت روح دولت (ضحيته) تصعد الى ربها راضية مرضية

وبينما كان اسماعيل يحتضن بعشيقاته فى منازل الفجور

كانت دولت تحتضن بالثرى بين بنات الحور

وقفت حوريا مع فهمي على قبر دولت بعد أن تركه المشيعون يغسلونه بدموع غزيره . وكانت هذه المأساة سببا في اعادة الروابط بين فهمي وحورية فقد كانت تأتي كل صباح الى منزل صديقتها المتوفاه مدة ثلاثة أيام المأتم ولا تبرحه الا فى المساء تاركة أمر عناية زوجها المريض لوالدتها عزيزة هانم .

وكذلك لم تمض الايام الثلاثة حتى كانت كافية ليعلم كل منهما بأنه لا يستطيع العيش بدون الآخر . فكان موقف حورية أمام هـذا الامر موقف مريع بين واجبها نحو زوجها المريض . وحبها لفهمي المسـكين . وكانت نفسها تحـدثها بشروق شمس الامل على دنياها المظلمة ..

الفصل الرابع عشر

يذهب اسماعيل كل ليلة مع صديقه الى منزل من منازل الفجور مشيد على ضفاف النيل تحتاطه حديقة غناء . وكان اسماعيل يبذر المال الذى يستولى عليه من زوجته نجيبه ذات اليمين وذات الشمال . وكانت عديله وهى تلك التى لا تعيل الا للدينار وقد استولت على قلب اسماعيل ونفذت الى أعماق فؤاده فتوسدت فيه مكانا عليا .. واستطاعت فى بضعة أيام أن تتيمه غراما حتى أنه أصبح هائما يحبها مزق الحب أنفاسه واستوقد الوجـد ضلوعه وأخـذ يبذر عليها الدنانير حتى يتمكن حبه من قلبها ولكن من أين للرجل ان يستولى على قلب مومس ! هذا ما لا يمكن فهى لا قلب لها ..

رأت زوجته نجيبه أنه يبذر من أموالها فعمدت الى خزينتها وأقفلتها فى وجهه فلم يسعه أمام غرامه الآن يستدين من الغير لارضاء عديله التى لا هم لها الا المال . فتراكمت عليه الديون وهجره أصدقاؤه . وكذلك عديله الا ذلك اليوم الذى يملا فيه جيبه بالاصفر الرنان . فتـكون معه كظله

نحل السهد جسمه . وبرى الشوق عظمه بعد أن سحرته عديله بأجفانها وسبته بلطف دلالها

لقد لعب بالحب بادىء ذى بدء . وهزأ بالعواطف فى بادىء الامر . وها هو الحب يلعب به . والعواطف تهزأ منه . فيا رحمتاه لك أيها العاشق المسكين كشر لك القضاء عن نابه وعضت الايام على نواجذها فعصفت بك عواصف الغرام . بمن ؟

بمومس . . .

وارحمتاه لك تكاد تتلاشى نفسا فى نفس وقد حكمت عليك الليالى بالجلوس تحت قدمى مومس تتوسل اليها كى تمد نعالها فتقبلها راضياً مسرورا

إيه أيها التعس. طوحت بك يد القدر التى لا تغفل الى وادى النوى المظلم حيث تنتظرك الآلام

ياويحالك أيها المعذب. لذعتك حرقة الغرام وصدعتك نوازل الهوى فحان حينك. ودنت منيتك .

جلس اسماعيل تحت تأثير كل هذه العوامل النفسانية فى غرفته وهو شاحب اللون سابحاً فى بحار أفكاره وراء سفينة المومس الذهبية وراء عديله التى تبيع عرضها لكل مشترى . فرفع بصره الى السماء وقال يمد القضاء بيده

انى لا أستطيع نسيانها . فهى لى كل شىء فى العالم . بل ان حبها أصبح مكان العقيدة منى . فلابد من ايجاد دراهم مهما كلفنى الامر

ثم أطرق ببصره الى الارض وبعد برهة ضرب بقدمه ظهر المقعد وقال

ـ أجل . هذا هو الحل الوحيد. قال ذلك وخرج من غرفته كاللص ينساب الى المنازل وسار بكل هدوء حتى انتهى الى غرفة زوجته وفتح الباب بخفة ودخل اليها فوجد زوجته لم تزل نائمة فى فراشها فوقف امام الدولاب وعالج فتحه بكل خفة حتى تمكن من فتحه وأخذ يقلب ما فيه حتى تهلل وجهه بالفرح وعثر على ضالته المنشودة

أخذ بين يديه علبة من القطيفة الحمراء ذات حجم متوسط بها كل مجوهرات زوجته ولكن فرحه الشديد أنساه موقفه فوقعت العلبة من يده وأحدثت صوتاً فى ارض الغرفة جعل نجية تستيقظ من نومها فزعة فاسرع اسماعيل بالتقاط العلبة وخرج مسرعا عندما صرخت زوجته مستغيثة فهرولت خادمتها التى اصطدمت بسيدها اسماعيل فلم يلتفت اليها وخرج من السراى مسرعا ليستبدل المجوهرات نقودا . : وهرولت نجيه وهى تصرخ صراخا عالياً وقالت عندما وقع نظرها على خادمتها

ـ الم تصادفين اسماعيل ـ بل كان يعدو الى الخارج

ـ لقد سرق مجوهراتى ما العمل الآن .

ـ لا فائدة ياسيدتى من الصياح. فانك لن تستطيعى ادراكه. لقد كان يقتلع عيني

بقوة صدمته

ــ إذاً سابلغ البوليس . وسادلهم على مكانه . انه لاشك سيذهب الى هذه المومس التي اوقعته فى شرا كها اتعرفين منزلها

ــ اجل ياسيدتى . فقد تعقبته يوماً الى هناك وعرفت المنزل جيدا

ــ حسناً .. هيا

واسرعت الى غرفتها وارتدت ملابسها بينما امرت الخادمة فاضـل بتجهيز العربة . وبعد برهة وجيزة كان فاضل يلهب الجياد بسوطه الى مركز البوليس حيث بلغت نجيه عن سرقة مجوهراتها واتهمت زوجها فى ذلك قائلة انها رأته وهو يرتـكب جنايته : وشهدت الخادمة بذلك وقدا ضافتا فوق ذلك انهما يعلمان مقره الآن

فانتدب احد الضباط و بعضاً من الجند وساروا جميعاً الى حيث تدلهم خادمة نجيه

وكان اسماعيل فى هذه الاثناء قد استبدل المجوهرات بدراهم من احد تجار اليهود وذهب من فوره الى عديله وبعد قليل كانت الخمر تلعب فى راسه وعـديله بين يديه تضاحكه وتلاعبه حتى قالت له : اسماعيل اريد التنزه قليلا

فأجابها وهو يحتسى كأسا من الخمر غير حاسباً لجريمته حسابا

لك كل مااردت

فنادت عديله خادم المنزل وامرته باحضار عربة ريثما ترتدى ملابسها فانحنى الخادم امامها وهو يغمز على طرف عينيه اليمنى وخرج مسرعا عندما قالت عديله لاسماعيل وهى تطوقه بذراعيها مقبلة إياه فيما بين عينيه

ــ اانت مسرور ؟ ــ كيف لا وانا بجانبك

قال ذلك ونهض واقفا مترنحا واخذها بين يديه وضمها الى صدره فاستطاعت ان تتخلص منه برشاقة وخفة دون ان يلاحظ عليها اشمئزازها منـه وقالت ساعدنى على ارتداء ملابسى

فـكان اسماعيل يساعدها فى ارتداء ملابسها حتى اذا انتهت من ذلك قالت له : هيا

وتقدمت بضع خطوات الى الامام ولـكنها توقفت عن السير لغرض فى نفسها وقالت بلهجة ظاهرها الصدق والاخلاص وباطنها الـكذب والخيانة

انك تحمل نقوداً كثيرة ..

اجابها وهو يضرب بيده على جيبه المنتفخ بالدراهم . اجل

فأمسكته بذراعه وهمست فى اذنه بلهجة الناصحة

ـ ضع هذه النقود هنا تحت الفراش ريثما نعود ودع قليلا منها فى جيبك

فاستحسن الفكرة واسرع الى الفراش وخبأ ما كان معه من النقود ثم تبعها الى حيث سارت حتى وصلا الى حديقة المنزل. وهناك وجد العربة بانتظارها. وما كادا يخرجان من الباب الحديدى حتى وقفت عربتان نزلت الجند من احدهما ونزلت ونزلت نجيه والضابط وخادمتها من الثانية فوقف اسماعيل مبهوتا وكذلك عديله ولم يستطيعا تقدماً او تأخرا . وفى تلك اللحظة الرهيبة اشارت نجيه الى الضابط على زوجها اسماعيل قائله

ـ هذا هو سارق مجوهراتى

فأسرع الضابط اليه وقبض على ذراعه قائلا: أين الجواهر؟

فارادت عديلة التخلص من موقفه فقالت للضابط

ـ اية جواهر ؟ . اظنكم مخطئين.. فاعترضتها نجيه قائله..

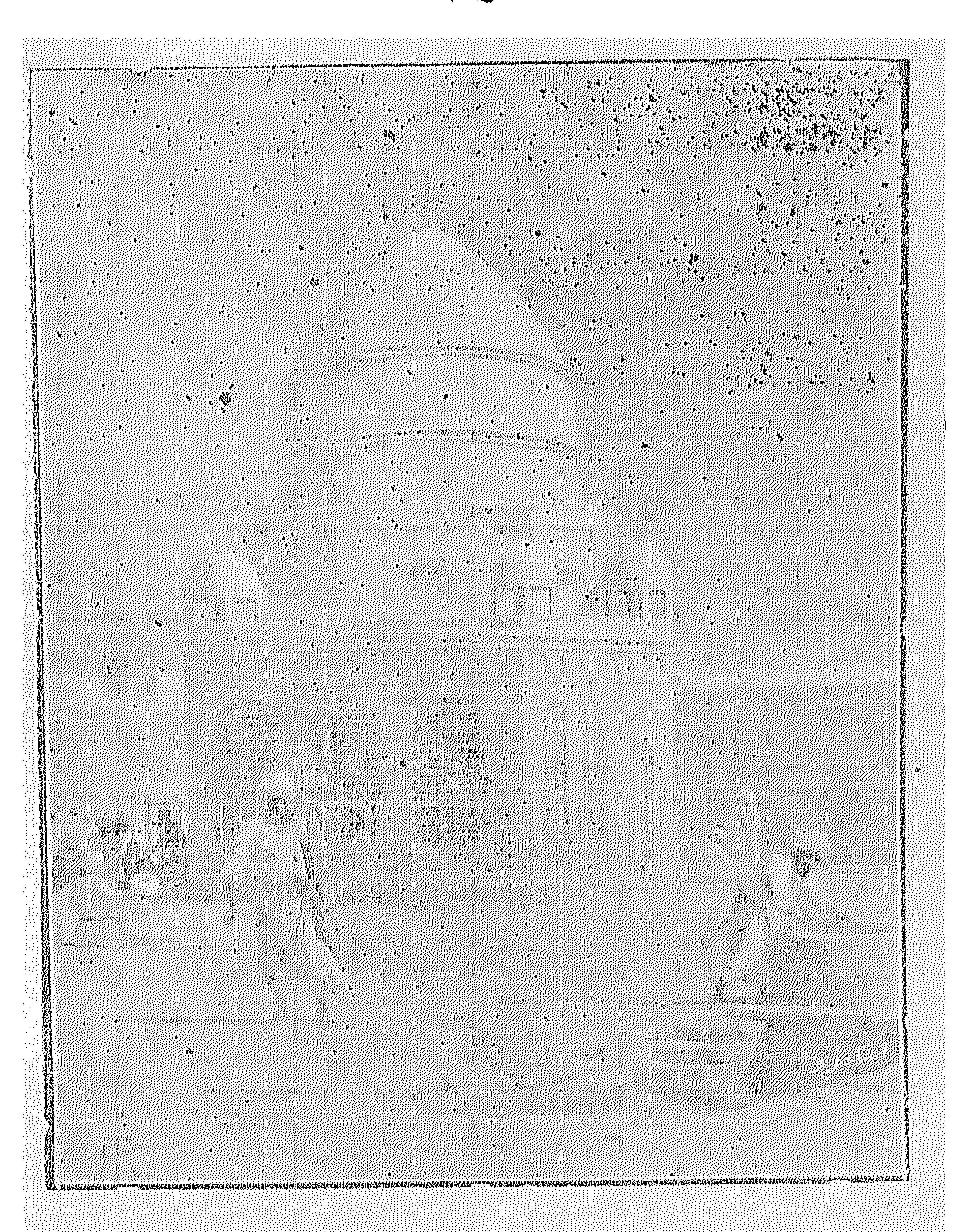
ـ اصمتى ياعاهره... لابد وان يكون خبأها عندك...

فحاولت عديله الدفاع عن نفسها ولكن الضابط امر احد الجند بالقبض عليها ووضعها فى العربة فسيقت بين ايدى الجند ولم يفد صياحها شيئاً . اما اسماعيل فقد صحى من غفلته وعلم انه واقع فى شر اعماله فلم يستطع ان يجيب الضابط على شئ ما فسيق الى القسم مع عديله بعد ان فتش البوليس المنزل بأمر من النيابه العمومية وعثر على نقود اسماعيل تحت فراش عديله . وبعد ثبوت التهمة على اسماعيل واشتراك عديله معه كبلا بالحديد وزجا فى السجن رهن التحقيق . .

***

بعد ذلك نعود بالقارئ الكريم لنرى ما فعله المهدى بعد سقوط الخرطوم فانه استطاع ان يخضع جميع اقطار السودان واصبح المالك المتصرف فيه وخيل له انه سيفتتح الامصار ويخضع الملوك والسلاطين فتنتشر سلطته فى الخافقين . .

على انه لم يكن يرجو ان يتم ذلك كله على يده ولكنه كان يقول انه لن يموت الا بعد فتح الحرمين وبيت المقدس ثم ينزل الكوفة ويموت فيها ولكن ساء فأله لانه لم يكد يؤيد سلطته ويقيم فى عاصمته امدرمان بضعة اشهر حتى اهمته الوفاة فى



(قبة مدفن المهدى)

٢١ يونيو سنة ١٨٨٥ على اثر اصابة شديدة بالحمى التيفوسية لم تنجع فيها حيلة ففارق الحياة وحوله خلفاؤه ولم يكد يخرج النفس الاخير حتى بايع الحاضرون عبدالله التعايشي وسموه «خليفة المهدى»

وكان عبد الله التعايشي معتزاً بقوته وجبروته حتى انه طمع فى فتح مصر وضمها الى مملكته ومكثت هذه الفكرة فى رأسه حتى تمكن بعد مضى ثلاثة سنوات من قهر كل ما يخشى منه على السودان وبذلك انقلبت السياسة الانكليزية الى الضد ولم تفلح فى اخضاع الثورة بنفسها . فعدلت عن رايها اخيراً ووقفت موقف الناصح واشارت بوجوب فتح السودان من جديد بجيش مختلط من المصريين والانجليز .

وفى هذه الاثناء كتب عبدالله التعايشي الى اهالى مصر المنشور الآتى نورده بنصه كى لانحرم أبناء الوطن من الالمام بكل ما يحيط بتاريخ استعمار بلادهم .

والسر فى ذلك . قال فيه بعد الديباجة

« . . واعلموا أن ما حملنى على نصحكم . ولا دعانى الى بسط العنان فى عظتكم الا مزيد الشفقة عليكم والخوف من أن لاتنجع فيكم المواعظ غروراً بالامانى الكاذبة وركونا الى راحة الدنيا الفانية الذاهبة فتدور عليكم الدوائر كما دارت على من قبلكم فى بلاد السودان لما أعرضوا عن قبول الحق وجنحوا الى اتباع أقوال علماء السوء الذين أضلهم الله على علم واغتروا بأكاذيب حكامهم وكثرة عدد جنودهم وعددهم العارية عن معونة الله تعالى فختم الله على سمعهم وقلبهم وجعل على بصرهم غشاوة وحاق بهم مكرهم وهلكوا وحرقت النار أجسامهم وخسروا الدارين والعياذ بالله ولكم فيهم عبر وعندكم من أمرهم خبر والسعيد من اتعظ بغيره ونظر فى صلاح عاقبته . . وليكن فى علمكم أن هذا الامر دينى مبنى على نور من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومؤيد من عند الله بجنود ظاهرية وباطنية ولا يختلج فى صدوركم انقطاع ذلك المدد الالهى بسبب انتقال المهدى عليه السلام فان للمهدى بجده المصطفى صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ولما انتقل صلى الله عليه وسلم لم يزل المدد مع أصحابه الكرام حتى تأيد دين الله واتسعت دائرته كما لا يخفى عليكم . وانتقال المهدى عليه السلام للدار الآخرة قبل فتح مكة والقسطنطينية وغيرهما من الامصار كما هو مذكور فى بعض الروايات لا يقدح فى انه مهدى آخر الزمان الذى بشر الامة بظهوره سيد الاكوان على فرض صحة تلك الروايات . لما ان النبى صلى الله عليه وسلم قد أخبر فى حياته بفتح بعض البلاد كاليمن والشام وغيرهما وأضاف ذلك الى نفسه الشريفة كما قيل فى حديث حفر الخندق والله اعلم . ثم لم يكن فتح ما ذكر على يده الشريفة بل كان على يد خلفائه الكرام بعد انتقاله صلى الله عليه وسلم ولم تقدح ذلك فى نبوته اذ لاغرو نسبة فعل خلفائه اليه لما انهم أياديه وخاصته الوارثون لمقامه المنيف . ولا يخفى ان فعل التابع ينسب الى المتبوع وقد أخبر أنبياء الامم السابقة أممهم ببعثة نبينا صلى الله عليه وسلم وذكروا انه يفتتح الامصار ويقهر الملوك ويخرب المدائن الكبار ومعلوم انه لم يفتتح فى زمنه غير مكة وخيبر وكانت بقية الفتح على يد الخلفاء بعده . وعلى طريقته المثلى أتى خليفته المهدى عليه السلام فجميع ما وجد مضاف اليه فى الاحاديث من فتح البلاد فلابد من حصوله على يد خلفائه وأصحابه لما انهم ورثته المصطفوية القائمون بالامر بعدهم وأما نسبة جميع ذلك اليه فمن كمال وراثته . . وحينئذ فلابد من أن يعم أمره هذا مشارق الارض ومغاربها بعون الله تعالى فان الله غالب على أمره

ومعلوم ان قدرته لاتقاوم وبطشه لايصادم . وها قد بلغتكم وأعذرت اليكم فلا عذر لكم بعد هذا الانذار وفقكم الله وشرح صدوركم لقبوله. ثم انه لابد من ورود الرد منكم بما تصبرون اليه. ألهمكم الله رشادكم وأخذ بنواصيكم الى طريق سدادكم هذا والسلام ؟ عبدالله التعايشي

خليفة المهدي عليه السلام

وكذلك مما دل على تساهيه في الغرور وجهله التام بأحوال العالم الخارجي أنه أرسل الى مصر أربعة رسل بثلاثة كتب بتاريخ جمادى الآخرة سنة ١٣٠٤ هـ . مارس ١٨٨٧ م منها كتاب الى جلالة السلطان عبدالحميد وآخر الى سمو الخديوى توفيق باشا وآخر الى جلالة الملكة فيكتوريا ملكة الانكليز وفيها يدعوهم الى عتناق المهدية قبل أن تطأ جيوشه بلادهم وتنتقم منهم .. فوصل الرسل حلفا في ١٢ ابريل سنة ١٨٨٧ فأرسلوا الى الجناب العالي في مصر حيث قرئت الكتاب وارسل كتاب جلالة الملكة فيكتوريا اليها ثم أرجع الرسل من حيث أتوا بجواب اشفاهى هذا نصه

« ان أولئك الملوك الذين تجرأ سيدكم على الكتابة اليهم لارفع جداً من ان يتنازلوا الى مجاوبته »

ولما عادت الرسل بهذا الجواب شق ذلك على عبدالله وكان قد قدر له الفوز على الاحباش فجرد حملة لفتح مصر وجعل عليها عبدالرحمن ولد النجومى

وخرج ولد النجومى من دنقلا في مايو سنة ١٨٨٩ فى جيش لا نظام له والحكومة المصرية عالمة بكل حركة من حله وترحاله (هذه المره؟؟) وكان سر دار الجيش المصرى اذ ذاك الجنرال غرانفل باشا المشهور بالتأني وصدق الروية فضلا عن الرقة ولين الجانب فحصن حلفا واصوان وسائر الحدود

فلما دنت حملة الدراويش من ارجين بجوار حلفا اقتربت شرذمة منهم الى النيل وولد النجومى لايعلم بها فخرجت اليها الخامسة المصرية بقيادة ورد هاوس باشا فكسروها شر كسرة .

وسار السردار غرانفل باشا بجيش معظمه على البر الغربي للنيل وبعضه على البر الشرقي لان الدراويش كانوا قادمين على البر الغربي جرت بينهم وبين الحاميات مناوشات ليست بذات بال حتى وصلوا توشكى وكان بين صفوف المقاتلين ضابطنا فهمي افندي فانه بعد أن داهمته المصائب بموت عمه وابنة عمه . مكث يتردد على

قبرها كلما اهتاجته الذكرى ولم يكن له تعزية فى الحياة الا مواساة حورية التى كانت تزوره خلسة يوماً بعد آخر وهى قلقة على حياة زوجها . ومكثا على ذلك مدة كبيرة جاء فى آخرها خادم حورية باكى العين قائلا لفهمى . لقد مات سيدى احمد بك اليوم

فتأثر فهمى بعض التأثير قائلا فى نفسه

ـ فليسامحه الله . لقد أراد قتلى فى السودان

وهكذا كان فهمى ضمن من شيعوا جنازة أحمد بك الى مقرها الاخير وآلت ثروته الطائلة الى يد حورية زوجته مما جعل والدتها عزيزه هانم تسرف فى تفصيل فساتينها على آخر موده

ولقد اتسع لهما المجال فى مقابلة فهمى فى كل لحظة حتى انتهت شعائر المأتم ومن ثم صار كشخص واحد يعيشان سويا ترفرف فوقهما سحب الفضيلة ولقد حضرا بنفسهما يوم محاكمة اسماعيل على جريمة السرقة وسمعوا الحكم عليه بعد ثبوت التهمة بسجنه أربعة سنوات مع الاشغال الشاقة ورأوه وهو يخرج بين الجند مصفداً بالاغلال تتبعه عديلة التى حكم عليها بسنتين لانها كانت الدافع الوحيد للسرقة .

وفى هذه الاثناء انضم فهمى الى الجيش المصرى للمرة الثانية حيث اتفق وحورية على الزواج وابتدأت تنقشع سحب الآلام عن حياتهما . الا أن تجريد الحملة الى دفع الدراويش عن مصر ملأ قلوب الجنود بالحمية فجاء فهمى الى حوريه قبل يوم الزفاف بأسبوع وقال وعلامات التأثر على وجهه

ـ انني ذاهب الى حرب أخرى

فبهتت حورته وجمدت فى مكانها وتمتمت قائله . حرب أخرى

ـ نعم فقد هاجمت الدراويش بلادنا أفلا يحق بأبناء الوطن الدفاع عنه

فأسقط من أمر حوريه ورفعت عينيها الى فهمى وقد امتلات بالدموع فقبض فهمى على يديها قائلا .

ـ لا تبكى ياحوريه . فها أنا أضحى بسعادتنا التى وهبتنا اياها الطبيعة بعد جهاد عنيف . فاذا مت فنى تحت قبة سماء الوطن رافعة الرأس لان فهمى مات فداء مصر

فعلت هذه الكلمات مفعولها فى حوريه فعادت الدماء الى وجهها ونهضت

واقفة وأمسكت بقبضة سيفه

ـ اذهب . انى لأمنعك . وهاأنا أبارك سيفك الطاهر . وليحرسك الله حتى يردك الى سالما منتصرا

وما كادت تفوه بهذه الجملة حتى جذبها فهمى للمرة الاولى بعد قدومه الى مصر ومكوثه فيها سنين طويلة جذبها اليه وضمها الى صدره وقبلها قبلات عديدة .

وهكذا كان فهمى بين رجال الحملة المصرية فى معسكر الجيش المصرى بطوشكى التى دارت رحى القتال بين الفريقين فيها كان النصر حليف المصريين فشتتوا شمل الدراويش وقتل قائدهم . وكان ذلك النصر مبينا سربه الخديوى توفيق باشا فبعث الى السردار يهنئه به لعلمه أنه أمثولة علمت التعا... مالم يكن يتعلم ... قرئت الكتاب ... أما الذين قتلوا من الجنود المصرية فابتنوا لهم مقاما قرب ...

وبنوا فوقه قبرا نقشوا فوقه باللغة العربية حفرا على وجه القبر هذا نصها « شيد هـذا الاثر تذكاراً لواقعة طوشكى التى حصلت فى ٦ ذى الحجة سنة ١٣٠٦ هـ »

وانهزم فيها جيش العصاة السودانى المرسل تحت ... من ... النجومى فشتتوا بعد قتل أميرهم وكان الجيش المصرى تحت قيادة سعادة السردار غرانفل باشا وفى هذا القبر دفنت جثث العساكر المصرية الذين استشهدوا وهم بالميدان »

وبعد الواقعة سار الخديوى توفيق باشا فى بعض رجال معينه لتفقد أحوال الحدود فركب الى مكان تلك الواقعة ووقف امام قبر شهدائها يتامل ماأظهره جنده من البسالة فى ذلك القتال

وأنعم على ضباط الواقعة بالنياشين والرتب وكان نصيب ضابطنا فهمى ترقيته الى رتبة اليوزباشى وعاد الى القاهر يحلى صدره بالنياشين والاوسمة جزاء خدمته لوطنه وقابلته حوريه بابتسامة حلوة وضمته الى صدرها ضمة انسته كل مالاقاه من أخطار وبعد يومين عقد قرانهما أحد علماء الدين بين ابتهاج القلوب وفرح النفوس . . . .

وبينما كان فهمى يضع قبلة على شفتى زوجته كانت والدتها عزيزه هانم تخاطب الخياطة قائلة

« اعملى الفستان سواريه علشان دخلت حوريه . . . »

الفصل الخامس عشر



ولقد

« توفيق باشا خديوى مصر »

توالي على الدراويش النحس فجندت الحكومتان المصرية والانجليزية لقهرها حملة مختلطة من الانجليز والمصريين بقيادة السردار كتشنر باشا

وجرت فى أثناء الطريق من حلفا الى الخرطوم وقائع قاسى فيها الجند مشاق عديدة عن جملتها واقعة الاتبره وفيها قبضوا على الامير محمود

وهو ابن عم التعايشي وقيد أسيراً مع نحو ٣٠٠٠ مقاتل واستعد السردار من هنالك الزحف على أم درمان . وبلغ التعايشي ذلك فجمع ذوى شوراه فاشار عليه بعضهم بالهجرة فغضب وأمر بضرب ذلك الناصح وقال «انى محارب حتى أقتل» وأمر بتحصين وبناء الطوابي لاتقاء نيران مدافع العدو التي ستطلق عليهم من النيل: ولم يجده ذلك نفعا فان الجنود المتحدة وصلت أم درمان فى ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ وخرج التعايشي لملاقاتها . وبعد ثلاث هجمات متوالية اضطر التعايشي الفرار بعد أن يئس من الفوز. واحتل المتحد أم درمان ورفعوا

يه فع

عليها الرايتين المصرية والانجليزية ولما علم السردار بفرار عبدالله التعايشي بعث في اثره كوكبة من السواري تحت قيادة الصاغ فهمي افندى بطلنا المحبوب فقد أبدى بسألة نادرة وانعم عليه برتبة الصاغ ولكنه لم يستطع ادراكه فعاد بالتالى

وفى اليوم التالى استولوا على اوراق الخليفة وكتبه من بيته . وامر السردار بنسف قبة المهدى ونبش قبره وبعثت جمجمة المهدى الى معرض التحف فى لندن . وبعثرت سائر عظامه .

وبعد قليل نزل السردار كتشنر باشا الى مصر ومعه اركان حربه يتقدمهم الصاغ فهمي بعد ان نثر على المكان الذى قتلت فيه لوسى بعضاً من الزهور مزجها بدموع التأثر . ونال السردار مكافأة جزيلة وسمى لورد الخرطوم ورقى الكولونيل ونجت بك الى رتبة لواء وسمى ادجننت جنرال الجيش المصرى

وحاولوا القبض على التعايشي عبثا وكانوا كلما طلبوه من مكان فر إلى سواه حتى علم ونجت باشا فى اواخر سنة ١٨٩٩ ان التعايشي يتحفز الهجوم على امدرمان وعلم بمكانه فحمل عليه وحاربه حتى قتل عبدالله التعايشي فى ٣٠ نوفمبر من تلك السنه

وصارت السودان من ذلك الحين تحت سيطرة الدولتين الانجليزية والمصرية كما نص على ذلك الاتفاق الآتى بين مصر وانجلترا وقعت عليه الحكومتان فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ هذا نص مواده

(١) ـ تطلق لفظة السودان فى هذا الوفاق على جميع الاراضى الكائنة جنوبى الدرجة الثانية والعشرين من خطوط وهى : ـ

اولا ـ الاراضى التى لم تخلها قط الجنود المصرية منذ سنة ١٨٨٢

ثانيا ـ الاراضى التى كانت تحت ادارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان الاخيرة وفقدت منها وقتياً ثم افتتحتها الآن حكومة جلالة الملكة والحكومة المصرية بالاتحاد .

ثالثا ـ الاراضى التى قد تفتحها بالاتحاد والحكومتان المذكورتان من الآن فصاعدا .

(٢) يستعمل العلم البريطانى والعلم المصرى معا فى البر والبحر بجميع انحاء السودان ماعدا مدينة سواكن فلا يستعمل فيها الا العلم المصرى فقط

(٣) تفوض الرياسة العليا العسكرية والمدنية فى السودان الى موظف واحد يلقب (حاكم عموم السودان) ويكون تعيينه بأمر عال خديوى بناء على طلب حكومة جلالة الملكة ولا يفصل عن وظيفته إلا بأمر عال خديوى يصدر برضاء الحكومة البريطانيه

(٤) القوانين وكافة الاوامر واللوائح التى يكون لها قوة القانون المعمول به والتى من شأنها تحسين ادارة حكومة السودان او تقرير حقوق الملكية فيه بجميع انواعها وكيفية الواتها والتصرف فيها يجوز سنها او تحريرها او نسخها من وقت الى آخر بمنشور من الحاكم العام وهذه القوانين والاوامر واللوائح يجوز ان يسرى مفعولها على جميع انحاء السودان او على جزء معلوم منه ويجوز ان يترتب عليها صراحة او ضمناً تحوير او نسخ اي قانون او اية لائحة من القوانين او اللوائح الموجودة

وعلى الحاكم العام أن يبلغ على الفور جميع المنشورات التى يصدرها من هذا القبيل الى وكيل وقنصل جنرال الحكومة البريطانيه بالقاهرة والى رئيس مجلس نظار الجناب العالى الخديوى

(٥) لا يسرى على السودان أو على جزء منه شيء ما من القوانين أو الاوامر العالية أو القرارات الوزارية المصرية التى تصدر من الآن فصاعدا الا ما يصدر باجرائه منها منشور من الحاكم العام بالكيفية السالف بيانها

(٦) ان المنشور الذى يصدره حاكم عموم السودان ببيان الشروط التى بموجبها يصرح للاوروبيين من اية جنسية كانت بحرية المتاجرة أو السكنى بالسودان أو تملك ملك كائن ضمن حدوده لا يشمل امتيازات خصوصية لرعايا أية دولة أو دول

(٧) لا تدفع رسوم الواردات على البضائع الآتية من الاراضى المصرية حين دخولها الى السودان ولكنه يجوز مع ذلك تحصيل الرسوم المذكورة على البضائع القادمة من غير الاراضى المصرية الا انه فى حالة ما اذا كانت تلك البضائع آتيه الى السودان عن طريق سواكن أو أى مينا آخر من موانى ساحل البحر الاحمر لا يجوز أن تزيد الرسوم التى تحصل عليها عن القيمة الجارى تحصيلها حينئذ على مثلها من البضائع الوارده الى البلاد المصرية من الخارج ويجوز أن تقرر عوائد على البضائع التى تخرج من السودان بحسب ما يقدره الحاكم العام من وقت الى آخر

بالمنشورات التي يصدرها بهذا الشأن

(٨) فيما عدا مدينة سواكن لا تمتد سلطة المحاكم المختلطة على اية جهة من جهات السودان ولا يعترف بها فيه بوجه من الوجوه

(٩) يعتبر السودان بأجمعه ما عدا مدينة سواكن تحت الاحكام العرفية ويبقى كذلك الى أن يتقرر خلاف ذلك بمنشور من الحاكم العام

(١٠) لا يجوز تعيين قناصل أو وكلاء قناصل أو مأموري قنصلاتات بالسودان ولا يصرح لهم بالاقامة قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانيه

(١١) ممنوع منعا مطلقاً ادخال الرقيق الى السودان او تصديره منه وسيصدر منشور بالاجرا آت اللازم اتخاذها للتنفيذ بهذا الشأن

(١٢) قد حصل الاتفاق بين الحكومتين على وجوب المحافظة منهما على تنفيذ مفعول معاهدة بروكسل المبرمة بتاريخ ٢ يوليه سنة ١٨٩٠ فيما يتعلق بادخال الاسلحة النارية والذخائر الحربيه والاشربه المقطره او الروحية وبيعها أو تشغيلها

تحريراً بالقاهرة فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩

الامضا آت

كرومر .. بطرس غالى

وهكذا تم فتح السودان بعدان تشبعت كل ذرة من رماله بدماء المصريين وكذلك عاش فهمي مع حوريه فى هناء وسعادة خصوصاً بعدان رزق منها بغلام كان منبع سرورهما وسعادتهما .

أما اسماعيل فقد قضى مدة سجنه وخرج شريدا طريدا هائما فى الطرقات والازقة حتى اذا ماضاق به الحال أسرع الى النيل وألقى بنفسه قائلا - «النيل خير مأوى لأمثالى »

أما نجيه فبعد أن سعت فى طلاقها منه وهو فى السجن وتمكنت من ذلك وانتهت ايام عدتها تزوجت بفاضل سائق سيارتها وعاشت معه عيشة راضية تاركة حياة البذخ والفجور الى حياة الهناء والسرور بين أحضان زوجها وتحت راية أبيها

« تمت بحمد الله تعالى »

السيف والنار

فى فتح السودان

مذكرات ووثائق ومعاهدات تاريخية مصورة



الدراويش فى طريقهم الى المهدى ومعهم رأس غردون
سلاتين باشا